الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الثانی

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 5

الجزء الثاني‏

[بقية سورة البقرة]

[سورة البقرة (2): الآيات 67 الى 74]

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (67) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (68) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ (71)

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏ وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 6

هنا عرض فسيح يفصح عن مدى لجاج اليهود أمام اللّه و رسوله، تمحّلا للمعاذير الواهية المهينة في أمر كان لصالحهم، و قد تساءلوا موسى عنه، و هو قصة القتل التي خلقت فيهم جوا من الحجاج و اللجاج.

كلّ من قبيلي النزاع يتهم الآخر، مما يكاد يولّع نيران الحرب بينهم، و كما ورد في الأثر «1» المؤيّد بملامح آيات القصة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 13: 259 عن تفسير القمي أبي عن ابن أبي عمير عن بعض رجاله عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ان رجلا من خيار بني إسرائيل و علمائهم خطب امرأت منهم، فأنعمت له،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 7

«وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏ وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (72- 73).

ندرس في قصة البقرة- القصيرة- آماد الحمق و العناد في العمق لهؤلاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و خطبها ابن عم لذلك الرجل و كان فاسقا رديئا فلم ينعموا له، فحسد ابن عمه الذي انعموا له فقعد له فقتله غيلة ثم حمله الى موسى (عليه السلام) فقال: يا نبي اللّه هذا ابن عمي فقد قتل، فقال موسى (عليه السلام) من قتله؟ قال: لا أدري، و كان القتل في بني إسرائيل عظيما جدا فعظم ذلك على موسى فاجتمع اليه بنو إسرائيل فقالوا: ما ترى يا نبي اللّه؟ و كان في بني إسرائيل رجل له بقرة و كان له ابن بارّ كان عند ابنه سلعة فجاء قوم يطلبون سلعته و كان مفتاح بيته تحت رأسه و كان نائما، و كره ابنه أن ينبهّه و ينغص عليه نومه: فانصرف القوم فلم يشتروا سلعته، فلما انتبه أبوه قال له يا بني، ماذا صنعت في سلعتك؟ قال: هي قائمة لم أبعها ان المفتاح كان تحت رأسك فكرهت ان أنبهك و أنغص عليك نومك، قال له أبوه: قد جعلت هذه البقرة لك عوضا عما فاتك من ربح سلعتك، و شكر اللّه لابنه، ما فعل بابيه، و امر موسى بني إسرائيل ان يذبحوا تلك البقرة بعينها، فلما اجتمعوا الى موسى و بكوا و ضجوا قال لهم موسى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» فتعجبوا و قالوا: «أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً» نأتيك بقتيل فتقول: اذبحوا بقرة! فقال لهم موسى‏ «أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» فعلموا انهم اخطأوا فقالوا: «ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ» و الفارض التي ضربها الفحل و لم تحمل، و البكر التي لم يضربها الفحل، فقالوا: «ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها» اي شديدة الصفرة «تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» إليها «قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ» اي لم تذلّل‏ «وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ» اي لا تسقي الزرع‏ «مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها» اي لا نقطة فيها الا الصفرة «قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ» هي بقرة فلان فذهبوا ليشتروها فقال: لا أبيعها إلّا بملى‏ء جلدها ذهبا فرجعوا الى موسى (عليه السّلام) فأخبروه فقال لهم موسى: لا بد لكم من ذبحها بعينها، فاشتروها بملى‏ء جلدها ذهبا فذبحوها، ثم قالوا: يا نبي اللّه، تأمرنا؟ فأوحى اللّه تبارك و تعالى اليه: قل لهم اضربوه ببعضها و قولوا من قتلك؟ فأخذوا الذنب فضربوه و قالوا: من قتلك يا فلان؟ فقال: فلان ابن فلان ابن عمي الذي جاء به، و هو قوله: فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏ وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 8

الأباقرة العباقرة! و كم بقروا: كلّا في بصائرهم الكليلة العليلة في العقلية الإنسانية، مهما بقروا: شقا للمسالك الحيوانية الشهوانية، فهم في الروحية الإنسانية في أسفل سافلين، و في الترسّلات الحيوانية و السياسات المادية في أعلى عليين!.

هنا السمات الرئيسية للطبيعة الإسرائيلية، و الوصمات النكدة النكبة، تبدو واضحة وضح النهار في هذه القصة، من مدى انقطاع الصلة بين قلوبهم المقلوبة و بين مقلب القلوب، انقطاعا عن نبعة الحياة الروحية الشفافة الرقراقة، و اتصالا طليقا حليقا بالمظاهر المادية، لحد قد يسبقون الماديين في دورهم الدائر و حورهم الحائر حول المادة و الحيوية الحيوانية الشرسة.

و لقد سميت سورة البقرة بها بمناسبة قصة البقرة، و هؤلاء الأباقرة فيما تقصه عنهم في هذه المجالة و سائر المجالات المعروضة فيها، عرضا لحمقهم في عمقهم لحدّ قد تهان البقرة في تمثيلهم بها و عبادتهم إياها!.

و ترى كيف يلفت عن خطاب الحاضر لهم- فيما سبق هنا من خطابات- إلى عرض غائب في تقاولاتهم هذه، ثم نقلة إلى خطابهم عرضا لمادة القصة المقدمة عليها: «وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها» و هي أحرى أن تقدّم بطبيعة الحال التسلسلية؟.

علّه لأن القصة غير مذكورة في التوراة زمن نزول القرآن كما الحاضرة، فليعرضوا غيّبا فيها، و من ثم- و بعد تثبيت القصة- يأتي دور العرض لقتلهم نفسا و تدارئهم فيها، و لها إشارة في التوراة «1» تلفيقا دقيقا رفيقا للواقع المغفول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الاصحاح الحادي و العشرين من سفر التثنية: 1 إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها واقعا في الحقل لا يعلم من قتله 2 يخرج شيوخك و قضاتك و يقيسون الى المدن التي حول القتيل 3 فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير 4 و ينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى وادي دائم السيلان لم يحرث فيه و لم يزرع و يكسرون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 9

عنه بالواقع المشار إليه فيها و ليذكّروا ماضيهم فيعرفوا من هم؟.

وَ إِذْ قالَ مُوسى‏ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ‏ 67.

يقولها لهم موسى لمّا راجعوه بشأن القتيل المجهول أمره ليوضّح لهم، و إذا هم بأمر لا يناسب في قياسهم سؤلهم و سؤالهم، و هو في نفس الوقت هتك لما يحترمونه من البقرة لحد عبدوها لفترة، بل‏ «وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ» (2: 93) ثم إذا كانت هناك صلة فلتكن إحياء الميت بذبح البقرة و ذلك هو أبعد البعد صلة بأمرهم! فكيف- إذا- يذبحون بقرة؟ و لا تمتّ بصلة قريبة و لا بعيدة لمعرفة القاتل، أم كيف يعرف القاتل بقتل آخر! لكنهم تناسوا الحكمة الربانية الخفية في أوامره، الجليلة في تطبيقاتها، كما جربوها ردحا بعيدا من الزمن، فتثاقلوا في الائتمار، و اثاقلوا في الحوار، فرارا عما أمروا به إلى سواه، بسيّئ الأدب مع اللّه و رسوله في أصل الأمر و فصله، و لكنهم في نهاية الأمر «فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ» بعد ما تحمّلوا مواصفات زائدة في «بقرة» ما كانت عليهم لو ائتمروا من فورهم دون تعنّت و تساءل! الأمر الأول لم يحمل إلّا «بقرة» طليقة عن كل صفة إلّا كونها «بقرة» ثمينة أو رخيصة، فارضا أم بكرا أم عوانا، صفراء أم سوداء أم بيضاء أم عوانا، فقد كانت تكفيهم في البداية- حسب طليق الأمر- أيّة بقرة.

و كما يروى عن النبي صلى اللّه عليه و آله و سلم قوله: «... و لو أنهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- عنق العجلة في الوادي 5 ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي لأنه إياهم اختار الرب إلهك ليخدموه و يباركوا باسم الرب حسب قولهم تكون كل خصومة و كل ضربة 6 و يغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة لمكسورة العنق في الوادي 7 و يصرحون و يقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم و أعيننا لم تبصر 8 اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب و لا تجعل دم بريّ في وسط شعبك إسرائيل. فيغفر لهم الدم فتنزع الدم البريّ من وسطك إذا عملت الصالح في عيني الرب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 10

اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم و لكنهم شددوا فشدّد اللّه عليهم» «1».

يقول لهم موسى الرسول: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» فيردون عليه‏ «أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً» ويكأن اللّه يهزء بعباده عن جهالة، أو أن رسول اللّه يفتري على اللّه ما فيه جهالة!.

«قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً» في ذلك الأمر الإمر، البعيد عن تحقيق سؤلنا، «قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» في نقل الأمر افتراء، و هو من أجهل الجهالة، أم في نفس الأمر أن يحمل امر اللّه بما أحمله جهالة الاستهزاء!.

هنا نتبين أن الهزء من الجهالة، و طبعا إذا كان بدائيا و من جاهل، و في حالة الهجمة، و أما الجزاء الوفاق من المجازي الحق دفاعا عن الحق فليس من الجهل، و كما في نوح (عليه السّلام): «وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 77- أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أبي هريرة قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لو لا ان بني إسرائيل قالوا: و انا ان شاء اللّه لمهتدون- ما اعطوا أبدا لو انهم ...

أقول: و قد رويت عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بألفاظ مختلفة، المتفق عليه فيها إطلاق الأمر و اجزاء أية بقرة، و لكنهم لما شردوا شرد اللّه عليهم، مما يلائم ظاهر الأمر الطليق في الآية، و هنا عشرة كاملة من الأحاديث تحمل تدرج الأمر في قيود المأمور به و قد رواها أبو هريرة و عكرمة و ابن جريح و قتادة و ابن عباس عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و البزنطي و مقاتل بن مقاتل و محمد بن عبيدة عن الرضا (عليه السلام) و علي بن يقطين عن موسى بن جعفر عليهما السلام و ابن طاووس عن الباقر (عليه السلام) و هي كلها موافقة لظاهر القرآن في ذلك فلا يصغى الى قيلة القائل ان المأمور به كان مقيدا من اوّل الأمر، لا سيما و ان قوله‏ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ‏ امر حال بإتيانه و لمّا تذكر سائر المواصفات التالية، و لو كان كما قيل لكان امرا بالمحال ان يأتوا بما لم يتبين بعد قيوده!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 11

(11: 38) و كما اللّه‏ «وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى‏ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ. اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (2: 15) فالهزء و السخرية البادئة هما من الجهالة و سوء الصنيعة، و قد نهي عن الاستهزاء في (33) آية، و في عديدة أخرى عن السخرية، مما يبين لنا مبدئيا أنها من المحرمات الناتجة عن الجهالة القاصدة المقصرة، و اما القاصرة فلا تكليف فيها و لا تنديد.

ففيم تهزء بإنسان؟ أفي نقص من خلقه في مقياسك؟ و ليس إلّا من خلق اللّه، فلا تهزء- إذا- إلّا باللّه، و هذه جهالة باللّه!.

أم في نقص قاصر من فعل أو ترك؟ فكيف يهزء بقاصر و ليس مكلفا في أيّ من الأعراف!.

أم في نقص مقصر؟ إذا فهو مريض بحاجة إلى تمريض، و لا يزيده هزئك به إلّا مرضا إلى مرض، و عليك أن تكون له طبيبا إن استطعت، أم تأتي له بطبيب يداويه، أم تتركه و حاله، لا له و لا عليه إن لم تستطع في علاجه.

أم لأنك تظنك على كمال هو فاقده؟ فكذلك الأمر، و ليس ظنك صائبا على أية حال!: «لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى‏ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى‏ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ» (49: 11) و حتى إذا كانوا خيرا منهم‏ «وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (12)! فلا مجال للسخرية و الهزء إلّا بمن يسخر بالحق بدلا عن الانتباه، هزء عن مصدر العلم و الحكمة دون أية جهالة باللّه، أم جهالة بالأعراف الشخصية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 12

و الجماعية، أو الواجبات الدعائية، و هنا السخرية لها مجال اعتداء بالمثل، و صدا عن نشوب الباطل بين أهل الحق.

«قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ» هو عوذ باللّه في بعدية، باللّه الذي أمره أن يقول لهم: «اذبحوا بقرة» فلا يجهل أمر اللّه، و اللّه الذي يعصم رسوله عن الجهالة فلا يجهل في رسالة اللّه، و هم عارفون أنه رسول اللّه، القائل قوله عن اللّه، و هم يتهمونه بهذه الجهالة الفاتكة لاستبعادهم- في قياسهم المتهوس المركوس و عقليتهم الحيوانية- ألّا صلة لذبح بقرة باتضاح أمر القتيل، و قد اتضح أخيرا، إضافة إلى بيان الواقع من إحياء الموتى، و جزاء الولد البار بأبيه في قصة البقرة.

لقد كان في ذلك التوجيه الوجيه كفاية لهم أن يثوبوا إلى أنفسهم، و يتوبوا إلى ربهم، تنفيذا لأمره لصالحهم في المبدء و المصير، أمرا كان لهم من السهل اليسير، و لكنهم بدلوه بالأمر العسير، أمرا واحدا طليقا يتبدل في تساؤلاتهم المتعنتة بأوامر عدة لا تنطبق إلّا على بقرة يتيمة منقطعة النظير، و هم لا بد لهم من تطبيقه حسما لمادة النزاع في «من هو القاتل»؟.

و هنا ندرس دراسات أصلية أصولية على أضواء هذه الآية الطليقة، المقيدة بعد بما تقيدوا.

1 لا يجوز تقييد المطلق بسناد الاستغراب أو الاحتياط أو أنه القدر المتيقن أمّا هي من تقييدات لا سناد لها إلّا تخيلات لا حجة فيها، اللّهم إلّا قيودا عفوية من قبل الشارع نفسه، في كتاب أو سنة قاطعة، و قد كانت في «اذبحوا بقرة» منفية، فلما تعنتوا في التساءل و شدّدوا شدّد اللّه عليهم جزاء وفاقا.

2 كما أن إطلاق المقيد بدليل محظور، كذلك تقييد الإطلاق دون دليل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 13

محظور، فإنهما تخلف عن ظاهر الدليل أو نصه، و مشاقة مع الشارع في التشريع.

3 تقييد الإطلاق- و هو في مقام البيان- هو تجهيل للمطلق كأنه قصّر في بيانه‏ «قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ...»؟. إذا فهو محظور عقائدي بجنب المحظور العلمي.

4 و حتى إذا لم يتبين قطعا أن المطلق في مقام بيان كامل مراده، فظاهر الحال يقتضي التماشي مع الإطلاق حتى يتبين له قيد أو قيود، فإن كانت قبل وقت العمل فتقييد تبيين، و إن كانت بعده فنسخ قدره.

5 و هنا نرى تعاضل الأمر- بتضايق في أوصاف المأمور به- ما تعاضل المأمورون به، فقد كان في البداية طليقا عن أيّة صفة إلّا أنه «بقرة» ثم لصقت بها أوصاف تلو بعض و لصق بعض حيث اثّاقلوا عن تطبيقه طليقا و تعاضلوا، و هذه بلية ربانية يبتلي بها المتعنّتون و لا ينبئك مثل خبير.

و رجوع ضمائر التأنيث إلى البقرة الأولى الطليقة لا يقيدها لأول الأمر، فإنما القيود آتية تلو بعض و البقرة هي جنس البقرة، «إِنَّها بَقَرَةٌ ...» تعني أن المطلوب الآن بقرة ... لا الأوّل فإنها كانت دون قيود.

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ‏ 68.

«ربك» هنا، دون «ربنا- أو- رب العالمين»- و قد كررت في ثالوث سؤالهم المنحوس- ذلك يشي بأنهم لا يزالون في ريبهم يترددون، و في غيّهم و عيّهم يعمهون، كأن موسى هازئ بهم، أو أنه ينقل عن رب سوى ربهم، ويكأن هناك أربابا عدة هم متشاكسون في أوامرهم، ثم و هم أولاء يحترمون رب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 14

موسى أكثر من أربابهم، لذلك‏ «قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ ...»!

ثم‏ «ما هِيَ» سؤالا عن الماهية، إنه تجاهل عن أنها بقرة، و قد نص عليها أوّل مرة، ثم مزايدة جاهلة قاحلة حول ماهية البقرة من حيث الكيان في عمرها، و كل أمرها، حيث الأسعار و الفاعليات تختلف حسب مختلف الحالات و المجالات.

«قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ» جوابا عن الماهية الأولى‏ «لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ» جوابا عن الثانية «فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ» و قد أمرتم أولا في طليق الأمر، ثم زدتم عليه- تطلبا جاهلا- مواصفات ماهوية ما كانت من ذي قبل إلّا أنها «بقرة» «فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ» دون مزايدة و مكايدة، حيث الأمر صريح لا إبهام فيه، لا يبقي مجالا لأي سؤال! ذلك تأكيد أكيد على واجب الوقوف لحد الأمر- أيا كان- بحدوده المذكورة معه أم دون حدود، مما يوضّح أن «بقرة» كانت طليقة، ثم زيدت عليها قيود بأوامر أخرى جزاء بما كانوا يتعنتون.

و الفارض- هنا- هي العجوز و البكر هي الشابة غير المضروب عليها بالفحل، و «عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ» هي الوسط بين هذه و تلك، و هو وسط العمر و كماله.

و قد تسمى فارضا لفرض السن و قطعه، و لفرض الأرض و قطعها، و لفرض ما يحمّل عليها و قطعه من أشغال، فروض ثلاثة في الفارض، يجمعها طليق «فارض».

و تقابلها البكر، بكرا في العمر فما فرضته، و بكرا عن الحرث فما استعملت له، و بكرا عن ضرب الفحل فما انضربت به‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 15

إذا فعوان بين ذلك يعني الوسط بينهما، لا متقدمة في العمر و لا حمولة و قد ضربها الفحل.

و لماذا «ذلك» مفردا مذكرا و كلّ من فارض و بكر مؤنث؟ علّه يعني ما ذكر من مواصفات.

و لقد كان في هذا و في ما قبله كفاية لمن يصغي إلى الحق المرام، و لكن إسرائيل هي إسرائيل!.

فإلى لجاج ثالث، تضييقا لدائرة الموضوع، علّهم ينجون عن أصله، أم يتأكدون أكثر و أكثر في أصله:

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ‏ 69.

فكما أن الأثر علّه في ماهية خاصة من البقرة، كذلك علّه في لون خاص، و في ذلك تجهيل لساحة الربوبية كأنه قاصر أو مقصر في البيان، و هم أحرى بالحائطة على أوامره تعالى!، ثم تعجيز له سبحانه، كأن الأثر في خصوص بقرة خاصة و ليس من اللّه، «ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها» بين مختلف الألوان‏ «قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ» و هنا لا يكتفي بمطلق الصفرة تقريبا لمضايقتهم في خاصة الميّزة، و قطعا لمعاذيرهم في تساءلات أخرى حول نوعية الصفرة، فهي- إذا- «فاقِعٌ لَوْنُها» صادق الصفرة بمشبعها فالفاقع في الأصفر هو أشده و أشبعه و أنصعه، كما يقال: أصفر فاقع، و أسود حالك، و أبيض يقق، و أحمر قان، و أخضر ناضر.

«تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» بلونها و سائر شمائلها، فلا هي مكسورة و لا عوجاء و لا قبيحة المنظر من ناحية أخرى، بل هي في مثلث الجمال و الكمال، ماهية و لونا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 16

و شكلا، و لا يتم سرور الناظرين إلّا أن تقع أبصارهم على فراهة و حيوية و نشاط و التماع في تلك البقرة.

و قد تلمح‏ «تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» بعد «صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها» أن فاقع الصفرة هو من أحسن الألوان و أنضرها فانظرها حسنا و جمالا و كما يروى‏ «1».

أ تراهم اكتفوا بعد بهذه المواصفات؟ كلّا! فهم إسرائيل الحجوج اللجوج، إذ عادوا مرة أخرى هي الأخيرة- إذ لم تبق بعده مواصفة يتعنّتون بها- يسألون فيها عن ماهيتها مرة أخرى:

قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ‏ 70.

و هم في هذه المرحلة الأخيرة مسندون إلى بقاء التشابه في موضوع الأمر:

«إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا» و واعدون الاهتداء بها بمشيئة اللّه: «وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ».

و لماذا «الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا» دون «البقرة» المكررة هنا و هناك؟ علّه جنس البقرة مهما كانت أنثى، فليس أي جنس من البقر له ذلك التأثير، فليكن بقرا منقطع النظير لا مثيل له حتى يؤتى منه ذلك الأثر المنقطع النظير.

فهؤلاء الحماقى يفتّشون بعد عن بقرة خاصة لها خاصتها هذه، متجاهلين أن الأثر كله هو من خالق البقرة و ليس في البقرة نفسها، و لو لا قولهم أخيرا «وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ» لما بينت لهم آخر الأبد و الذي نفس محمد بيده لو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 89 في الكافي عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: من لبس نعلا صفرا لم يزل ينظر في سرورها ما دامت عليه لان اللّه عز و جل يقول‏ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 17

لم يقولوا «إِنْ شاءَ اللَّهُ» لحيل بينهم و بينها ابدا «1» أ ترى أن اللّه لم يشأ اهتداءهم حتى الآن؟ فهم إذا معذورون! أم شاء؟ فتخلفت المشية عن الواقع! فما هو دور «إنشاء الله» هنا إن كان لهم الإختيار؟.

لقد شاء اللّه اهتدائهم بشرعته لما أمرهم بما أمرهم فتخلفوا عنه عاصين، و لم يشأ حتى الآن اهتداءهم تكوينا إذ هم لم يشاءوا بسوء اختيارهم، فليس ل «إنشاء الله» هنا دور إلّا تكوينا لاهتدائهم إن شاءوا هم أن يهتدوا و قد شاءوه أخيرا لما عيوا و أيسوا عن مكرهم.

و المتورط في العصيان عليه التبرك ب «إِنْ شاءَ اللَّهُ» لصقا بمشيئته إلى مشيئة اللّه تعالى، ثم «لمهتدون» قد تعني إضافة إلى هدي التطبيق لأمر اللّه، الاهتداء إلى بقرة تحمل كل هذه المواصفات، ثم الاهتداء إلى معرفة القاتل في هذا البين، فقد يشاء اللّه- بما شاءوا- اهتدائهم إلى ذبحها، ثم لا يشاء اهتداءهم إلى القاتل أن يضربوا المقتول ببعضها، أم لا يشاء اهتداءهم إلى هذه البقرة الخاصة بعد ما شاء اهتداءهم لائتمارهم جزاء بما تعنتوا.

قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ‏ 71.

فلم تعد هذه البقرة- إذا- متوسطة العمر صفراء فاقع لونها تسر الناظرين فحسب، بل هي بقرة غير مذللة بإثارة الأرض و سقي الحرث، ثم هي مسلّمة: خالصة اللون في الصفرة الفاقعة «لا شِيَةَ فِيها» لا تشوبها علامة، و لا تمازج لونها لون آخر، كما هي مسلمة عن سائر العيوب:

و ترى‏ «لا شِيَةَ فِيها» هي- فقط- إيضاح ل «مسلمة»؟ و ليس القرآن كتاب لغة! و مسلمة اللون- طبعا- «لا شِيَةَ فِيها» إذا فهي توضيح للواضح!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 3: 120 قال الحسن عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 18

قد تعني «مسلمة» عن كل العيوب و منها «شِيَةَ فِيها» و مسلمة عن آثار العمل، و مسلمة عن الحبس للعمل و عن كل نقص متصور لبقرة، أم و مسلّمة من والد إلى ولده البار به جزاء بره، أمّا ذا من مسلمات في بقرة.

«قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ» ويكأنه قبل الآن كان جائيا بالباطل من ربه، ويكأن اللّه ما كان يعرف ما عرفوه‏ «فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ» نكرانا لأن يؤثر ذبحها في التعرف إلى القاتل، و تماسكا عن دفع مال في ذلك المجال، و تمنعا عن ذبح بقرة و لهم سابق العبادة لها، و ذلك الثالوث المنحوس كان يمنعهم عن ذبحها لولا سؤلهم المدقع في التعرف إلى القاتل، أم و ليجربوا موسى في الإجابة عن سؤالهم! ففي هذه الضفة- البخيلة المماكسة الناكثة لعهود اللّه، المتشاكسة في أمر اللّه- ينتهي أمر اللجاج إلى بقرة منقطعة النظير في كل إسرائيل عن بكرتها.

ثم في الضفّة المؤمنة: رجل بارّ بأبيه‏ «1»، تارك ربح التجارة حرمة له،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 87 في عيون الأخبار بسند متصل عن البزنطي قال سمعت أبا الحسن الرضا (عليه السلام) يقول: ان رجلا من بني إسرائيل قتل قرابة له ثم اخذه فطرحه على طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل ثم جاء يطلب بدمه فقالوا لموسى ان سبط آل فلان قتلوا فلانا فأخبرنا من قتله؟ قال: ايتوني ببقرة «قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً ...» و لو انهم عمدوا إلى أي بقرة اجزأتهم و لكن شردوا فشرد اللّه عليهم‏ «قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها ...» و لو انهم عمدوا الى بقرة لأجزأتهم و لكن شردوا فشرد اللّه عليهم‏ «قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ ...» فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل فقال لا أبيعها إلا بملى‏ء مسكها ذهبا فجاؤا الى موسى (عليه السلام) فقالوا له ذلك فقال: اشتروها فاشتروها و جاؤا بها فأمر بذبحها ثم امر ان يضرب الميت بذنبها فلما فعلوا ذلك حيي المقتول و قال: يا رسول اللّه ان ابن عمي قتلني دون من يدعى عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله فقال لرسول اللّه موسى بعض أصحابه: ان هذه البقرة لها نبأ 2 فقال و ما هو؟ فقال: ان فتى من بني إسرائيل كان بارا بابيه ... فقال رسول اللّه موسى انظروا الى البر ما يبلغ بأهله!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 19

توهب له هذه البقرة بعينها جزاء بما كسب، و الضفتان تتلاقيان في هذه الوهبة الأبوية بوهبة ربانية تجعله من أغنى الأغنياء في بني إسرائيل، كما و ان ضرب المقتول ببعضها شهادة معلنة أنه يحيي الموتى و هو على كل شي‏ء قدير.

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ 72 فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏ وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ‏ 73.

هنا «نفسا» و «بقرة» هما مؤنثان، فكيف تختص إحداهما بذكورة الضمير «اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها»؟

علّ تذكير الضمير الراجع إلى «نفسا» باعتبار أنها القتيل، و ليوضّح أنه المضروب ببعض البقرة و ليست هي المضروبة به، و لا سبيل لذلك الإيضاح إلّا تذكير ضمير «نفسا» القتيل.

و هنا عرض لمادة القصة الأصيلة و هي واقع إحياء الموتى، ففي‏ «اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها» نموذج منه يدل على إمكانية و واقع إحياء الموتى بالأولى، فإذا يحيى ميت بضرب ميت آخر به، فلئن يحيى بإرجاع الروح إليه أحرى و أولى.

أنتم‏ «قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها» كلّ يدرؤه عن نفسه و يلقيه على آخر «وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» «1» بهذه الخارقة البارعة أن تضربوه ببعضها «كذلك» البعيد في قياسكم، القريب القريب في قياس اللّه‏ «يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 1: 78-

اخرج احمد و الحاكم و صححه و البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): لو ان رجلا عمل عملا في صخرة صماء لا باب فيها و لا كوة خرج عمله الى الناس كائنا ما كان، و فيه اخرج البيهقي من وجه آخر عن عثمان قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من كانت له سريرة صالحة او سيئة اظهر اللّه عليه منها رداء يعرف به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 20

على طول الخط، مهما اختلفت الإحياءات هنا و في الأخرى، و لكنما الإحياء في الأخرى أحرى.

أحرى‏ «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» و هنا الإحياء لم يكن إلّا إخراجا لما كنتم تكتمون، كواقعة جزئية تهتدون فيها إلى جزاء القاتل بعد ما تعرفون.

و أحرى لأنه أهون من الخلق الأوّل: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) «أَهْوَنُ عَلَيْهِ» في قياسكم، إذ ليس في قياس اللّه لنفسه هين و أهون، «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» ثم و «كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏ وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» مما يلمح أنهم كانوا في شك من إحياء الموتى، و كما لا نرى في التوراة الحالية- على طولها- نصوصا حول المعاد، اللهم إلّا إشارات، مما يدل على حالة النكران الإسرائيلي- العريقة فيهم- منذ نزلت عليهم التوراة فضلا عما بعدها، فقد حرّفوا عن التوراة آيات المعاد فجرّفوها بجرّافات التجديف و التحريف! فطالما المسافة بين الموت و الحياة هائلة غائلة تدير الرؤس، و لكنها في حساب الخالق سهل يسير، ففي ضمن ما يجيب عن سؤالهم يعطفهم إلى واقع إحياء الموتى الذي هم فيه مترددون.

فقد كان بالإمكان الإجابة: أن فلانا هو القاتل، و لكنهم- حسب طبيعتهم- قد ينكرون تكذيبا لموسى، فليكن القائل هو نفس القتيل حتى يصدقوه شاءوا أم أبوا.

و كان بالإمكان إحياء القتيل ليشهد شهادته دون هذه الطائلات البليات في قصة البقرة، و لكنهم قد يتشككون في كونها خارقة إلهية بيد موسى الرسول.

و كان بالإمكان إحياءه بأن يضرب به موسى يده أو عصاه، و لكنه ما كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 21

يفيد كامل الفائدة: أن يؤمروا بذبح ما كانوا يحترمونه لحد العبادة، و أن يشتروها و هم الأنجاس، و أن يضربوه ببعضها فيحيي تدليلا على إمكانية بروز الحياة بضرب ميت بميت فضلا عن رجوع الروح الحي إلى البدن الميت! «كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏ وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

أ ترى أي جزء من جسد البقرة كانت له هذه الفاعلية بإذن اللّه؟

«ببعضها» يلغي كل الاختصاصات عن أي جزء منها، فكما «بقرة» كانت طليقة لأوّل مرة، كذلك «ببعضها» على طول الخط، إذ لم يتزايدوا فيه كما تزايدوا فيها فلم يخرج عن إطلاقه! فيا لقصة البقرة من آماد بعيدة و آيات غريبة قريبة، لم تك تحصل إلّا بما حصل، ما يحق أن تتسمى بها السورة لهذه البقرة و هؤلاء الأباقرة.

و قيلة القائل- الغيلة على آيات اللّه البينات- أن‏ «يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏» هنا يعني حفظ الدماء التي كانت عرضة للسفك بسبب الخلاف في: من هو القاتل، إنها مردودة عليه ب «كذلك» المشيرة إلى‏ «اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها» ف «كذلك» الضرب‏ «يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏» و لو لم يكن في ذلك الضرب إحياء القتيل، فكيف عرف القاتل بذلك الضرب، و ما هي الصلة بينه و بين معرفة القاتل لو لا إحياء القتيل! ثم و لا إشارة في القصة باحتمال سفك الدماء لو لم يعرف القاتل! صحيح أن إبقاء الحياة قد يسمى إحياء: «وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً» و لكن كيف تبقى حياة بين المتدارئين في: من قتل القتيل، إلا بمعرفة القاتل الحقيقي، و كيف يعرف ب «اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها» لو لا إحياءه بذلك الضرب، ثم‏ «وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ» ليس إلا تعريفا عمليا بالقاتل، كما و «يُرِيكُمْ آياتِهِ» تلميحة بينة أن هناك آية خارقة إلهية بها عرف القاتل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 22

فإنما هي انتفاض الميت مبعوثا ناطقا شاهدا فيما ادّارءوا، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة، ليس فيها من حياة و لا مادة حياة «كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى‏ وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

لا كما يقوله هذا الهارف الخارف، المأول آيات اللّه المعجزات إلى دعايات متعودات.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ‏ 74.

«ثم» بعد هذه الآيات البينات‏ «قَسَتْ قُلُوبُكُمْ» أكثر مما كانت قاسية بدلا عن أن تلين لذكر اللّه‏ «قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» الإحياء إجابة عن سؤال و إيتاء لسؤل، كما «بَعْدِ ذلِكَ» التنبيه بكل نبهة في مختلف المجالات.

أ ترى الخطاب هنا يختص بالسابقين؟ فما هو ذنب اللّاحقين! «وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى‏»! أم يخص اللّاحقين‏ «مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» الذي حصل للسابقين عبرة للّاحقين، «قَسَتْ قُلُوبُكُمْ» إذ «أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ» (28: 45): «أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ» (57: 16).

قد يشملهم الخطاب جميعا، فإنهم سلسلة موصولة على طول التأريخ الإسرائيلي، أنهم تقسى قلوبهم أكثر و أقسى مما كانت من قبل، و آيات اللّه تترى عليهم لصق بعض ليل نهار، كما «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 23

«ثُمَّ قَسَتْ‏ ... فَهِيَ كَالْحِجارَةِ» في القسوة الصلبة الصلتة، لا فحسب‏ «أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً».

و ترى «أو» هنا تضرب عن قسوة الحجارة إلى أشد قسوة؟ و ليست قلوبهم- ككل- إلّا كالحجارة أو أشد قسوة، فلا مجال للإضراب إلّا ممن يجهل مدى القسوة فيها! أم هي للإضراب بالنسبة لبعضهم؟ و «كم» لا تعني البعض، فقلوب الكل إما هي كالحجارة أو أشد قسوة!.

قد تعني «أو» هنا التقسيم، فقلوب البعض كالحجارة، و قلوب الآخرين أشد قسوة.

أم و تعني مختلف الحالات في بعض القلوب، فقد كانت قاسية، ثم اشتدت قساوتها فهي كالحجارة، ثم تشتد فهي أشد قسوة، فكلا الإضراب و التقسيم- إذا- معنيّان من «أو» أم و ثالث هو الإبهام‏ «1»، و هو- فقط- بالنسبة لمن لا يعرف مدى قساوة القلوب، التي هي كالحجارة أو أشد قسوة، و يلحقه رابع هو التشكيك، و الأخيران هما في دور واحد! و دليلا على‏ «أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً»: تفجر الأنهار من بعض الحجارة، و تشقق البعض بخروج الماء منها، و هبوط البعض من خشية اللّه! و هذه القلوب الخاوية المقلوبة لا تتفجر منها أنهار المعرفة، و لا تتشقق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| خيّر أبح قسم باو و أبهم‏ |  | و اشكك و إضراب بها أيضا نمي‏ |

و فيما يروى عن الامام الحسين (عليه السلام) من تفسير الآية أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً أبهم على السامعين و لم يبين لهم كما يقول القائل: أكلت خبزا او لحما، و هو لا يريد به انه لا ادري. ان يبهم على السامع حتى لا يعلم ماذا أكل و ان كان يعلم ان قد أكل أيهما ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 24

بخروج مياهها منها، و لا تهبط من خشية اللّه، بل هي جافة صلدة صلتة لا تزداد في خضم الآيات البينات إلّا تصلّدا و جمودا و جفافا و خمودا!.

لقد رأوا الحجر انفجرت منه اثنتا عشرة عينا بما ضرب موسى عصاه، و لم تنفجر قلوبهم بعصا الرسالة الموسوية! و رأوا الجبل اندك بما تجلى له ربه، و لم تندك جبال قلوبهم بتجلي هذه الرسالة السامية، و جلوات آيات اللّه البينات، فهي لا تلين بها و لا تندى، و لا تنبض بخشية و لا تقوى، بل و تزداد طغوى على طغوى! قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة ليست لتلين بذكر اللّه أيا كان و أيان‏ «وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» «لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ».

نرى أن‏ «مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ» كما نرى‏ «وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ» فما هي الحجارة التي تهبط من خشية اللّه و هي لا تعقل و لا تكلّف بشي‏ء؟

أ هي كما قال اللّه: «لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى‏ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» (59: 21)؟ «وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (21) تحوّله إلى مثل لا واقع له، و «لو» تحيل واقعه، فلن ينزل اللّه على جبل ذكرا: قرآنا و غير قرآن، و هناك اللّه في اقتسام الجبال يضرب مثل الواقع من الجبال لبيان مدى قساوة هذه القلوب، فليكن هبوطها من خشية اللّه واقعا كتفجر الأنهار من بعضها، و خروج الماء من تشقق الأخرى!.

ثم لو كان الهبوط من خشية اللّه على فرض نزول الوحي عليه لعم الجبال كلها كما «عَلى‏ جَبَلٍ» تعممه لها كلّها، دون‏ «وَ إِنَّ مِنْها»! أم‏ «إِنَّ مِنْها» هنا راجعة إلى القلوب لتقدم ذكرها، و مهما كانت الحجارة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 25

اقرب مرجعا، فالقلوب أنسب و أليق معنى؟ و هو بعيد أدبيا لبعد المرجع، و بعيد معنويا حيث القلوب تقلّب و لا تهبط، اللهم إلا هبوطا عن علوائها المقلوب، فتنضبط ذاكرة للّه، متذكرة بآيات اللّه.

هذا و لكن الجبال كجبال هي مثال لقساوة القلوب، و ليست القلوب الخاشية الهابطة من خشية اللّه- و هي القلوب المؤمنة المطمئنة باللّه- ليست هي بالتي تناسب ضربها مثلا لإثبات أن قلوبهم أقسى من الحجارة!.

قد يعنى هبوط بعض الجبال من خشية اللّه، هبوطها الهابط منها بأمر اللّه تكوينا و هي شاعرة له و مدركة، «إِنْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» (17: 44) تعمم الخشية الشعورية إلى كل شي‏ء، فالهابط من الجبال تهبط بخشية اللّه، كما الثابت منها تثبت بخشية اللّه، و لا ينافيها الأسباب الطبيعية لهبوطها، فانها كلها منتهية إلى اللّه، و لا يعمل اي سبب عمله إلّا بأمر اللّه و «كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» (2: 116) فظاهر الخضوع فيها لتدبير اللّه بآثار الصنعة و إحكام الصنعة لحد الهبوط فيما تهبط، تقريع على تلك القلوب المقلوبة غير الخاشية للّه.

فحينما الحجر يهبط من خشية اللّه، لا تهبط قلوب هؤلاء- الأشد قسوة من الحجارة- من خشية اللّه‏ «وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

إنهم خونة في أمانة اللّه لا يوجد لهم مثيل في الكائنات‏ «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا» (33: 72) و آية الأمانة هذه- كما فسرناها في سورتها- تحمل حملة عنيفة على الإنسان الظلوم الجهول في خيانته أمانة العقل و التكليف، فحمل الأمانة يقابل أداءها، فهو خيانتها.

و على حد

المروي عن سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 26

تفسير الآية: يبست قلوبكم معاشر اليهود كالحجارة اليابسة، لا ترشح برطوبة، اي: انكم لا حقّ اللّه تؤدون، و لا لأموالكم تتصدقون، و لا بالمعروف تتكرمون، و لا للضيف تقرون، و لا مكروبا تغيثون، و لا بشي‏ء من الإنسانية تعاشرون و تواصلون ... «1»

فيا ويلاه من قسوة القلوب‏

«ما جفت الدموع إلّا لقسوة القلوب و ما قست القلوب إلّا لكثرة الذنوب» «2»

و

«لا تطوّل في الدنيا أملك فيقسو قلبك و القاسي القلب مني بعيد» «3».

[سورة البقرة (2): الآيات 75 الى 82]

أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (76) أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (77) وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلاَّ أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (80) بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (81) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (82)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 90 في الخرايج و الجرايح روى عن الحسين بن علي (عليهما السلام) في قوله تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ...- نقلنا تفسير او أشد قسوة في العدد السابق- و ان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، اي قلوبكم في القساوة بحيث لا يجي‏ء منها خير يا يهودي، و في الحجارة، يتفجر منه الأنهار فيجي‏ء بالخير و النبات لبني آدم‏ «وَ إِنَّ مِنْها» اي من الحجارة «لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ» دون الأنهار، و قلوبكم لا يجي‏ء منها الكثير من الخير و لا القليل‏ «وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ» أي من الحجارة أن أقسم اللّه عليها باسم اللّه يهبط، و ليس في قلوبكم شي‏ء منه ...

(2) المصدر 92 في كتاب العلل باسناده الى الأصبغ بن نباتة قال قال امير المؤمنين (عليه السلام).

(3) المصدر في الكافي عن علي بن عيسى رفعة قال: فيما ناجى اللّه عز و جل به موسى (عليه السلام) يا موسى ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 27

لقد كان المسلمون على علم- حسب القرآن- أن اليهود يعرفون القرآن و يعرفون رسول القرآن كما سطرت لهم في التوراة، فكانوا- قبل الهجرة- يأملون أن يؤمنوا لهم، حتى هاجروا و خاب أملهم، و هنا يطمئنهم اللّه أنهم ليسوا ليؤمنوا لهم بسابق غيّهم و قساوة قلوبهم، و تحريفهم كلام اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 28

أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ‏ 75.

«يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى‏ خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ...» (5: 13).

هنا «يُؤْمِنُوا لَكُمْ» كأضرابها، تعني الإيمان لصالح المسلمين، و ليس الإيمان بالمسلمين، كما «آمن‏ لَهُ لُوطٌ» فإن في انسلاك لوط في سلك إبراهيم- و قد كان مؤمنا باللّه قبل- أزر و شدّ ظهر للدعوة الإبراهيمية، و كذلك اليهود- و هم أعظم أهل الكتاب- كان في إيمانهم برسالة الإسلام، اطمئنانا لصالح المسلمين فإيمانا لهم أمام مشركي الجزيرة، و لكنهم أصبحوا أنكر و أكفر منهم.

«أَ فَتَطْمَعُونَ» بعد ما سمعتم من قساوة قلوبهم أمام شرعتهم الإسرائيلية أنفسهم‏ «أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ» و هم لم يؤمنوا لرسولهم‏ «وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ» التوراة «ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ» معنويا، أم و تعبيريا «مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» الحقّ الرسالي لمحمد (ص) فيما عقلوه، كسائر الحق الذي كانوا يحرفونه من بعد مواضعها!.

و ذلك الفريق هم بطبيعة الحال مدراء الشرعة التوراتية، المسموع كلامهم عند أتباعها، لحد لا يؤمنون لكم اتباعا لهم، و ليس يختص هذا الفريق بالذين عاشروا موسى (ع) و لا الذين عاشروا محمدا (ص) بل هم كل من كان يسمع آيات التوراة ثم يحرفه من بعد عقله لها و هو يعلم ماذا سمع و ماذا و لماذا حرفّ؟.

فحين يسمعون كلام اللّه من موسى «نابى‏ء آقيم لا هم مقرب إحيحم كموشه و ناتتي دباري بفيو و يدبر الوهيم إت كال أشر أصونوا» (تث 18: 19):

«نبي أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى و أضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 29

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون، يحرفونه تحريفا مشوّها كما في الترجمة العربية عن اصل يوناني 1687:

«أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك و أجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به» (19) فقد بدلت «من أقرباء أخيهم» إلى «من وسط إخوتهم» حتى تنحرف هذه البشارة عن النبوة غير الإسرائيلية، فأخيهم هنا هو عيص أخو يعقوب و كما في «تث 28: 8» و لأن عيص تزوج بنت إسماعيل و أولد منها ولدا و من غيرها آخرين، لذلك أصبح بنوا إسماعيل من عيص أقرباء بني عيص، إذا فأقرباء إخوة بني إسرائيل هم بنوا إسماعيل من عيص و قد بعث من بينهم محمد (ص) «1»! و حين يسمعون كلام اللّه من موسى «و ليشمعيل شمعتيخا هينه برختي أوتو و هيفرتي أوتوا و هيربتي أوتوا بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد و نتتيو لغوى غادل» (التكوين 17: 20):

«و لإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها أنا أباركه كثيرا و أنميه كثيرا و أرفع مقامه بمحمد و اثني عشر إماما يلدهم إسماعيل و اجعله امة كبيرة».

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون، كما في نفس الترجمة: «و أما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها انا أباركه و أثمره و أكثره جدا اثني عشر رئيسا يلد و أجعله أمة كبيرة».

فقد ترجموا «بمئد مئد» و هو محمّد- و حتى بحساب الأعداد الذي يعتمدون عليه، فانه (92) كما محمد (92)- ترجموه ب «أكثره جدا» رغم أن معناه كثير الحمد المعبر عنه بأحمد و محمد! «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) 33- 39.

(2) راجع «رسول الإسلام» 40- 43.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 30

و حين يسمعون كلام اللّه من هوشع: «كي هنيه هالخو ميشود ميصرييم تقبصم موف تقبرم محمد لكسفام قيموش ييراشم حوح باهاليهم» (هوشع 9: 6):

«ها إنهم يرتحلون لأجل الخراب، فمصر تجمعهم، و موف تدفنهم، و محمد لفضتهم و القراص يرثهم، و العوسج يستولي على أخبيتهم».

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون من هو محمّد، و كما نرى في مختلف التراجم:

«و القراص يرث فضتهم الشهية- يرث القريص نفائس فضتهم- الأمكنة المرغوبة لفضتهم- بيت الأمل لفضتهم» محرفين محمدا بهذه الأربع مخافة عن أن تعني محمدا (ص) «1»! و حين يسمعون كلام اللّه من سليمان (ع) في مواصفة عريضة لمحبوب وحيد له و في النهاية:

«حكو ممتقيم و كولو محمديم زه دودي وزه رعي بنت يرشالام» (نشيد الأنشاد 5: 16):

«فمه حلو و كله محمد هذا محبوبي و هذا ناصري يا بنات أورشليم».

هكذا يسمعونه ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون انه محمد الرسول (ص).

ففي الترجّمة التقليدية للتورات نجدها هكذا: «حلقه حلاوة و كله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بخصوص لفظة محمد في بشارة هوشع بينا هناك ان تحريفهم يحمل اغلاطا من الناحية الادبية كما المعنوية (73- 79).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 31

مشتهيات هذا حبيبي و هذا خليلي يا بنات أورشليم! «1».

و هكذا نجد وفيرا من البشارات التوراتية بحق محمّد (ص) أوردنا قسما منها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» بين محرفة لفظيا او معنويا من هذا الفريق الغريق في أنانيات العنصريات.

وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ‏ 76.

قد تلمح الآية أن هؤلاء هم فرقة غير متطرفة من هذه الفرقة العالمة المحرفة، فهم يراعون الجانبين‏ «وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا» بما سمعنا من خبر محمد و القرآن في التوراة «وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى‏ بَعْضٍ قالُوا»: البعض الثاني المحرّف اللجوج، للبعض الاوّل‏ «أَ تُحَدِّثُونَهُمْ»: المسلمين‏ «بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ»: من هذه البشارات‏ «لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ» لماذا لم تؤمنوا «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» أن تحديثكم هذا خلاف المصلحة الطائفية، و قد يبوء بالخسار يوم الآخرة!.

و ترى إذا كانت هذه البشارات فتحا لأهل التوراة، فلما ذا- إذا- إخفاءها؟.

إنها كانت لهم فتحا على الذين كفروا قبل مبعث الرسول محمد (ص)، فتحا جانبيا وقتيا، ثم بعد ما جاء دور الرسول المبشر به كفروا به: «وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ» (2: 89).

هؤلاء الحماقى يعتبرون التحديث بهذا الفتح للذين آمنوا خلاف العقل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). رسول السلام في الكتب السماوية 80- 83.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 32

«أَ فَلا تَعْقِلُونَ» تنديدا بفريق منهم غير متطرف يحدث به لهم إذ ليسوا من المعاندين المتواطئين‏ «1».

و قد يلمح‏ «وَ إِذا لَقُوا» رجوعا لضمير الجمع الى الفريق السابق ذكرهم، السامعين كلام اللّه المحرفين له، أنهم كانوا ينافقون الفريقين: المسلمين و اليهود، مهما كانوا أقل تطرفا من أقطاب التحريف و التجديف، إذ هم يجهّلونهم بما يحدثون للمسلمين.

أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ‏ 77.

أ فلا يعقلون هم أولاء الأنكاد المجاهيل‏ «أَ وَ لا يَعْلَمُونَ» متجاهلين عن علم كتابي و علم عقلاني‏ «أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ» من بشارة و سواها «وَ ما يُعْلِنُونَ» إذا لقوا الذين آمنوا؟ فسواء عليه في حجاجه عليهم أسرّوا ما فتح عليهم أم أعلنوا، فحين لا يؤمنون بما فتح لهم فانه يحتج عليهم يوم القيامة من فتح عليهم، سواء أحاجّهم المؤمنون به عند ربهم أم لم يحاجوا، فلا صلة بأصل هذه المحاجة الربانية لهذا الإعلان، و لا لمحاجة المؤمنين إن علموا.

ويكأن اللّه لا يعلم إلا بما علم المؤمنون، و لا يحاجهم إلّا إذا حاجوهم به عند ربهم، فاللّه- إذا- هو الفرع و هؤلاء و أولاء هم الأصلاء!.

فاللّه هو الذي فتح عليهم هذه البشارة، و هو الذي فرض عليهم إتّباع هذا النبي، فهل ينسى او يتناسى يوم القيامة ما فتح عليهم؟ فهو يحتج إذا حدثوه به المسلمين! و لا يحتج إذا لم يحدثوا!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 92- في مجمع البيان حول الآية روي عن أبي جعفر الباقر (عليهما السلام) «انه كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين إذا لقوا المسلمين حدثوهم بما في التوراة من صفة محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فيحاجوكم به عند بكم» فنزلت هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 33

فيا لحمقهم من عمق، و لعمقهم من حمق، كيف يجهّلون اللّه مصلحية الحفاظ على الرسالة الإسرائيلية في زعمهم.

و من أعجب العجاب أنهم يجهّلون غير المعاندين منهم، المجاهرين بذلك الفتح للذين آمنوا: «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» و هم أنفسهم يحملون من اللّاعقل ما ينفر منه الحمر المستنفرة، حاسبين ألّا حجة للّه عليهم إلّا أن يصارحوا المسلمين بذلك الفتح! فحقا إنهم أباقرة عباقرة!.

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ‏ 78.

هذه فرقة ثالثة إسرائيلية، جاهلة قاحلة مستضعفة، بعد الأولى العالمة المعاندة المستكبرة المحرفة، و الثانية المتعلمة المنافقة غير المتطرفة، و الويل كل الويل على الأوّلين، ثم الآخرين حسب دركات في تقصيراتهم، ثم المستضعفون القحّ غير المعاندين قد تدركهم رحمة من اللّه.

ف «أميون» هنا يعني عن معرفة الكتاب، سواء هؤلاء الذين لم يدرسوا قط اي كتاب، و لم يسمعوا سمع المعرفة لعلم الكتاب‏ «1»، أم الذين هم دارسون علوما غير علم الكتاب، أو الذين درسوا ألفاظه و هم عن معانيه غافلون، و عن مغازيه جاهلون، و مهما اختلفت دركات ثالوث الأمية، و لكنهم كلهم قد يعتبرون هنا من الأميين، و كما اعتبر غير أهل الكتاب- ككل- من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 92 عن الاحتجاج للطبرسي باسناده الى أبي محمد العسكري (عليه السلام) في الآية: إنّ الأمي منسوب الى الأم، اي هو كما خرج من بطن امه لا يقرء و لا يكتب، لا يعلمون الكتاب المنزل من السماء و لا المتكلم به و لا يميزون بينهما إلا أماني، اي إلّا ان يقرء عليهم و يقال لهم ان هذا كتاب اللّه و كلامه، لا يعرفون إن قرئ من الكتاب خلاف ما هم فيه‏ «وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» اي ما يقرأ عليهم رؤساءهم من تكذيب محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في نبوته ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 34

الأميين، إذ لم تسبق لهم معرفة كتابية: «وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ» (3: 20).

فالأمية قد تكون مطلقة و أخرى نسبة، نسبة إلى علم الكتاب الرسالي بدرجاته، و «لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ» هنا، تعني هذه النسبية، فقد يكون بارعا في العلوم التجريبية، و لكنه فارغ من العلوم الكتابية، فهو- إذا- من الأميين، كما الأمي الطليق منهم، مهما اختلفت مسئولياتهم حسب مختلف أمياتهم.

«لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ» هي جمع أمنية، و هي البغية الخيالية المتهوسة التي لا واقع لها حقا، فقد يقرءون الكتاب و هم عن معانيه غافلون، و هنا مسرح الأمنيات الفارغة من عند أنفسهم أو المستكبرين المحرفين الكلم عن مواضعه، فهم حضور عند الألفاظ و القراآت، غيّب عن المعاني و المرادات‏ «وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» فيما يتمنون من معان، لا يسندون إلى علم او أثارة من علم إلّا «أَمانِيَّ» لأنفسهم، أم تقاليد جاهلة عمياء.

إذا «إِلَّا أَمانِيَّ» استثناء منقطع، حيث الأماني أمام الكتاب ليس علما بالكتاب في وجه من الوجوه، فإن الأماني هي من الشيطان: «يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً» فهي- ككل- تخيلات بعيدة عن الواقع الحق و عن حق الواقع، بعيدة عن كتاب اللّه و عن كل شرعة اللّه!.

فالعلم الحجة من شرعة اللّه، هو بين علم عن اجتهاد سليم، ام علم عن تقليد سليم، ثم لا ثالث‏ «إِلَّا أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

و لا يعني التقليد في شرعة الحق التنازل عن كل عقل و علم، إنما هو تفتيش عاقل عالم عمن يعقل تماما و يعلم شرعة الحق، عالما عيلما أمينا على دينه، صادرا عن شرعة الوحي الحق، و واردا مورد الحق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 35

فالأمي الطليق الذي يجهل، و يجهل أنه يجهل دونما تقصير، هو من «المستضعفين الذين لا يجدون حيلة و لا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم».

و الأمي العارف بأميته و جهله، عليه ان يتعلم، او يتبع خطى من يعلم، دون ترسّل في تقاليد جاهلة عمياء، فهو مستضعف مقصر في تقليده، مسئول عند ربه.

و الأمي الذي هو على درب التعلّم، و لا يقلّد إلا فيما ليس ليعلم، و انما يقلّد من يعلم و هو أمين، انه على سبيل نجاة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير بيان السعادة 1: 106 نقل‏ انه قال رجل للصادق (عليه السلام): فإذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب الا بما يسمعونه من علمائهم لا سبيل لهم الى غيره فكيف ذمهم بتقليدهم و القبول من علمائهم؟ و هل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلدون علماءهم فان لم يجز لأولئك القبول من علمائهم لم يجز لهؤلاء القبول من علمائهم؟

فقال: بين عوامنا و علمائنا و بين عوام اليهود و علمائهم فرق من جهة و تسوية من جهة، اما من حيث استووا فان اللّه قد ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم كما ذم عوامهم، و اما من حيث افترقوا فلا، قال: بينّ لي ذلك يا ابن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال (عليه السلام): ان عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح و بأكل الحرام و الرشا و بتغيير الأحكام عن وجهها بالشفاعات و العنايات و المصانعات، و عرفوهم بالتعصب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، و انهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من تعصبوا عليه و اعطوا ما لا يستحق من تعصبوا له من اموال غيرهم و ظلموهم من أجلهم و عرفوهم يقارفون المحرمات و اضطروا بمعارف قلوبهم الى أنّ من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز ان يصدّق على اللّه و لا على الوسائط بين الخلق و بين اللّه فلذلك ذمهم لما قلّدوا من قد عرفوا و من قد علموا انه لا يجوز قبول خبره و لا تصديقه في حكايته و لا العمل بما يؤديه إليهم عمن لم يشاهدوه، و وجب عليهم النظر بأنفسهم في امر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذ كانت دلائله أوضح من ان تخفى و أشهر من ان لا تظهر لهم و كذلك عوام أمتنا إذا عرفوا من فقهاءهم الفسق الظاهر و العصبية الشديدة و التطالب على حطام الدنيا و حرامها-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 36

ثم الويل كل الويل هو للذين يستجهلون الأميين استحمارا و استثمارا استكبارا في الأرض.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ‏ 79.

لقد جلسوا مجلس التشريع بإنزال الكتاب، و تبديل بعضه ببعض‏ «لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا» و كل ثمن الدنيا في ذلك الاشتراء قليل، فهم يكتبون الكتاب بأيديهم كما يهوون ثم يقولون للبسطاء الأميين هذا من عند اللّه، بغية مكاسب دنيوية مالا و منالا فوبالا على أية حال.

إن ذلك هو أنحس دركات التحريف، حيث التحريفات المعنوية و الألفاظ باقية كماهيه، ليست إلا تخريفات للأميين الجامدين، فأما الذين يتحرون عن حق الوحي و الوحي الحق، فهم- بفضل اللّه و رحمته- سوف يهتدون الى الحق، متحللين عن تلكم التحريفات المعنوية، بترك هذه التقاليد العمياء.

«فَوَيْلٌ لَهُمْ» أولئك الكاتبين الكتاب بأيديهم‏ «مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ» و «وَيْلٌ لَهُمْ» أولاء أصلاء، و للمنافقين التابعين لهم وسطاء، و للأميين أتباعا «مِمَّا يَكْسِبُونَ» من هذه المختلقات الزور!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و إهلاك من يتعصبون عليه و ان كان لإصلاح امره مستحقا، و الرفق و البر و الإحسان على من تعصبوا له و ان كان للإذلال و الإهانة مستحقا، فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء فهم مثل اليهود الذين ذمهم اللّه بالتقليد لفسقة فقائهم.

فأما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفا على هواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه و ذلك لا يكون إلا في بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم، فإن من يركب من القبائح و الفواحش مراكب فسقة فقهاء العامة فلا تقبلوا منهم عنا شيئا و لا كرامة لهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 37

فقد

«عمدوا إلى التوراة فحرفوا صفة النبي (ص)- فيما حرّفوا- ليرفعوا الشك بذلك للمستضعفين من اليهود» «1».

و ترى ما هو موقف «بأيديهم» و لم يك يكتب الكتاب إلّا بأيديهم، ثم إذا كتب بإملاء أم آلات كاتبة أخرى، فهلّا يندد به إن كان تحريفا و تجديفا.

قد تعني «بأيديهم» كافة القوات و الآلات الكاتبة، لا- فقط- الأيدي الجارحة، فلكي يحلّق النهي على كافة المحاولات في تحريف الكتاب، فالأصلح الأصرح الأكفى هو «يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ» حتى تجتث كافة المحاولات بأية قدرة من القدرات لتحريف الكتاب، تلزيقا له بوحي الكتاب، و تعليقا على كتاب الوحي كأنه هو من الوحي.

ثم لمحة أخرى في «بأيديهم» أن كتب الكتاب لم يكن بأيد ربانية ككتاب الوحي، أم نقلا و استنساخا لكتاب الوحي، بل بأيدي أنفسهم، بنفسياتهم و هوساتهم، أيا كانت تلك الأيدي بقواتها، سواء في ذلك الكتابات الخطية إملائية و سواها، أم الكتابات الصوتية أو الصورية، أم كتابات عملية أنهم يعملون أعمالهم الشهوانية، متظاهرين أنها ربانية، ف «الكتاب» قد يشمل كتب التقرير و العمل و البيان أيا كان، كما الأيدي تشمل كافة القوات الكاتبة بآلاتها متصلة و منفصلة.

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ‏ 80.

أمنية فارغة خارقة لا تستقيم مع عدل اللّه، و لا مع ايّ من الأعراف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 93 في المجمع‏ و قيل كتابتهم بأيديهم انهم‏ عمدوا ... و هو المروي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 38

المستقيمة، و لا تتمشى مع التصور الصحيح في حقلي العمل و الجزاء، ان يحسبوا أنفسهم ناجين من العذاب العدل و الجزاء الوفاق مهما فعلوا و افتعلوا، لا لشي‏ء إلّا أنهم من بني إسرائيل!.

كما و إخوانهم المسيحيون قد يحسبون أنفسهم ناجين عن العذاب لا لشي‏ء إلّا أنهم يعتقدون في ثالوث الالوهية، و أن ربهم المسيح افتداهم- بصلبه و دخوله الجحيم- عن لعنة الناموس!.

أمنيات جاهلة متجاهلة ميزان العدل الرباني في عباده، يتمسك بها الذين يهوون الحرية الكاملة في الشهوات و الحيوانات في كل النزوات الطائشة، و هم رغم كل هذه لا تمسهم النار إلّا أياما معدودة أم و لا تمسهم أصلا، و لن ...

ف «لن» تحيل- في حسبانهم- أن تمسهم النار- و هم يستحقونها خالدين بما كتبوا و كسبوا- «إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً» في اي عدد و عدد، عدد الأيام التي عبدوا العجل، أم عدد الأيام التي اجترموا ما اجترموه، أم أي عدد في حسبانهم‏ «1».

«قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً» في هذه الأمنية الفارغة البعيدة؟ و طبعا كلّا! فان اتخذتم عند اللّه عهدا «فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ» فلن تمسكم النار إلّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 84- اخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: اجتمعت يهود يوما فخاصموا النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا: لن تمسنا النار الا أياما معدودات و سموا أربعين يوما، ثم يخلفنا فيها ناس و أشاروا إلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أصحابه فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و رد يده على رؤوسهم: كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لا نخلفكم فيها ان شاء اللّه تعالى أبدا، ففيهم أنزلت هذه الآية، و اخرج مثله في العدد ابن جرير عن زيد بن اسلم عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم).

و عن تفسير القمي في الآية قال‏ قال بنو إسرائيل: لن تمسنا النار و لن نعذب إلا الأيام المعدودات التي عبدنا فيها العجل فرد اللّه عليهم قل يا محمد لهم: أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 39

أياما معدودة «أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» و إنما تتهوسون و تأملون دون أي سناد إلّا اماني و إن أنتم إلّا تظنون.

هؤلاء الأنكاد الأغباش الأبقار اتخذوا عنصريتهم حذرا عن خلود النار، فهم- إذا- أحرار فيما يعملون بما يأملون: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ. أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ. أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى‏ كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» (3: 24).

و في‏ «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا ...» تلميحة أن النار لا تحرقهم و هم داخلوها أياما معدودة، و إنما تمسهم مسا دون دخول فيها و لا إحراق، و كأن ذلك تنازل منهم في استحقاق العذاب، و إلا فهم شعب اللّه المختار فلا يعذبهم اللّه مهما كفروا و عصوا و كذبوا بآيات اللّه! و الجواب كلمة واحدة:

بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏ 81.

«مَنْ كَسَبَ» أيا كانوا من الأمم، ملحدة أم مشركة أم كتابية، هودا أو نصارى أم مسلمين، «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» (4: 124):

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏ 82.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 40

فالخالدون هنا في طاعة اللّه، هم الخالدون هناك في رحمة اللّه، و الخالدون هنا في معصية اللّه، هم الخالدون هناك في نقمة اللّه‏ «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً».

و لا يعني الخلود في النار- رغم ما يزعم- لا نهائية المقام في النار، مهما عناها الخلود في الجنة لأنها حسب القرآن‏ «عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» و لكن النار هي جزاء وفاق، فعلى قدر الكفر و العصيان يكون الخلود في النار، و حتى الآبدين في النار يفنون يوما ما بفناء النار بعد ما ذاقوا و بال أمرهم قدره، و قد فصلنا البحث حول مدى الخلود في النار كرارا و تكرارا.

«كَسَبَ سَيِّئَةً» هو الكسب القاصد العامد المعاند، دون الجاهل القاصر، أو المضطر غير العامد، ثم‏ «وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» شرط ثان يكمّل أهلية الخلود في النار، و إحاطة الخطيئة التي هي من خلفيات السيئة التي استمرت و لم يتب عنها- حيث الخطيئة و هي الحالة الرديئة المخلّفة عن السيئة البائتة- إنها تعم الخطايا العقائدية و العملية حيث يصبح المسي‏ء خطيئة كله، فلا منفذ- إذا- إلى قلبه أو قالبه من نور، بل أصبح كله نارا، و الشي‏ء لا يحيط بالشي‏ء من جميع جهاته إلّا بعد أن يكون سابغا غير قالص، و زائدا غير ناقص! «فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

ثم يقابلهم‏ «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» فلا يرون نارا و لا تمسهم النار.

و من ثم بينهما عوان، لا أنه أحاطت به خطيئة، و لا أحاطت به طاعته، فهم- إذا- عوان بين الجنة و النار، و حين يبقى لهم- عند موتهم- إيمان و عمل الإيمان، فآخر مصيرهم الجنة.

أ ترى «سيئة» هنا تعني أية سيئة و إن كانت صغيرة؟ و الصغيرة تكفّر بترك الكبيرة: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 41

كَرِيماً» (4: 31) ثم و الكبيرة يعفى عنها بالتوبة، أم و أخيرا بالشفاعة، فأين- إذا- أحاطت به خطيئته، و اين خلود النار؟

الشوط القريب في هذه السفرة النكدة يعني من السيئة أمثال الشرك باللّه و التكذيب بآيات اللّه، و تحريف كتاب اللّه‏ «1»، فمن ثمّ‏ «أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» التي هي من خلفيات تلك السيآت العظيمة! و قد يعبر عن هذه الحيطة الخليفة ب «السيآت»: «وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (10: 27) خلودا بخلود و على قدره و أثره، حيث أغشيت كل وجوههم الظاهرة و الباطنة بظلمات السيآت: «فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (28: 84).

ثم أشواط أخرى في سيئات أخرى مهما كانت صغيرة، حيث الإصرار فيها دون توبة يجر أصحابها إلى سيئات كبرى حتى ينتهي المسي‏ء إلى تلكم السيآت الكبيرة التي تخلّف إحاطة الخطيئة، سدا لمنافذ النور و التوبة.

فعلى أية حال ليست كل سيئة بالتي تخلّد في النار، إنما هي التي تخلّف إحاطة الخطيئة، فيموت صاحبها محاطا بالخطيئة عقائديا و عمليا، فطبعا «أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

ثم و في‏ «كَسَبَ سَيِّئَةً» دون «عمل- أو- اقترف» أمّا شابه، تلميحة إلى حالة اقترافها، أنها اجتراح لها بالتذاذ و استساغة كأنها من مكاسب الحياة، فلو كانت كريهة في قياسه لما اجترحها متحمسا حريصا، ثم و ما تركها تحيط به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 93 في التوحيد بسند متصل عن ابن أبي عمير قال سمعت موسى بن جعفر (عليهما السلام) يقول: لا يخلد اللّه في النار الا اهل الكفر و الجحود و اهل الضلال و الشرك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 42

خطيئة، فكان يأتيها كارها أو مكرها أم غافلا ثم يتوب عنها، و يلوذ إلى كنف غيرها، فهو- إذا- يتخلص عن تبعتها، و هي إحاطة الخطيئة به، حيث لم تغلق عليه منافذ التوبة.

فذلك هو التعبير الصحيح الفصيح عن حالة المسي‏ء في هذه السيئة، كما «وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» تفسرها، لمحتان اثنتان تخرجان سائر السيآت- صغيرة و كبيرة- عن هذه السيئة، التي تخلف إحاطة الخطيئة «وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ»!

[سورة البقرة (2): الآيات 83 الى 93]

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ ذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى‏ تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى‏ أَشَدِّ الْعَذابِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (86) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى‏ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87)

وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ (88) وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ (89) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى‏ غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (90) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91) وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (92)

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 44

هنا عرض لعشرة كاملة من المواثيق أمرا و نهيا، التي نقضوها كلها و هم يعتبرونها من النواميس الأحكامية الأصيلة في الشرعة التوراتية، ثم عرض آخر لإرسال الرسل إليهم تترى، استكبارا أمام من لا تهواه أنفسهم تكذيبا لهم و قتلا، و تكذيبا- في النهاية- بالقرآن و هم عرفوه من قبل استفتاحا- بمستقبل نزوله- على المشركين، بحجة اختصاص إيمانهم بما نزل عليهم فقط و قد كفروا به و قتلوا أنبياءهم من قبل، كما اتخذوا العجل أمام موسى.

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ ذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ‏ 83.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 45

ميثاق في شرعة التوراة عليهم، مذكور فيها بصيغة «الناموس» و تذكر هنا بنود الميثاق تقديما للأهم فالأهم:

1 «لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» أمر بصيغة الإخبار، تأكيدا أكيدا على تطبيقه و كأنه واقع قبله، مما يوحي ألّا بديل عنه و لا عذر في تركه، فكما اللّه واقع لا مرد له، كذلك عبادة اللّه واقعة لا مرد لها، مزوّدة بحكم الفطرة و العقل و كلّ الأعراف المصدّقة بوجود اللّه.

2 «وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً» دون «تحسنون بالوالدين» تنازلا عن أكيد الأمر الى مرحلة ثانية، كما و الإحسان بالوالدين ليس فرضه إلّا بعد فرض عبادة اللّه، و ليس- فقط- أن تحرم الإساءة إليهما، بل الفرض هنا واجب الإحسان بهما في كافة الاتصالات و الانفصالات الحيوية، روحية و مادية.

3- 5 «وَ ذِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينِ» مرحلة ثالثة من الفرض على اختلاف مراتب هذه الثلاث، فالإحسان بهؤلاء يأتي في ظل الإحسان بالوالدين، لتأخره عنه، و دمجهم في «إحسانا» في الوالدين، و كما الإحسان بالوالدين كان مدمجا في ظل عبادة اللّه، و كل هذه من فروع عبادة اللّه.

ثم و «ذي القربى» في نفسها درجات‏ «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ» و كذلك اليتامى و المساكين، الأيتم منهم و الأسوء حالا و مسكنة.

فالأقرب الأيتم الأسكن، هو أوجب ممن سواه، و على هذا القياس دونما فوضى جزاف.

6 «وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً» مرحلة سادسة من واجب الحسن و الإحسان تجاه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 46

الخالق و الخلق، فانه «يعني الناس كلهم» «1» ف «قولوا» تفرض حسن العشرة العملية بالأولوية القطعية، و ليس «قولوا» هنا إلّا بيانا لأقل الواجب تجاه الناس، و «حسنا» دون «حسنا» تفرض خالص الإحسان و كأنه تجسّد للحسن، مبالغة بليغة في الحد المفروض من حسن العشرة قولية و عملية مع الناس، كضابطة ضابطة كلّ التخلفات الخلقية في عشرة الناس كل الناس‏ «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها»: «ادْعُ إِلى‏ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»- «وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

فالضابطة السارية الجارية كأصل أوّلي في عشرة الناس هي الحسن، بل و معاقبة الظالمين أيضا حسن بالناس، بل و حسن بالظالمين أيضا لكي يرتدعوا، أم ينتهوا شاءوا أم أبوا، و لكي يخفف عنهم يوم الحساب!.

«قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال فيكم» «2»

«و لا تقولوا إلّا خيرا حتى تعلموا ما هو» «3»

«اتقوا اللّه و لا تحملوا الناس على أكتافكم ...» «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 85- اخرج البيهقي في شعب الايمان عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الآية: ...

(2) نور الثقلين 1: 94 في اصول الكافي باسناده الى جابر بن زيد عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية ...

(3) فيه باسناده الى معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية ...

(4) في تفسير العياشي عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال سمعته يقول:

ان اللّه يقول في كتابه: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 47

أجل‏

«للناس كلهم مؤمنهم و مخالفهم، أما المؤمنون فيبسط لهم وجهه، و أما المخالفون فيكلمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان فان ييأس من ذلك يكف شرورهم عن نفسه و عن إخوانهم ...» «1»

«لا تدع النصيحة في كل حال» «2».

فالمؤمن حسن و محسن أيا كان و أيان، يصلح و لا يفسد في كل مجالات العشرة الحيوية، فكل قوله «حسن» و كل فعله «حسن» و كل نيته و عقيدته حسنة، فهو في نفسه جنة لا تبوء إلى نار حتى يلاقي ربه في دار القرار.

ثم حسن القول يعم الدعوة الحسنى، و الأمر و النهي بالحسنى، و سائر العشرة القولية بالحسنى، و لكي يخلق المؤمن حسن الحب بحسن القول للناس و حسن المعاملة و العشرة معهم.

7 و 8 «وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ ...» هنا إقام الصلاة عبارة أخرى عن‏ «لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ» بأفضل مصاديقها و قد تعني إقام الصلاة فيما عنت إقام الصلوة على محمد و آله، و هي من إتمام الصلاة «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 122 عن الأمام العسكري (عليه السلام) قال قال الصادق (عليه السلام) و قولوا للناس حسنا، قال: ... ثم قال: ان مداراة اعداء اللّه من أفضل صدقة المرء على نفسه و إخوانه، كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في منزله، إذن استأذن عليه عبد اللّه بن أبي سلول فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): بئس أخو العشيرة ائذنوا له، فلما دخل أجلسه و بشر في وجهه فلما خرج قالت عائشة يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): قلت فيه ما قلت و فعلت فيه من البشر ما فعلت؟ فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يا عويش يا حميراء ان شر الناس عند اللّه يوم القيامة من يكرم اتقاء شره.

(2)

نور الثقلين عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام): قال اللّه: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً.

(3) تفسير بيان السعادة 1: 111 قد فسر في الخبر اقامة الصلاة بإتمام ركوعها و سجودها و حفظ مواقيتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 48

كما و إيتاء الزكوة عبارة أخرى عن كل مراحل الإحسان روحيا و ماديا، حيث الزكوة تعم زكوة الأرواح الأحوال إلى زكوة الأبدان و الأموال‏

«و هي زكوة المال و الجاه و قوة البدن» «1».

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ‏ 83.

«توليتم» عن كل هذه الثمان أم بعضها «إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ» إذ أقبلوا إليها «و أنتم» المتولون «معرضون».

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ‏ 84.

9- 10 هنا تكملة للعشرة ناموسا أحكاميا للشريعة، حرمة الدماء و الأموال: «لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ» لأن سفك دم أخيك هو سفك لدمك نفسك، فإن نفسه نفسك و نفسك نفسه، فكما يحرم عليك سفك دمك،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و أداء حقوقها التي إذا لم تؤدّ لم يتقبلها رب الخلائق، و

(قال (عليه السلام) أ تدرون ما تلك الحقوق؟ هو اتباعها بالصلاة على محمد و علي و آلهما صلوات اللّه عليهم منطويا على الاعتقاد بأنهم أفضل خيرة اللّه و القوّام بحقوق اللّه و النصّار لدين اللّه تعالى.

قال (عليه السلام): و أقيموا الصلاة على محمد و آله عند احوال غضبكم و رضاكم و شدتكم و رخاكم و همومكم المعلقة بقلوبكم‏

(1).

تفسير البرهان 1: 122 عن تفسير الامام العسكري (عليه السلام) قال: و آتوا الزكاة من المال و الجاه و قوة البدن، فمن الحال مواسات إخوانك المؤمنين، و من الجاه إيصالهم الى ما يتقاعسون عنه لضعفهم عن حوائجهم المترددة في صدورهم، و بالقوة معونة أخ لك قد سقط حماره او حمله في صحراء او طريق و هو يستغيث و لا يغاث من يعينه حتى يحمل عليه متاعه و تركبه و تنهضه حتى يلحق القافلة و أنت في ذلك كله معتقد لموالات محمد و آله الطيبين و ان اللّه يزكي أعمالك و يضاعفها بموالاتك لهم و برائتك من أعدائهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 49

كذلك نفس محرمة أخرى غير مهدورة الدم، لا يحل سفكه، و كذلك إخراج أنفسكم من دياركم بنفس النمط، فان حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

ثم في واجهة أخرى إن قتل نفس الغير و إخراجها من ديارها يخلف نفس القتل و الإخراج لأنفسكم قصاصا و جزاء، ف «لا تقتلون و لا تخرجون» لها أبعاد ثلاثة كلها منهية مهما اختلفت.

تلك عشرة كاملة تولوا عنها و هم معرضون:

ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى‏ تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى‏ أَشَدِّ الْعَذابِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ‏ 85.

«أنتم» لحاضر الخطاب و «هؤلاء» لغائبه، فكيف يجتمعان و الحضور في الخطاب هنا هم الغيب؟

قد يعني «أنتم» شعب إسرائيل المتمثل في الحاضرين زمن الخطاب، و هؤلاء هم السابقون منهم القاتلون أنفسهم و المخرجون، دمجا للحضور في الغيب لأنهم نفس النمط، و لهم نفس الخلق مأخوذين بنفس المأخذ، لأنهم سلسلة موصولة فيما كانوا يفتعلون، و لا أقل أنهم كانوا بما فعلوا راضين، و الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم.

أم إن «هؤلاء» هنا كمنادى تكرار منبّها لهؤلاء الحماقي أم كإشارة إليهم تأكيدا لصدور الجريمة منهم.

و الآية تتحدث عن واقع قريب العهد، قبيل غلبة الإسلام على قبيلي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 50

الأوس و الخزرج، فقد كانوا كلهم مشركين، و يهود المدينة هم- وقتئذ- أحياء ثلاثة، مرتبطة بعهود، كلّ مع كلّ من حيي الشرك، فبنوا قينقاع و بنو النضير هما حلفاء الخزرج، و بنو قريظة هم حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق من اليهود مع حلفاءه المشركين ضد آخرين و معهم يهود آخرون، فيقتل اليهودي مثله كما يقتل المشرك دونما تمييز تمسكا بالأحلاف، و تناسيا لحلف اللّه و ميثاقه الذي واثقهم به.

كما و كانوا يخرجون فريقا منهم من ديارهم إذا غلب فريقهم، نهبا لأموالهم و سبيا لفريق منهم حلفاء مع عدوهم‏ «تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ» كما تتظاهرون على خلطاءهم المشركين، و هذا خلاف نص الميثاق في ناموس التوراة.

و من ثم‏ «وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى‏ تُفادُوهُمْ» دافعين الفدية عنهم حتى تستلموهم و تحرروهم، وفقا لنص آخر من التوراة «وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ» فكيف الجمع بين قتالهم و قتلهم و إخراجهم و أسرهم، و بين مفاداتهم‏ «أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ» فتفادونهم‏ «وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» فتقاتلونهم و تخرجونهم من ديارهم و تأسرونهم؟.

و «هو» هنا إمّا ضمير شأن، أو مبتدء مبهم مفسّر ب «محرمّ» و الجملة الخبرية خبرها.

«فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ» النقض لشرعة الميثاق التوراتي‏ «مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» أن تقاتلوهم إخوانكم لصالح أعداءكم المشركين‏ «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى‏ أَشَدِّ الْعَذابِ» لأن ذلك من أشد العصيان لشرعة اللّه‏ «وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» خلاف ما أنتم تزعمون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 51

و لكي يلفت أنظار المسلمين إلى أهمية ذلك المحظور، دون اختصاص باليهود، يخاطبهم:

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ‏ 86.

إعلان صارخ في هذه الإذاعة القرآنية يحذر المسلمين عن مثل ما افتعله اليهود، كيلا يحارب بعضهم بعضا لصالح الكافرين.

خطة تقليدية لعينة إسرائيلية في إمساك عصيهم من أوساطها، انضماما إلى المعسكرات المتطاحنة كلها حيطة على مصالحهم المادية و مغانمهم على أية حال، نقضا لميثاق اللّه الذي واثقهم به، و تحكيما لميثاقهم مع أعداء اللّه، مصلحة وقائية وقتية، تجعل شرعتهم على هامشها، أم رفضا لها عجالة حتى يربحوا المسرح، اشتراء للحياة الدنيا بالآخرة!.

و ترى الآخرة كانت مملوكة لهم حتى يشتروا بها الدنيا فهم مالكوها؟ و ذلك بيع ما لا يملك!.

لكلّ من المكلفين نصيب مقدّر من نعيم الآخرة إن عمل لها، فالذي لا يعمل لها كأنه باعها حيث بطل على نفسه استبدالا بها نعيم الدنيا، و «الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ».

«فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ» في تجارتهم الخاسرة من خسارهم‏ «وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» إذ لا ناصر يومئذ إلّا اللّه و ليس بمخفف العذاب.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى‏ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ‏ 87.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 52

آية التقفية هذه نراها يستدل بها عند المبشرين المسيحيين على أن المسيح خاتم النبيين، يقول قائل منهم: في القرآن كله، في النصوص كلها التي يرد فيها ذكر المسيح، ظاهرتان: الأولى: يقفي القرآن على كل الرسل بالمسيح، و لا يقفي على المسيح بأحد (2: 87) يعني هذه، و (5: 46) (57: 27).

الثانية: المسيح نفسه في ما ذكر القرآن عنه لا يبشر بأحد من بعده على الإطلاق إلّا في بعض تلك الآية اليتيمة: «وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» و هذا يجعل تعارضا ما بين الموقف المتواتر و الموقف الشاذ اليتيم فيه، و العقيدة في كتاب منزل تؤخذ من المحكم فيه لا من المتشابه‏ «1».

يستدل بآيات التقفية- الثلاث- على أن المسيح هو خاتم النبيين، فالثانية «وَ قَفَّيْنا عَلى‏ آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ» (46).

و الثالثة: «ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى‏ آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ ...» (27).

و لكن آية البقرة تؤتي موسى الكتاب ثم تقفّي من بعده بالرسل، فلو كان المعني منهم كل الرسل لخرج المسيح (ع) ايضا عن جماعة الرسل، فهم- إذا- معظم الرسل الإسرائيليين، و قد قفى من بعدهم بالمسيح و هو خاتم الرسل الإسرائليين، و ليست هذه التقفية الإسرائيلية إلّا توطئة لبيان انتقال الرسالة إلى رسول غير إسرائيلي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ذكره الحداد البيروتي في كتابه مدخل الى الحوار الاسلامي المسيحي ص 364 ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 53

«... وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ» (90)! فقد تلعن- بين الملعونين- القائلين أن المسيح هو خاتم المرسلين على الإطلاق، ناكرين رسالة القرآن العظيم! كما و أن آية المائدة أيضا لا تقفّي بالمسيح إلّا على الرسل الإسرائيليين:

«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ... وَ قَفَّيْنا عَلى‏ آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ...» مما يبرهن ان المسيح (ع) هو آخر الرسل الإسرائيليين التابعين لشرعة التوراة، ثم‏ «لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ‏ ... وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (48)! و كذلك آية الحديد، فإنها لا تقفي بالمسيح إلّا الرسل الذين ذكروا قبله، لا كل الرسل، «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ‏ ... ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى‏ آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ...» ثم يقفي بهذا الرسول خاتما لكل الرسالات: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ ...» «1».

فتراهم- هؤلاء البعيدين عن علم الكتاب- كيف يستندون بآيات الرسالة الختمية المحمدية على نكران رسالته عن بكرتها، و لا يفصحون إلّا أنفسهم لو كانوا يشعرون! (38).

ثم التقفية بالرسول أم برسول تعني تأييد كل لا حق من الرسل سابقه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية 162- 177.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 54

و بيان ما حرّف بأيدي الدس و التحريف، فليست لتعني الختم في الرسالة على أية حال، فالرسالات الإلهية هي سلسلة موصولة طول التاريخ الرسالي، «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ»! لقد أتاهم رسلهم تترى تلو بعض و لصق بعض، كلّهم رسل التوراة، داعين إليه، و آخرهم عيسى بن مريم المزوّد بالبينات، المؤيد بروح القدس، و لكنهم كفروا و كذبوا: «أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى‏ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ» على هؤلاء الرسل‏ «فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ».

هذه صنيعتهم برسلهم في ماضيهم النّحس النّجس، فما ذا يرجى من حاضرهم أمام نبيّ إسماعيلي؟!.

و إذا كانت رسالات إسرائيلية لا تمشي على أهواءهم فهم بها يكفرون رغم توافق العنصرية، فما ذا يرجى منهم أمام رسالة غير إسرائيلية لا توافق هذه العنصرية.

«وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» علّه روح القدس الرسالي ككل و هو مثلث الوحي و العصمة الرسالية و ملك الوحي، و هذه الثلاث لا يصيبها ما يصيب سائر الأرواح الإنسانية «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 98 في أصول الكافي باسناده الى المنخل عن جابر عن أبي جعفر عليهما السلام قال: سألته عن علم العالم؟ فقال لي: يا جابر إن في الأنبياء و الأوصياء خمسة أرواح: روح القدس و روح الايمان و روح الحياة و روح القوة و روح الشهوة، فبروح القدس يا جابر عرفوا، تحت العرش الى ما تحت الثرى، ثم قال يا جابر! إن هذه الأربعة الأرواح يصيبها الحدثان الا روح القدس فإنها لا تلهو و لا تلعب.

و

بإسناده إلى محمد بن سنان عن المفضل بن عمر عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سألته عن عم الامام بما في أقطار الأرض، و هو في بيته مرضى عليه ستره؟ فقال: يا مفضل إن اللّه تبارك و تعالى جعل في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 55

وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ‏ 88.

«غلف» هي جميع أغلف أو غلاف، و هو الذي في غلاف مبالغة، أو كالمتعود من غلاف السيف، فهل يعنون بغلف قلوبهم أنها «فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ» لا تنفذ إليها دعوة جديدة غير إسرائيلية: «وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ» (41: 5).

فهي- إذا- غلف بطبيعة الحال عما تدعونا إليه، فما هو ذنبنا و قد خلقنا غلف القلوب، و الجواب كلمة واحدة: «بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ»- «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»- «وَ جَعَلْنا عَلى‏ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً» (6: 25).

فليست هي غلفا بما خلق اللّه، بل‏ «فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً» (5: 13).

أم يعنون أنها غنية عن أية شرعة غير إسرائيلية، فهي مغلفة عن غيرها، غنية بها، مليئة منها، و من ثم‏

«أنها أوعية للخير و العلوم قد أحاطت بها و اشتملت عليها، ثم هي معذلك لا تعرف لك يا محمد فضلا مذكورا في شي‏ء من كتب اللّه و لا على لسان أحد من أنبياء اللّه» «1».

قد يعنون ذلك الثالوث من غلف القلوب، وردا عليهم فيها كلمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

النبي خمسة أرواح روح الحيوة فبه رب و درج، و روح القوة في نهض و جاهه، و روح الشهوة فبه أكل و شرب و أتى النساء من الحلال، و روح الايمان فبه آمن و عدل، و روح القدس فبه حمل النبوة، فإذا قبض النبي انتقل روح القدس فصار إلى الامام، و روح القدس لا ينام و لا يغفل و لا يلهو و لا يزهو و لا يلعب، و الأربعة الأرواح تنام و تغفل و تلهو و تزهو و روح القدس كان يرى به.

(1). تفسير الامام الحسن العسكري قال (عليه السلام) في تفسير الآية ... و مثله في الدر المنثور عن ابن عباس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 56

واحدة: «بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ» قلوب لعينة مقلوبة عن الخير بكفرهم، امتناعا لقبول الحق بالاختيار!.

و لأن اللّه لعنهم بكفرهم‏ «فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ» قليلا منهم، و قليلا من الإيمان، و القلتان معنيتان، فإنهما من خلفيات لعنهم بكفرهم، فقليلا منهم يتخلصون عن كفرهم، و قليلا يؤمنون حين يتخلصون.

و

يروى عن النبي (ص) «القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، و قلب أغفل مربوط على غلافه، و قلب منكوس، و قلب مفصح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه و أما القلب الأغلف فقلب الكافر و أما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، و أما القلب المفصح فقلب فيه ايمان و نفاق، و مثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب و مثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح و الدم فاي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه‏ «1».

لقد قالوا قولتهم الهارفة الخارقة هذه تئييسا لمحمد (ص) و تعليلا لعدم إجابتهم له:

وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 87- اخرج احمد بسند جيد عن أبي سعيد قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ... و فيه- اخرج ابن أبي شيبة في كتاب الايمان و البيهقي في شعب الايمان عن علي رضي اللّه عنه قال: ان الايمان يبدو لحظة بيضاء في القلب فكلما ازداد الايمان عظما ازداد ذلك البياض فإذا استكمل الايمان ابيض القلب كله، و ان النفاق لحظة سوداء في القلب فكلما ازداد النفاق عظما ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله و ايم اللّه لو شققتم على قلب مؤمن لوجدتموه ابيض و لو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه اسود».

أقول: يعني منه قلب الروح و «لو» المحيلة لذلك الشق يؤيده و لا استحالة في شق قلب الجسم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 57

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ‏ 89.

هنا «مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ» لا تصدق كلّ ما معهم، فإنه دخيل من كل تحريف و تجديف، إذا فهو الذي كانوا يستفتحون به على الذين كفروا من بشارات هذه الرسالة السامية القرآنية «1».

ثم و في وجه آخر لما معهم، هو وحي التوراة خالصا عما يشوبه، حيث القرآن يصدق كل كتابات الوحي، و يزيف كل دخيل فيها لأنه مهيمن عليها:

«وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ. وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ ...» (5: 48).

و الاستفتاح هنا هو طلب الفتح على المشركين، كقولهم فيما

يروى‏ «اللّهم إنا نستنصرك بحق النبي الأمي إلا نصرتنا عليهم» «2»

أو و طلب الفتح منهم أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 126 قال الامام العسكري (عليه السلام) ذم اللّه اليهود فقال: «وَ لَمَّا جاءَهُمْ» يعني هؤلاء اليهود الذين تقدم ذكرهم و إخوانهم من اليهود جائهم‏ «كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» القرآن «مصدق» ذلك الكتاب‏ «لِما مَعَهُمْ» من التوراة التي يبين فيها ان محمدا الامي من ولد إسماعيل ...

(2) الدر المنثور 1: 88- اخرج ابو نعيم في الدلائل من طريق عطاء و الضحاك عن ابن عباس قال:

كانت يهود بني قريظة و النضير من قبل ان يبعث محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يستفتحون اللّه يدعون على الذين كفروا و يقولون: اللهم ... فلما جاءهم ما عرفوا- يريد محمدا و لم يشكوا فيه- كفروا به. و من طريق أصحابنا في نور الثقلين أخرجه بأسانيد و أخصرها متنا ما

رواه القمي عن إسحاق بن عمار قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: كان قوم فيما بين محمد و عيسى صلوات اللّه عليهما، و كانوا يتوعدون اهل الأصنام بالنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و يقولون ليخرجن نبي فليكسرنّ أصنامكم و ليفعلن بكم و ليفعلن، فلما خرج رسول اللّه (صلى اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 58

يخبروهم هل ولد من وصفته التوراة؟ و لكنه لا يصلح إلّا ضمن المعني من الاستفتاح عليهم لأنه طلب الفتح منهم لا عليهم!.

لقد كانوا يستفتحون ببشارة القرآن في توراتهم، على المشركين، كمصلحة وقتية «فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا» من ذلك الفتح الرسالي‏ «كَفَرُوا بِهِ» مصلحية الحفاظ على الشرعة العنصرية «فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ».

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى‏ غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ‏ 90.

فالإنسان- أيا كان- يعادل نفسه بثمن ما قليلا أو كثيرا، و أما أن يعادلها بالكفر بآيات اللّه، فتلك هي أبخس الصفقات و أنحسها، و ذلك واقع إسرائيلي أن اشتروا أنفسهم بالكفر، بغيا و حسدا من عند أنفسهم أن ينزل اللّه من فضله على من يشاء من عباده، كفرا بما عرفوه في استفتاحهم، و بما حسدوا صاحب هذه الرسالة الأخيرة «فَباؤُ» رجوعا عن ذلك المتجر الخاسر الحاسر «بِغَضَبٍ عَلى‏ غَضَبٍ» لبعدي الكفر بالتوراة و بالقرآن‏ «وَ لِلْكافِرِينَ» المغضوب عليهم‏ «عَذابٌ مُهِينٌ» كما أهانوا رسالة اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليه و آله و سلم) كفروا به. و فيه عن روضة الكافي عنه (عليه السلام) يقول فيه بعد تفصيل للقصة و كانت اليهود تقول لهم- المشركين القاطنين بالمدينة- اما لو قد بعث محمد لنخرجنكم من ديارنا و أموالنا، فلما بعث اللّه محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) آمنت به الأنصار- و هم وقتئذ من المشركين- و كفرت به اليهود و هو قول اللّه عز و جل‏ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ...

و

في تفسير الامام العسكري (عليه السلام) ... و كان اللّه عز و جل امر اليهود في ايام موسى و بعده إذا دهمهم أمر او دهتهم داهية ان يدعو اللّه عز و جل بمحمد و آله الطيبين و ان يستنصروا بهم و كانوا يفعلون ذلك، حتى كانت اليهود من اهل المدينة قبل ظهور محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بسنين كثيرة يفعلون ذلك فيكفون البلاء و الدهماء و الداهية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 59

و إليكم إشارات من بشارات الفتح التي كانوا بها يستفتحون، ففي كتاب حبقوق النبي (3: 3- 6) في الأصل العبراني:

«إلوه متيماه يا بوء و قادوش مهر پاران سلاه كيثاه شاميم هودو و يتهلاتو ماليآه ها ارص 3 و نغه كاأور تهيه قرنيم ميادو لو شام حبيون عوزه 4 لفاناي يلخ دابر و يسي‏ء رشف لرجلايو 5 عامد و يمودد أرص رآه و يتر غويم ويت تصصو هر ري عد شحو جبعوت عولام هليخوت عولام لو 6».

«الله من تيمان يأتي و القدوس من جبل پاران: حرى- فأراني (يأتي) مع الأبد. غطى جلاله السماوات و امتلأت الأرض من تسبيحه 3 شعاعه كالشمس و شع من يمينه النور و هناك استتار قوته 4 قدام وجهه يسير الوباء، و أمام قدميه تبرز حمى ملهبة 5 وقف و مسح الأرض، نظر و أذاب الأمم، و تبددت الجبال القديمة و خسفت و انحنت إكام و أتلال القدم، مسالك الأزال له 6».

و في الأصل العبراني (تث 33: 1- 2) من التوراة:

«و زئت هبراخاه أشر برخ موشه إيش ها إلوهيم ات بني يسرائيل لفني موتوا 1 و يومر يهواه مسيني باو زارح مسعير لامو هو فيع مهر فاران و آتاه مر ببت قدش مى مينو اش دات لامو 2».

«و هذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته 1 و قال:

الله من سيناء جاء، تجلى من ساعير، تلعلع من فاران، و ورد مع آلاف المقدسين، من يمينه ظهرت الشريعة النارية 2».

هنا يبشر اللّه بلسان موسى (ع) بتجليات ربانية ثلاث، فموسى «من سيناء» و المسيح «من ساعير» و محمد (ص) «من فاران» تعبيرا عن الكل بالماضي تثبيتا لتحقق وقوعها، تزويدا لمحمد المتجلي من فاران أنه ورد مع آلاف المقدسين،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 60

من يمينه ظهرت الشريعة النار و هي شريعة الجهاد.

و في سالفة لها تختصر البشارة بآيتين «من تيمان» و هو مبعث المسيح فانه ساعير جنوبي القدس، و من فاران و هو مبعث محمد (ص) ثم تصفه بشرعته ما تصف، بهيمنة و شوكة و أبدية ... «1».

هكذا كانوا يستفتحون به على الذين كفروا و هم يعرفونه‏ «فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ. بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى‏ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى‏ غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ».

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏ 91.

«نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا» جوابا عن‏ «آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ» قسمة ضيزى في الإيمان بما أنزل اللّه، قضية العنصرية الحمقاء فيهم، «يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ» أيا كان النازل و على أيّ كان، ما لم يكن نازلا على إسرائيل! «و هو» «ما أنزل الله» الخالص الناصع دون خليط و لا تبدّل حتى آخر زمن التكليف، فمهما كان النازل عليهم حقا في أصله فهو حقّ و ليس «هو الحق» كلّه، و هذا «هو الحق» كلّه هنا لكونه‏ «مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ» فيما كانوا به يستفتحون.

و حتى لو أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم‏ «فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ» و هم منكم‏ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» بخصوص الوحي النازل على الرسل الإسرائيليين؟!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية 44- 53.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 61

و هنا «فَلِمَ تَقْتُلُونَ» خطاب الحال للحضور في تلك الحال بصيغة الحال و الاستقبال، مما يحمل عليهم قتل الأنبياء حالا و استقبالا، و «من قبل» توجها الى الماضي، هما مما يؤكدان طبيعة القتل فيهم حاضرهم و غابرهم، سلسلة موصولة طول التاريخ الإسرائيلي، فلو كان زمن خطابهم نبيّ أو أنبياء لقتلوهم، كما قتل أسلافهم، و لقد قتلوا- في حسبانهم- الرسالة المحمدية بنكران بشاراته و تكذيبه!.

وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ‏ 92.

و هل إن اتخاذكم العجل من بعده: بعد أن جاءكم بالبينات، و بعد ما غاب عنكم فترة قصيرة إلى الطور «1»، هل إن ذلك ايضا مما أنزل إليكم فهو من وحي الايمان و الايمان بالوحي!.

لقد كفرتم بما أنزل إليكم في وحي التوراة، ثم ما أنزل في وحي الإنجيل و هما الركنان الركينان من الوحي الإسرائيلي، ثم أنتم تكفرون بوحي القرآن و قد كنتم تستفتحون به على المشركين، فما دائكم و ما دوائكم! «وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ» موسى و شرعته، فظالمون الحقّ النازل من عند اللّه، و ظالمون أنفسكم!.

ذلك و إلى مرات و مرات من التمردات و التنمردات عن شرعة الحق النازلة عليكم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 130 قال الامام العسكري (عليه السلام) قال اللّه عز و جل لليهود الذين تقدم ذكرهم‏ وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ‏ الدالات على نبوته و على ما وصف من فضل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و شرفه على الخلائق ... ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ‏ إلها مِنْ بَعْدِهِ‏ بعد انطلاقه الى الجبل و خالفتم خليفته الذي نص عليه و تركه عليكم و هو هارون‏ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ‏ كافرون بما فعلتم من ذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 62

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏ 93.

«... بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (63) ثم توليتم من بعد ذلك ... (64) «وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وَ قُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً ...» (4: 154).

قصة واحدة تأتي في مجالات عدة بمختلف الألفاظ الجانبية و الأصل واحد، و هنا الجواب الفصل عن‏ «خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ»- و اسمعوا:

«قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا» و العصيان بعد حجة السمع هو أجرء عصيان.

ثم‏ «وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ» و كيف يشرب العجل في القلوب؟ و لا يشرب العجل بل يوكل! و ليس الشارب هو القلوب!.

إنها مبالغة بليغة في حب العجل، فكأنها تشربت حبّه فمازجها ممازجة المشروب، و خالطها مخالطة الشي‏ء الملذوذ، و لأن القلوب هي أعماق الكيان الإنساني، فإشرابهم حب العجل في قلوبهم كناية عن أن حبه تعرق و تعمق في كل كيانهم.

و ما ألطفها

رواية- إن صحت- أن «عمد موسى فبرد العجل- قطعا بالمبرد- من أنفه إلى طرف ذنبه ثم أحرقه بالنار فزرّه في اليمّ، و كان أحدهم يقع في الماء و ما به إليه من حاجة، فيتعرض لذلك الرماد فيشربه ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 102 عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية: ... و هو قول اللّه: وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 63

فقد أشربوا العجل في قلوب أرواحهم و قلوب أجسادهم لكثرة حبهم له، فكما أن شرب الماء كسب لاستمرارية الحياة، كذلك هؤلاء الأباقرة ركزوا حياتهم على حب المادة و عبادتها، المتمثلة في حب العجل و عبادته، و ما أمرهم أن يذبحوا بقرة- و لا سيما تلك الثمينة الغالية- إلّا أمرا بذبح ما كانوا يحبون و يعبدون، و كما أمروا بقتل أنفسهم بعد هذه العبادة القاحلة.

و تراهم من أشربهم في قلوبهم العجل؟ إنه طبيعتهم المنجذبة الى المحسوسات، ثم هو السامري الذي استغل فيهم هذه الجاذبية، ثم اللّه لم يردعهم تكوينا و تسييرا حيث الدار دار الإختيار.

و قد يعني‏ «وَ أُشْرِبُوا ...»- فيما تعني- أنهم أمروا أن يشربوا من ماءه ليتبين العابد له عن سواه‏ «1» و لكنه لا يصلح إلّا ضمن المعني مما تعني، و قد تعني ثالوث الشرب، في قلوب أرواحهم، ثم الأجساد، من عند أنفسهم أم بما أمروا، و النص يصلح لها كلها بكفرهم.

«قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ» أن تكفروا بما أنزل اللّه، و بهذه الرسالة الاخيرة «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» فهو ايمان بئيس نحيس و ليس ايمانا باللّه! و ترى الايمان يأمر أو ينهى حتى يصح هنا «بئسما»؟ الأمر هو الدافع كما النهي هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 130 قال الامام العسكري (عليه السلام) ... في الآية: عرضوا بشرب العجل الذي عبدوه حتى وصل، ما شربوه ذلك الى قلوبهم، و قال: ان بني إسرائيل لما رجع إليهم موسى و قد عبدوا العجل تلقوه بالرجوع عن ذلك فقال لهم موسى من الذي عبده منكم حتى انفذ فيه حكم اللّه خافوا من حكم اللّه الذي ينفذه فيهم فجحدوا ان يكونوا عبدوه و جعل كل واحد منهم يقول: انا لم اعبده و انما عبده غيري و وشى بعضهم ببعض فذلك ما حكى اللّه عن موسى من قوله للسامري‏ وَ انْظُرْ إِلى‏ إِلهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً فأمره اللّه فبرده بالمبارد و أخذ سجالته فذرها في البحر العذب ثم قال لهم: «اشربوا منه فشربوا فكل من كان عبده اسود شفتاه و انفه فمن كان لم يعبده ابيض شفتاه و انفه فعند ذلك انفذ فيه حكم الله».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 64

المانع، و هما أصل الأمر و النهي قوليا أم واقعيا، فلا امر و لا نهي تكوينيا او تشريعيا إلّا بدافع أو مانع، أم هما بدافع كتعبير أصح و أعمق.

[سورة البقرة (2): الآيات 94 الى 103]

قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (94) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى‏ حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (96) قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى‏ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ (97) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (98)

وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلاَّ الْفاسِقُونَ (99) أَ وَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (100) وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (101) وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى‏ مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (102) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (103)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 65

قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏ 94.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 66

فلأن اليهود زعموا أنفسهم شعب اللّه المختار و أبناءه: «وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى‏» (2: 111) دعوى خاوية خالية عن أي برهان، لذلك يختصون بأنفسهم الدار الآخرة، و لكن البراهين تترى على بطلانها و منها «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في دعواكم، نقلة من هذه الحياة الظالمة المظلمة، الضيقة الكدرة، إلى دار لقاء اللّه: «قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» (62: 6).

أ ترى أن تمني الموت هو من قضايا الايمان الخالص و الدار الخالصة للموت من عند اللّه؟ و الحياة الدنيا هي حياة الاستعداد للأخرى، و هي مزرعة الآخرة! و التعرض للموت محرّم في شرعة اللّه! و الفرار من بواعث الموت واجب في شرعة اللّه، فكيف يصبح- إذا- تمني الموت من قضايا صدق القول إن لنا الدار الآخرة خالصة عند اللّه.

تمني الموت ليس هو و لا منه التعرض للموت، فلا يتمنى ما بالإمكان تحصيله او التعرض له، و إنما هو الترجي الصالح لأصلح الصالحين الذين هم من خلصاء اللّه و السابقين الى رضوانه، و كما

يروى عن علي (ع) «و اللّه لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي امه» و سعن الصديقة الطاهرة عليها السلام: «اللّهم عجل وفاتي سريعا» «1»

و لأنهم موقنون بالسعادة الآتية، راغبون في لقاء اللّه!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 102 في الخصال عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) سمعت أبي يحدث عن أبيه (عليهما السلام) ان رجلا قام الى امير المؤمنين (عليه السلام) فقال يا امير المؤمنين بما عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم- الى ان قال-: فيما ذا أحببت لقاءه؟ قال: لما رأيته قد اختار لي دين ملائكته و رسله و أنبيائه علمت بان الذي اكرمني بهذا ليس ينساني فأجبت لقاءه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 67

ام و للذين يوقنون بتلك السعادة العظمى أطاعوا اللّه ام عصوا، فما ذا تفيدهم- إذا- بقية الحياة الدنيا إلّا بعدا عنها و عن لقاء اللّه‏ «فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ»! ثم من سواهم لا يجوز لهم تمني الموت كما لا يجوز لهم التعرض للموت، فان الموت لهم انقطاع عن حياة التحصيل و رجاء التلافي لما قصّروا، او المزيد فيما قصروا عنه‏

«و لأنا لا نأمن من وقوع التقصير فيما أمرنا به و نرجو في البقاء التلافي» «1».

و قد يجوز تمني الموت لمن لا يرجو في البقاء التلافي، بل و مزيد العصيان، أم هو موقن بذلك، و اليهود- فيما يدعون- هم القسم الثاني من الأربعة فليتمنوا الموت إن كانوا صادقين، فإن النقلة من ضيق الحياة و ضنك المعيشة الى سعتها الخاصة الخالصة دون اي شرط إلّا أنك إسرائيلي، إن تمني تلك النقلة هي طبيعة الحال لأصحابها، بل و ذلك أدناها، حيث الطمأنة المطلقة تقتضي التعرض للموت، بل و الانتحار.

إنهم يعبرون عن أنفسهم بما عبروا، و عن المؤمنين بالناس، تعبيرا ساقطا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) قال‏ أتى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) رجل فقال له: ما لي لا أحب الموت؟ فقال له: أ لك مال؟ قال: نعم، قال: فقدمته؟ قال: لا، قال: فمن ثم لا تحب الموت.

(1).

في مجمع البيان قال امير المؤمنين (عليه السلام)- و هو يطوف بين الصفّين بصفّين في غلالة- شعار يلبس تحت الثوب الدرع- لما قال له الحسن ابنه (عليه السلام) ما هذا زيّ الحرب؟ فقال:

يا بني إن أباك لا يبالي وقع على الموت ام وقع الموت عليه، و اما ما روي عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) انه قال: لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، و لكن ليقل: اللهم احيني ما دامت الحياة خيرا لي، و توفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، فانما نهي تمني الموت لأنه يدل على الجزع، و المأمور به الصبر و تفويض الأمور اليه، و لان لا نأمن ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 68

مسقطا لهم عن أية رحمة ربانية تشملهم، و الدار الآخرة خالصة لهم أنفسهم لا يشاركهم فيها هؤلاء الناس!.

فهنالك دعوا إلى تلك المباهلة، كبرهان واقع على كذبهم بعد كل البراهين التي رفضوها:

و

لقد أمر الرسول أن يقولها لهم فقال «إن كنتم في مقالتكم صادقين قولوا: اللهم أمتنا، فو الذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلّا غص بريقه فمات مكانه فأبوا أن يفعلوا و كرهوا ما قال لهم فنزل‏ «1»:

وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ‏ 95.

و كيف يتمنونه و هم يخشون أن يستجيب اللّه لهم فيأخذهم من فورهم، فهم قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه انقطاعا عن شهواتهم، و خسروا الآخرة بالعمل السي‏ء الذي قدموه!.

قد يتمنى المشرك او الملحد الموت لأسباب طارئة، و لأنه لا يخاف بعد الموت، و لكنهم‏ «لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» لأنه نهاية شهواتهم و بداية بلياتهم بما قدموا «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» أنهم لن يتمنوه، بل هم أحرص الناس على حياة:

وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى‏ حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ‏ 96.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 89- اخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس في هذه الآية: قل لهم يا محمد ان كانت لكم الدار الآخرة يعني الجنة كما زعمتم‏ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ‏ يعني المؤمنين فتمنوا الموت ان كنتم صادقين انها لكم خالصة من دون المؤمنين فقال لهم رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 69

هنا «حياة» منكّرة دون «الحياة» المعرّفة، لمحة إلى أن حرصهم لا يخص الحياة الراقية المريحة المربحة، بل هي مطلق الحياة، ما تتسمى حياة، مهما كانت أرذلها، لأنها على أية حال أفضل من الحياة الأخرى بما قدمت لهم أنفسهم.

ف «الناس» في‏ «أَحْرَصَ النَّاسِ» هم كل الناس دونما استثناء، و حتى الذين أشركوا، و كما يبيّنه: «وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» أي: و أحرص من الذين أشركوا، لأنهم يخافون عما بعد الموت ما لا يخافه المشركون.

إجل إنها «حياة» أيّة حياة، ملمّحا لها بذلك التنكير النكير الحقير، حياة ديدان او حشرات، و إنما «حياة» ثم لا شي‏ء آخر، الحياة الرزيلة التي لا يقبلها اي ذي حياة، لا و حتى الذين أشركوا!.

فهم- رغم أنهم عارفون القدر المتعوّد من الحياة- يجتازونها إلى أعلى ما بالإمكان في تقديرهم: «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» كسبا أكثر و أوسع من ملذات الحياة الدنيا، ابتعادا أوفر عن عذاب الأخرى، و لكنه‏ «وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ» و كل آت قريب، فحتى لو عمّر أحدهم الدنيا فليعذب اكثر و اكثر مما لو انه لم يعمّر، لأنه يزيد في تعميره الأكثر استحقاقا للعذاب أكثر، فتعميره الكثير- إذا- يبوء الى العذاب الكثير! «وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ».

و اختصاص المشركين هنا من بين الناس لأنهم أحرصهم على حياة، و لكن اليهود هم أحرص من أحرص الناس على حياة.

«يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ...» كما يرجع إلى اليهود، كذلك إلى الذين أشركوا، ام هو راجع إليهم، ثم اليهود يود أحدهم لو يعمر اكثر من ألف لأنهم أحرص منهم على حياة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 89 عن ابن عباس في الآية قال هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم: زه هزار سال- يعني الف سنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 70

و «لو» هنا للتمني لا الاستحالة، حيث سمعوا او رأوا من عمّر الف سنة او يزيد، فلانه شاذ بعيد يتمنونه مزيدا في الشهوات.

أ تراهم بعد ليس لهم تقليب الاقتراح في هذه المباهلة: إن كانت لكم المسلمين الدار الآخرة خالصة عند اللّه من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين، ام و لترضوا ان نقتلكم عن بكرتكم تخلصا الى نعيم الجنة الخالصة عن هذه الدار المحفوفة بالبلاء؟.

كلّا! حيث الرسول و المسلمون معه لم يدّعوا لأنفسهم خالص الدار الآخرة دون شرط، «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى‏ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» (4: 124).

فلم يدّعوا لأنفسهم خالص الدار الآخرة، و لا دون شرط و لا دون الناس، بل‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» ثم منهم من يتمنّى الموت دون مقت للحياة، بل هيمانا للقاء اللّه دون تعرض للقتل او الموت فانه محرم في شرعة اللّه، بل تجب عليهم مقاتلة الكفار المضللين.

و منهم من لا يتمناه بغية الحصول على استعداد أكثر للموت، تحصيلا لمزيد الثواب، و قضاء على مزيد العقاب، فكيف- إذا- يقلب عليهم السؤال و هم ليسوا بمدعين دعواهم الخاوية الفوضى الجزاف؟

ثم‏ «عِنْدَ اللَّهِ- خالِصَةً- مِنْ دُونِ النَّاسِ» هي ثالوث منحوس في دعواهم، «عِنْدَ اللَّهِ» هي منزلة خاصة منقطعة النظير، و «خالصة» هي الخلاص عن شريطة العمل الصالح، و الخلاص عن أي شوب من العقاب و الخلاص عن شركاء، و «مِنْ دُونِ النَّاسِ» اختصاص لهؤلاء الناس دون سائر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 71

الناس، و القرآن طارد هذه الدعاوي الخاوية، فكيف يقلب السؤال على أهله؟.

ثم في‏ «لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً» تحد سافر على هؤلاء المدعين، و ملحمة غيبية أن‏ «لَنْ يَتَمَنَّوْهُ» و قد كان لهم أم لأحدهم أن يتمنوه تغلّبا في هذه المباهلة على الرسول، و لكنهم لم يتمنوه و لن! تخوفا من وقوع الواقعة، و ذلك من قضايا المباهلة حين لا تنفع أية حجة، و كما حصلت مرارا و تكرارا و منها مباهلته (ص) مع نصارى نجران.

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى‏ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ‏ 97.

لقد عاد هؤلاء الحماقى الأنكاد- فيمن عادوا- جبريل، لما نزّل القرآن على نبي غير إسرائيلي؟ ثم لماذا نزل عليه نكايات على أهل الكتاب؟ و لماذا نزل عليه بشارات التوراة و كتب الأنبياء بحقه؟ و لماذا يطلع محمدا على أسرارنا؟

و ذلك- في الحق- كفر باللّه الذي أرسله لما أرسل بما أرسل.

لقد قالوا للرسول (ص) في حوار دار بينهم أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نتابعك، او نفارقك، قال (ص): وليي جبريل و لم يبعث اللّه نبيا قط إلّا هو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك و صدقناك، قال: فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا: هو عدونا، فانزل اللّه تعالى: «مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ»- إلى قوله- «كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» «فعند ذلك باءوا بغضب على غضب» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 106 في العلل باسناده الى انس بن مالك عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حديث طويل قال فيه‏ لعبد اللّه بن سلام و قد سأله عن مسائل أخبرني بهن جبرئيل (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 72

و من عداءهم لجبريل أنهم ما أبقوا له ذكرا في كتابات الوحي إلّا أربعا تفلتت عنهم، في «دانيال 8: 16 و 9: 21» من العهد العتيق، ثم في «لوقا 1: 19 و 26» من العهد الجديد، ثم لا نراه يذكر في الأسفار الخمسة التوراتية و لا في سائر كتابات العهدين و لا مرة واحدة، و هو الملك العظيم، حامل الوحي الى رسل اللّه، لا يمكن ان يترك اسمه في هذه الكتب المذكورة فيها اسماء الكثير ممن هم دونه ام لا يحسبون بشي‏ء!.

ثم المذكور فيما ذكر يعبر عنه ب «الرجل جبرائيل» (9: 21) مهما جاء في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

آنفا، قال: هل أخبرك جبرئيل؟ قال: نعم قال: ذلك عدو اليهود من الملائكة، قال: ثم قرأ هذه الآية ...

و

في الدر المنثور 1: 89- أخرج الطيالسي و الفرياني و احمد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابو نعيم و البيهقي كلاهما في الدلائل عن ابن عباس قال: حضرت عصابة اليهود نبي اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلّا نبي، قال: سلوني عما شئتم و لكن اجعلوا الى ذمة اللّه و ما أخذ يعقوب على نبيه لئن انا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعني، قالوا: فذلك لك، قالوا اربع خلال نسألك عنها، أخبرنا اي طعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة، و أخبرنا كيف ماء الرجل من ماء المرأة و كيف الأنثى منه و الذكر، و أخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم و من وليه من الملائكة، فأخذ عليهم عهد اللّه لئن أخبرتكم لتتابعني فأعطوه ما شاء من عهد و ميثاق، قال: فانشدكم بالذي انزل التوراة هل تعلمون ان إسرائيل مرض مرضا طال سقمه فنذر نذرا لئن عافاه اللّه من سقمه ليحرمن أحب الشراب اليه و أحب الطعام اليه كان أحب الطعام اليه لحمان الإبل و أحب الشراب اليه ألبانها؟

فقالوا اللّهم نعم، فقال: اشهدوا، قال: أنشدكم بالذي لا إله الّا هو هل تعلمون ان ماء الرجل ابيض غليظ و ان ماء المرأة اصفر رقيق فأيهما على كان له الولد و الشبه بإذن اللّه، ان علا ماء الرجل كان ذكرا بإذن اللّه و ان علا ماء المرأة كان أنثى بإذن اللّه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد قال فانشدكم بالذي انزل التوراة على موسى هل تعلمون ان النبي الأمي هذا تنام عيناه و لا ينام قلبه؟ قالوا نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، قالوا أنت الآن فحدثنا من وليك ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 73

في «لوقا»: و قال إن جبرائيل الواقف قدام اللّه (19) و «أرسل جبرائيل الملاك من الله ...» (26).

و لقد ذكر في القرآن بهذا الاسم مرات ثلاث، هنا و في الآية التالية لها و في التحريم (4): «وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ».

و هو مذكور مرات عدة في الذكر الحكيم باسم «الروح القدس- الروح الأمين- الروح من أمره» و لاسمه عليه السلام صيغ سبع: جبريل- جبريل- جبرئيل- جبرائل- جبرائيل- جبرايل- جبرين‏ «1»، و الأصح هو صيغة القرآن المتواترة «جبريل» المعربة عن الأصل العبراني «جبرائيل» و كأنها مركبة من «جابر- ايل».

و جابر: العبرانية:- بمعنى: «قدر- اقتدر- اشتد- تجبر- زاد- ساد- تقوى- تغلب- تفوق- أخضع» كما و «ايل» هو اللّه، إذا ف «جبريل» هو قدرة اللّه و قدره و اشتداده و تجبره و زيادته و سيادته و تغلبه و تفوقه و إخضاعه، و كل هذه المعاني تناسب ساحة جبريل فانه مظهر لهذه الأسماء الحسنى الربانية تكوينا و تشريعا، فإنه وسيط الوحي إلى رجالات الوحي، و من وسطاء التكوين، و قد يصح تفسيره ب «عبد اللّه» «2» و لأن العبودية الخاصة الخالصة للّه تجعل العبد وسيطا بين اللّه و خلقه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الاولى هي القراءة المتواترة في كتب القرآن و هي قراءة سائر القراء و الثانية: ابن كثير و الثالثة:

حمزة و الكسائي و ابو بكر عن عاصم، ثم الصيغ الأربع الأخرى هي لغات فيها.

(2)

الدر المنثور 1: 91- اخرج الديلمي عن أبي أمامة قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): اسم جبريل عبد اللّه و اسم ميكائيل عبيد اللّه و اسم إسرافيل عبد الرحمن، و كل شي‏ء راجع الى «إيل» فهو معبد للّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 74

«قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» لأنه نزل على قلبك ما نزّل‏ «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى‏ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» دون هواه ام هوى سواه‏ «مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» في أصل الوحي كسلسلة موصولة بين رسل اللّه، و في البشارات المحمدية، ثم‏ «وَ هُدىً وَ بُشْرى‏ لِلْمُؤْمِنِينَ» بهذه الرسالة السامية، إذا فلما ذا يعادى؟ لكنّه إسرائيل!.

«ويحك أ جهلت أمر اللّه، و ما ذنب جبريل أن أطاع اللّه فيما يريده منكم، أرأيتم ملك الموت أهو عدوكم و قد و كله بقبض أرواح الخلق ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 103 في الاحتجاج قال ابو محمد الحسن العسكري (عليهما السلام): قال جابر بن عبد اللّه‏ سأل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عبد اللّه بن صوريا غلام أعور يهودي، تزعم اليهود انه أعلم بكتاب اللّه و علوم أنبياءه، عن مسائل كثيرة تعنّته فيها فأجابه عنها رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بما لم يجد الى إنكار شي‏ء منه سبيلا فقال له يا محمد! من يأتيك بهذه الأخبار عن اللّه تعالى؟ قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): جبريل، فقال: لو كان غيره يأتيك بها لآمنت بك، و لكن جبرئيل عدونا من بين الملائكة، فلو كان ميكائيل او غيره سوى جبرئيل يأتيك بها لآمنت بك، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و لم اتخذتم جبرئيل عدوا؟ قال: لأنه ينزل بالبلاء او الشدة على بني إسرائيل، و دفع دانيال عن قتل بخت نصر حتى قوي أمره و أهلك بني إسرائيل، و كذلك كل بأس و شدة لا ينزلها إلا جبرئيل، و ميكائيل يأتينا بالرحمة، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ويحك أ جهلت امر اللّه ... أرأيتم الآباء و الأمهات إذا و جروا الأولاد الكريه لمصالحهم يجب أن يتخذهم أولادهم اعداء من اجل ذلك؟

لا! و لكنكم باللّه جاهلون، و عن حكمته غافلون، أشهد ان جبرئيل و ميكائيل بأمر اللّه عاملان، و له مطيعان، و انه لا يعادي أحدهما إلّا من عادى الآخر، و انه من زعم انه يحب أحدهما و يبغض الآخر فقد كذب، و كذلك محمد رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و علي (عليه السلام) أخوان كما ان جبرئيل و ميكائيل اخوان، فمن أحبهما فهو من اولياء اللّه، و من أبغضهما فهو من اعداء اللّه، و من أبغض أحدهما و زعم انه يحب الآخر فقد كذب و هما منه بريئان و اللّه تعالى و ملائكته و خيار خلقه منه برآء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 75

مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ‏ 98.

فان عداء ملائكة اللّه و رسله و جبريل و ميكال و أضرابهم عداء للّه و ذلك كفر باللّه‏ «فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ».

إن الرسالة الملائكية و البشرية هي سلسلة موصولة بين اللّه و خلقه تكوينا و تشريعا، فالكافر بعقد واحد من هذه السلسلة كافر بها كلّها، و الكافر بها كافر باللّه، و إذا كان كفر العداء للّه‏ «فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ».

و «ميكال» معرب «ميكائيل»: من هو كمثل اللّه؟ استفهام إنكار على من يشبّه باللّه، و ما أحلاه اسما لملك من ملائكة اللّه يحمل جانبا عظيما من توحيد اللّه!.

وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ ما يَكْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ‏ 99.

آيات بينات الدلالة على أنها ربانية، و بينات المدلول كما يناسب الفطرة و العقل و الحاجية السلمية الإنسانية «وَ ما يَكْفُرُ بِها» كفرا و كفرانا «1» في أي حقل من بيّناتها «إِلَّا الْفاسِقُونَ» الخارجون عن قشر الإنسانية و لبّها، و المتخلفون عن عقليتها و فطرتها و مصلحياتها.

و «الفاسقون» بتعريفها كأنها تعني المعروفين بالفسق بين الأمم الكتابية و سواها، المتعرق فيهم الفسوق فإنهم «إسرائيل»!.

أَ وَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ‏ 100.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). طالما الباء في الكفر تعدية و في الكفران سببية او مصاحبة، ان يكفر كفران بسبب الآيات او مصاحبتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 76

«عهدا» مع اللّه كما عاهد عليهم اللّه ام عاهدوه، ام «عهدا» مع عباد اللّه‏ «نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ» من قلة او ثلة «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» بالعهد و المعهود له، و من العهد الرباني الايمان بالرسول الأمي:

وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ‏ 101.

هنا «كِتابَ اللَّهِ» المنبوذ ليس هو القرآن فحسب، بل و التوراة و سائر كتابات الوحي ايضا، حيث البشارات المحمدية فيها تترى بشأن القرآن و رسوله، فنبذ القرآن نبذ لما بين يديه من كتاب، «نَبَذَ فَرِيقٌ» و هم الفرقة المتعصبة المحرّفة «كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ» أنه رسول من عند اللّه و كتابه كتاب اللّه، و هما معروفان لديهم وضح النهار في جل كتابات الرسالات أم كلّها.

ثم فريق ثان هم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني «نبذه» و هم لا يعلمون جهل التقليد المقصر، ثم فريق ثالث هم القلة القليلة منهم صدقوه و آمنوا به و هم يعلمون فيعلمون.

و «فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» هنا تعريض عليهم، أنهم على معرفتهم بوحي الكتاب و بشاراته بهذه الرسالة الأخيرة «نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ»- «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ»! وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى‏ مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ‏ 102

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 77

إنها من أطول الآيات البينات بعد آية التداين، يتيمة في مضمونها ككلّ، لا نظيرة لها في القرآن كله، حاملة حملة عنيفة على إتّباعهم ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من الكفر و تعليم السحر و ما انزل على الملكين، فما هي مادة هذه التلاوة الكافرة الساحرة؟ و كيف أنزل السحر على الملكين؟ و كيف يفرّق به بين المرء و زوجه بإذن اللّه؟! و هل السحر هو فسق عملي، و انه كفر باللّه؟ فالساحر- أيّا كان- كافر؟!.

هؤلاء الحماقى الأنكاد، النابذون كتاب اللّه وراء ظهورهم و هم يعلمون، هم أولاء اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان و قد تلت على ملكه كفرا و سحرا، فما هي هنا «تتلوا على»؟ أ هي القراءة؟ و صيغتها الصريحة «تقرء»! ام هي الإتّباع؟ و صيغتها الصالحة: «تتلوا ملك سليمان» كما «وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها. وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها»! ام هي الكذب على؟ و لفظها الصحيح:

«تكذيب على»! قد تعني «تتلوا على» مثلث التلاوة، قراءة على ملكه من شيطنات، تجعل ملكه أمام السامعين ملك الشياطين، و اتباعا على‏ «مُلْكِ سُلَيْمانَ» بعضهم البعض ضد ملكه، و كذبا على ملك سليمان‏ «1».

و قد تلوا على ملك سليمان ذلك الثالوث المنحوس، نسبة له الى الكفر السلطوي الشركي كما نجده حرفا بحرف في العهد العتيق، كما تلوا على ملكه السحر لعله ينقضه، و كأن ملكه كان بسحر، و كذبوا على ملكه أكاذيب يتبرأ عنها شلائطة الناس فضلا عن نبي كسليمان عليه السلام.

و إليكم طرفا مما تلوه على ملكه و دسّ في كتابات منسوبة الى أنبياء بني إسرائيل، فشيطنة الوحي هذه خليطة بربانية الوحي التوراتية:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فان «تلى على» تعني قرء، ام كذب اعتبارا ان «على» للضرر، و كذلك اتبع على، حين تعني «على» الضرر لا التعدية حتى تختص بالقراءة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 78

نموذج عارم عن الدس و التجديف في التوراة ضد سليمان:

«... أصبح سليمان في سلطانه مثريا للغاية فأخذ في السرف و الترف و التعيش الممنوع أكيدا في (تث 17: 16- 17) و لقد هدده الله و وبخه في رؤياه الثانية، فرغم أن يتعظ استكبر و تساهل في أمر ربه و نسي ربه» (1 ملوك 1- 9 و 2- أيام 7: 11- 22) «أخذ يعاشر و يعاشق النساء الغريبات اللاتي منع الله من عشرتهن فنكح منهن سبعمائة بالعقد الدائم و ثلاثمائة منقطعا، فاجتذبن و أملن قلبه عن ربه إلى أنفسهم و هو على كهولته و شيخوخته نحى نحوهن و حذى حذوهن لحد بنى لكل واحدة منهن مذبحا للأوثان على الأتلال» (1 ملوك 11: 8 و سخميا: 13: 26) «و لذلك غضب الله عليه و فرق ملكه من بعد جزاء كفره و فسوقه!.»

و «كثرة النساء محرمة على الملوك كما في التوراة (تث 17: 17) و كذلك نكاح الوثنيات (خروج 34: 16 و تث 7: 3 و 4) فضلا عن الانحراف في ميولهن الشركية أن يبني على الأتلال معابد الأوثان!.»

«و هكذا انحرف في سلطانه و قدرته عن العدل و بالنسبة لرعيته حيث أجبرهم على خدمته و ظلمهم في الخراجات الثقيلة المحرجة، لحد اضطر المظلمون المحطمون أن يتظلموا إليه جهارا في جلوس يربعام» (1 ملوك 12: 3- 20) مقابل مع (اصموئيل 8: 10- 18) هذه و لها نظائر يستحي القلم عن سطرها ك «إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا» (متى 1: 6) و هي امرأة ذات بعل، فقد جمع سليمان العهدين بين كل كفر عقائدي و عملي، و هو معذلك نبي ملك! و «هو الذي بنى البيت المقدس فاتخذه الله ابنا له» (ايام 28: 6- 7) و أمر ناتان النبي أن يدعوه: يديديا- اي: محبوب الرب (صموئيل 12: 25) و انتصبه اللّه خليفة أبيه داود قبل ولادته (1- أيام‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 79

22: 9- 10) فأصبح ملكا نبيا في العشرين من عمره (1 ملوك 2: 12 و 3: 7 و 2- أيام: 1)- و تجلى له ربّه في رؤياه قائلا: سل ما شئت فسأله الحكمة فوهبها و زيادة هي الملك و السلطان (1 ملوك 3: 4- 5 و 2- أيام 1: 13- مقابل مع: أمثال.: 11- 16 و متى 6: 33)!! ...

هذه الشطحات الزور و الشيطنات الغرور هي مما «تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى‏ مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا ...».

ثم القرآن يصفه بأجمل الأوصاف في سلطته الزمنية، و الروحية الرسالية كما في الأنعام و الأنبياء و النمل و ص و سواها، مما يقل مثيله في المرسلين الملوك و الملوك من المرسلين! «1».

و هنا «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» حالا من الشياطين، تعني أنهم حال كفرهم- بما تلوا على ملك سليمان- يعلمون الناس السحر، فهو من قضايا الكفر، و لقد كان مما تلوه على ملكه أنه إنما ملك ما ملك بالسحر، فلنملك نحن او نملّك بالسحر، نكرانا لاصطفاء اللّه له في هذه السلطة الزمنية الى الروحية الرسالية! إذا فتعليم السحر و تعلمه كفر او على هامشه، و أما «ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ...»؟.

لا شك أنه أنزل على هذين الملكين السحر، و لكنه أنزل عليهما ما أنزل إبطالا لسحر الشياطين و ليس تعليما للإفساد، فكما أن تعليم الآية المعجزة لموسى إبطالا لسحر السحرة واجب رسالي، فلتكن معرفة المعجزة و استعمالها إبطالا للسحر واجبا أم راجحا ايمانيا، و كما القرآن- بأحرى- يبطل اي سحر! ف «ما» في «ما أنزل» و «ما يُعَلِّمانِ» قد تكون نافية تعني: ما انزل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا «عقائدنا» في مقارنة سليمان القرآن و العهدين 427- 441.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 80

سحر الشياطين على الملكين و انما انزل عليهما مبطل السحر مهما كان سحرا و لكنه من نوع آخر يبطل الأوّل، فهو- إذا- أقوى من الأوّل، ثم و «وَ ما يُعَلِّمانِ» إبطاله‏ «مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ» امتحانا لكم و ابتلاء «فَلا تَكْفُرْ» باستعماله في الباطل، و انما في حق الإبطال لباطل سحر الشياطين‏ «فَيَتَعَلَّمُونَ ...».

و كون «ما» الأولى موصولة لا يرجع إلى معنى صالح، اللّهم إلّا بحذف الواو عن‏ «وَ ما يُعَلِّمانِ» فالمعنى: و السحر الذي أنزل على الملكين ما يعلمان به من أحد ... فإنه ليس إلّا إبطالا للسحر.

ذلك، و أبعد منه عن المسرح كون «ما» فيها موصولة، أو الاولى نافية و الثانية موصولة، مهما دخلت هذه الثلاث في حساب المليون و مأتين و ستين ألف احتمالا بضرب كل المحتملات في كلّ من مقاطع الآية بعضها في البعض، حيث الاكثرية الساحقة لا تناسب أدب اللفظ أم المعنى أم كليهما.

ثم هاروت و ماروت و هما ملكان، كانا يظهران- بأمر اللّه- بهيئة الإنسان ببابل فيعلّمون الناس المبتلين بسحر الشياطين سحرا أقوى منه يبطله‏ «وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ» سحرهما النازل عليهما إلا بحجة رادعة قارعة: «إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ» و لكنهم كانوا يبدّلون الحسن سوء و الخير شرا ككل من يستعملون نعمة اللّه في نقمة حيث يبدلونها نعمة «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ» ف «يفرقون به- دون- يفرق به» تلمح أن ذلك السحر كان لإبطال التفرق، و كما يأتي منه التفريق ايضا حسب مختلف استعمالاته، كما اللسان القادر على الإفصاح قد يوفق بين المتخاصمين و أخرى يفرق بين المتحابين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 114 في الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل و فيه‏ قال السائل له: فمن أين علم الشياطين السحر؟ قال: من حيث عرف الأطباء الطب، بعضه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 81

هؤلاء الأنكاد كانوا يستعملون آلة الخير في الضر بالناس، و يخيّل إليهم أنهم هم الضارون به بعيدا عن إذن اللّه، حال أنهم- كضابطة عامة في كل ضر و شر أم خير- «وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

أ ترى اللّه يأذن بتأثير الضر تكوينا ما لم يسمح به تشريعا و هو تناقض؟ هنا الضر بإذن اللّه ليس إلا بعد تكملة الإختيار من اصحاب الضر و الشر، فلا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين، و كما لا جبر في فعل الخير او تركه، كذلك لا جبر في فعل الشر او تركه، و هكذا التفويض، فأمر بين أمرين في هذين الأمرين، أن المقدمات لكل فعل اختياريّ، منها اختيارية يختارها الفاعل، ثم الإذن التكويني الخاص باللّه- قضية توحيد الأفعال- هو الذي يبرز عملية الإختيار إلى الوجود، فقد يأذن اللّه تحقق محاولات الشر، إذ لولاه لكان الشرير مسيّرا في ترك الشر، كما في كل شرير واصل إلى شره، و هذه ضابطة عامة تحلّق على الخيرات و الشرور.

و قد لا يأذن- لأمور طارئة، حكمة من اللّه، أم لصالح فيمن يؤمن عن الشر، أم هما كما لم يأذن اللّه للنار أن تحرق ابراهيم، و هو يأذن لها ان تحرق كضابطة عامة سارية المفعول عند الشرائط الخلقية.

إذا ف «لا مؤثر في الوجود إلا الله» و لكن دون جبر أو تفويض في الأمور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

تجربة و بعضه علاج، قال: فما تقول في الملكين هاروت و ماروت، و ما يقول الناس بأنهما يعلمان السحر؟ قال: انهما موضع ابتلاء و موقف فتنة بتشييحهما اليوم لو كان فعل الإنسان كذا و كذا لكان كذا و كذا، و لو يعالج بكذا و كذا لصار كذا اصناف السحر، فيعلمون منهما ما يخرج عنهما فيقولان لهم: انما نحن فتنة فلا تأخذوا عنا ما يضركم و لا ينفعكم، قال: أ فيقدر الساحر أن يجعل الإنسان بسحره في صورة الكلب او الحمار او غير ذلك؟ قال: هو أعجز من ذلك و أضعف من ان يغير خلق اللّه، ان من أبطل ما ركبه اللّه و صوره فهو شريك اللّه في خلقه تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 82

الاختيارية، فانما الفعل يصبح اختياريا للفاعل، او الترك للتارك، إذا كانت بعض مقدماته اختيارية، مهما كان الإختيار درجات او دركات في الخيرات و الشرور، حسب عديد المقدمات كثرة و قلة، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

«وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ» من الشياطين، فإنهم يعلّمون الناس السحر ضرّا، أم من الملكين، مهما علّموهم ما ينفعهم إبطالا لضر السحر و شره، و لكنهم بسوء اختيارهم يستعملونه في الشر بدلا عن إبطاله.

و السحر هو كسائر العوامل الخفية- الطبيعية- عن جلّ الناس، يؤثر أثره حين يأذن به اللّه، و العلوم الباحثة عن خفيات التأثيرات الغريبة متشجرة- و هي في نفس الوقت متشاجرة- و اعرف ما تداول منها: السيمياء- الليمياء- الهيمياء- الريمياء- و الكيمياء «1»، و هي مشتركة في كونها من السحر، مختلفة في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالسيمياء هو العلم الباحث عن تمزيج القوى الارادية بقوى مادية خاصة للحصول على غرائب التصرفات في الأمور الطبيعية، كالتصرف في الخيال المسمى بسحر العيون و هو من ابرز مصاديق السحر، و الليمياء هو الباحث عن كيفية التأثيرات الإرادية باتصالها بالأرواح القوية العالية كالارواح الموكلة بالكواكب و الحوادث و غيرها بتسخيرها او باتصالها و استمدادها من الجن بتسخيرهم و يسمى بفن التسخيرات.

و الهيمياء هو الباحث عن تركيب قوى العالم العلوي مع العناصر السفلية للحصول على عجائب التأثير و هو الطلسمات، فان للكواكب العلوية و الأوضاع السماوية ارتباطات مع الحوادث المادية كما ان العناصر و المركبات و كيفياتها الطبيعية كذلك، فلو ركبت الأشكال السماوية المناسبة لحادثة من الحوادث كموت فلان و حياة فلان و بقاء فلان مثلا مع الصور المادية المناسبة انتج ذلك الحصول على المراد و هذا معنى الطلسم.

و الريمياء هو الباحث عن استخدام القوى المادية للحصول على آثارها بحيث يظهر للحس أنها آثار خارقة بنحو من الأنحاء و هو الشعبذة، و هذه الاربعة مع الكيمياء- الباحث عن كيفية تبديل صور العناصر بعضها الى بعض كانت تسمّى عندهم بالعلوم الخمسة الخفية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 83

أسبابها و تأثيراتها و أبعادها في النفوس و واقع الحياة.

«وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ» السحر من الشياطين الضارّين به، أو الناس المشترين إياه منهم، أم هما معا «ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ» و نصيب‏ «وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» إذ شروها بيعا بثمن السحر الضار، فأبقوا نفوسهم بتعلم السحر و الإضرار به، و استحقوا العقاب، ويكأنهم رضوا بالسحر ثمنا لنفوسهم، إذ عرّضوها بعمله للهلاك، و أبقوها لدائم العقاب، و كانت كالأعلاق الخارجة عن أبدانهم بأنقص الأثمان و أدون الأعواض.

أولئك الذين بدلوا نعمة اللّه كفروا و أحلوا قومهم دار البوار. جهنم يصلوها و بئس القرار! هذا ما يتسابق الى الفهم من مغزى الآية بصورة تجريدية صالحة لفظية و معنوية، و القرآن حمال ذو وجوه فاحملوه إلى أحسن الوجوه.

ف «الشيطان» هنا تعم شياطين الجن و الإنس، و من الآخرين هؤلاء العلماء السوء الذين دسّوا في كتابات الوحي ما يمس من كرامة الساحة الرسالية لسليمان و أضرابه من المرسلين.

فقد كفر شياطين الجن إذ ألقوا إليهم ما ألقوا، و كفر هؤلاء التلاميذ إذ دسوا في كتب الوحي ما دسوا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(تفسير الميزان نقلا عن الشيخ بهاء الدين العاملي) ثم يستمر قائلا: و من العلوم الملحقة بما مر علم الاعداد و الأوفاق و هو الباحث عن ارتباطات الأعداد و الحروف للمطالب و وضع العدد او الحروف المناسبة للمطلوب في جداول مثلثة او مربعة او غير ذلك على ترتيب مخصوص، و منها الخافية و هو تكسير حروف المطلوب او ما يناسب المطلوب من الأسماء و استخراج أسماء الملائكة او الشياطين الموكلة بالمطلوب و الدعوة بالعزائم المؤلفة منها للنيل على المطلوب، و منها التنويم المغناطيسي و إحضار الأرواح و هما كما مر من تأثير الارادة و التعرف في الخيال و اشتهار أمرها يغني عن الإشارة إليها هاهنا و الغرض مما ذكرنا على طوله إيضاح انطباق ما ينطبق منها على السحر او الكهانة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 84

و ما قصة نازل السحر على الملكين إلّا بلية صالحة لغربلة الناس، ليظهر ناسهم عن نسناسهم، فيعرفون أنفسهم و يعرفهم الناس، كيف هم يبدلون نعمة اللّه كفرا، و يستغلونها في الضر و الشر؟. كما و «إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ...» (2: 249) و إلى سائر الابتلاءات و الفتن الربانية.

و لقد كثرت رواة هذه القصة و قلت رعاتها، اهتماما بأيّة رواية، و تغافلا عن أيّة رعاية، و لا يصدّق منها إلّا ما صدقه كتاب اللّه، ام- و لأقل تقدير- لم يكذبه و لم يأت برهان لتكذيبه، فقد يحتمل إذا صدقه.

هذه القصة و أضرابها مما تمتّ بصلة إلى إسرائيل هي مسرح الأكاذيب و المختلقات الزور الغرور، التي يدسها بين أحاديثنا الغرور، و لا أصل لنا أصيلا نصدر منه و نرجع إليه إلّا القرآن العظيم.

و كثير من هذه الأحاديث- كغيرها- الواردة في مطاعن الأنبياء و عثراتهم، هي مما دسته اليهود في أحاديثنا، كما و أعانهم عليها قوم آخرون من المسيحيين و منافقي المسلمين، و جهالهم البسطاء!.

و القرآن يفصح عما دسوا و أخفوا، و يفضح ما صفوا فيه و دفوا، فانه مهيمن على ما بين يديه.

إنهم كفروا بذريعة الايمان و الأمان، و طغوا فيها بديلا عن التقى:

وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ‏ 103.

«لو» الأولى تحيل إيمانهم و تقواهم، كما الثانية تحيل علمهم بمثوبة اللّه، و هما استحالتان بالاختيار: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 85

[سورة البقرة (2): الآيات 104 الى 115]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (104) ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105) ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (106) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (107) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (108)

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (109) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى‏ تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (111) بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى‏ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ وَ قالَتِ النَّصارى‏ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى‏ فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلاَّ خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (114) وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (115)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 87

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ‏ 104.

«مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (4: 46).

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» صيغة سائفة في القرآن لقبيل الايمان، يختص بها المؤمنون بهذه الرسالة الأخيرة، و هذه هي المرة الاولى في القرآن حسب التأليف- دون التنزيل- و نجدها في القرآن زهاء خمسة و ثمانين مرة.

ثم الأمم الأخرى حسب التعبير القرآني هم بين: قوم- اصحاب- بني ... ناس- و أضرابها، مما يبرز شرف هذه الأمة الاخيرة على ما قبلها، و لأن ايمانها أشرف ايمان بين مؤمني الأمم بأسرها.

«راعنا» في لغة المسلمين لا تعني إلّا: أنظرنا رعاية لحالنا، و هي- ليّا باللسان- في لغة إسرائيل: سمعنا و عصينا و اسمع غير مسمع أمّا شابه نقيضا لإسلاميتها، و اليهود المتعودون على تحريف الكلم من بعد مواضعه كانوا يستعملون هذه الصيغة السائغة لقبيل الايمان، كصيغة لقبيل الكفر، متظاهرين أنها كالأول، مستهزئين بالرسول (ص) و المؤمنين، فنهى اللّه المسلمين أن يقولوها ابتعادا عن ذريعة إسرائيلية الى بغية لئيمة، و كذلك عما تعطيه «راعنا» من هيّن المعنى و هو إدارته الحفظ مع تولي الأمر، و ليس هي على الرسول (ص) و إنما عليه البلاغ ثم النظر الى المبلّغ إليهم كيف يعلمون؟.

إذا ففي «راعنا» ذريعة إسرائيلية لعينة، و مزرءة اسلامية مهينة، و لكن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 88

«أنظرنا» نظرا رساليا كشهيد على المرسل إليهم، ذلك تعبير نظيف حفيف.

«قُولُوا انْظُرْنا وَ اسْمَعُوا» سمعا لمقالات الرسالة، و تطلّبا من الرسول أن ينظر إليهم نظر الرقابة هل عملوا بما سمعوا، ام هل و عوا ما سمعوا، ليطابق الوعي البلاغ، و يوافق العمل ما بلّغ، تكميلا لنقص الوعي، و تقويما في التطبيق.

فهذا هو المطلوب من الرسول بعد البلاغ، دون الرعاية لأحوالهم و كأنه هو الشارع، فليخفف عنهم في شرعته، ففي تركهم قول «راعنا» سدّ على ثغرة إسرائيلية، و آخر على مجهلة إسلامية.

ثم «راعنا» عربيا مفاعلة من الرعاية، طلبا لها، فقد يعني ليّها بألسنتهم ليّ التعبير ك «راعنا» يعنون بها أن الرسول ما هو إلّا راعي الإبل فينا دون رسالة او ميّزة أخرى؟.

ام «راعنا» من الرعونة بحذف أداة النداء «يا راعنا» مدللا فيما تدعيه من الرسالة؟.

ام ليّ المعنى إيهاما بها للمساوات ك: ارعنا سمعك لنرعيك أسماعنا؟.

أم ليّا فيهما، ففي التعبير ليّ يحرّف «راعنا» عن عربيته مثل «رعنا»: حمقا، ثم المعنى كخليفة له: «سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ» كما في آيتها الأخرى تفسيرا لها؟ و لا نجده في ليّ عربي إذ لم يكن يعني إلّا الرعونة و راعي الإبل و اين هما من مثلث المعني هنا؟.

و علّهم كانوا يجمعون بين اللّيين، جمعا للمعنيين اللئيمين، و القرآن يكتفي في آيته الثانية بالثاني.

و قد بدل اللّه هنا «عصينا» ب «أطعنا»- ثم‏ «وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 89

ب «اسمع» و «راعنا» ب «انظرنا» إصلاحا شاملا كاملا يسد الى ثغرة إسرائيلية: «طَعْناً فِي الدِّينِ» ثغرة إسلامية: جهلا في الدين، و قد يناسب‏ «طَعْناً فِي الدِّينِ» تفسيرا ل «راعنا» في ليّها، بأنها من الرّعن، و هي في العبرانية: الحمق، أن كانوا يقولون «رعنا» اي: حمقا، و حمق الرسول (ص)- و عوذا باللّه- طعن في الدين عن بكرته، فان الشرط الأوّل للرسالة هي العقلية البارعة للرسول، و

قد يروى عن الامام الباقر (ع) «هذه الكلمة سبّ بالعبرانية إليه كانوا يذهبون» «1»

«يقولون راعنا يريدون شتمه» «2».

و الحق ان «رعنا» هو الأنسب ليا خفيا فيه لفظيا، ثم طعنا في الدين معنويا، مهما ليّوا إلى جانبه سائر اللي.

ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ‏ 105.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 115 عن المجمع.

(2)

تفسير البرهان عن الامام العسكري (عليه السلام) قال موسى بن جعفر (عليه السلام) و كانت هذه اللفظة «راعنا» من ألفاظ المسلمين الذين يخاطبون رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقولون «راعنا» اي: ارع أحوالنا و اسمع منا كما نسمع منك، و كان في لغة اليهود معناه: اسمع لا سمعت- فلما سمع اليهود المسلمين يخاطبون بها قالوا: كنا نشتم محمدا إلى الآن سرا فتعالوا الآن نشتمه جهرا فكانوا يخاطبون رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و يقولون راعنا يريدون شتمه ففطن لهم سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا اعداء اللّه عليكم لعنه اللّه أراكم تريدون سب رسول اللّه توهمون انكم تجرون في مخاطبته مجرانا و اللّه لا أسمعها من أحد منكم إلا ضربت عنقه، و لولا اني اكره أن أقدم عليكم قبل التقدم و الاستئذان له ... لضربت عنق من قد سمعته منكم ... فأنزل اللّه يا محمد مِنَ الَّذِينَ هادُوا ... و انزل‏ لا تَقُولُوا راعِنا ... فانها لفظة يتوصل بها أعداؤكم من اليهود الى سب رسول اللّه و شتمكم‏ وَ قُولُوا انْظُرْنا اي: قولوا بهذه اللفظة لا بلفظة «راعنا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 90

التسوية بين قبيلي الكفر في «ما يودّ» تنديدة شديدة بكفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بهذه الرسالة السامية، ف «ما يودّ» فيهم، لها صبغة عنصرية إسرائيلية و «ما يود» في المشركين، لها صبغة الجهالة القاحلة، المستبعدة في الأصل أن ينزل الوحي على بشر، «وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ» دون حبس لها و قصر على أهواء أولاء و هؤلاء، «وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» دون ما يزعمونه من فضل محدّد محدود، أم فضل عميم لا يختص بأحد، و جوابا عن نسخ آية رسالية أو إنساءها:

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ 106.

و هذه- في وجه- نظرية آية النحل‏ «وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (101).

و قد تعني آية البقرة من «آية» ما هي أعم من آية النحل، من آية تحمل حكما أو أحكاما، إلى آية الرسالة في أصلها، و آية: الرسول، فهي- إذا- مثلث الآية دون اختصاص ببعضها، و الأنسب للمقام هما الأخيران، إلّا أن يعنى من آية الحكم كل كتاب الوحي: القرآن، الناسخ لما بين يديه في أحكام.

و على أية حال فلا تعني‏ «أَوْ نُنْسِها»- فيما تعني- إنساء آية عن خاطر الرسول (ص) مهما كانت منسوخة الحكم‏ «1»، إذ سبقتها مكية كافلة لعدم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من الاسرائيليات المختلقة الزور هنا ما في الدر المنثور 1: 104- اخرج جماعة عن ابن عباس قال: كان مما ينزل على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الوحي بالليل و ينساه بالنهار فانزل اللّه:

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها و فيه عن قتادة قال: كانت الآية تنسخ الآية و كان نبي اللّه يقرأ الآية و السورة و ما شاء اللّه من السورة ثم ترفع فينسها اللّه نبيه فقال اللّه يقص على نبيه: ما ننسخ ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 91

نسيانه أيّة آية: «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏» إقراء رباني يضمن ألّا ينسى ما اقرء، و «إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ» راجع إلى «سنقرئك» دون «تنسى»، كما فصلناه في محله.

هنا يخرّ سقف المختلقات الزور من آيات يدعى أنها كانت من القرآن ثم نسخت أو أنسيت عنه و عن خاطر الرسول (ص)- يخر سقفهم من فوقهم و ينهد صرحهم‏ «1».

«آية» هنا هي آية الرسالة و الآية الرسول، ام و آية تحمل حكما، و نسخ الآية الأولى و إنساءها هو نسخ الآيات المعجزات البصرية، حيث نسخت بآية القرآن بصيرة خالدة تمشي مع الزمن، و القرآن الآية خير من كلّ آيات الرسالات صورة و مادة و مدة، نسخت تلكم الآيات و أنستها، و كما نجد القرآن في عشرات من آياته يتحدى الناكرين بنفسه، و يجعله كافية عن سائر الآيات الرسالية: «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ ...»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الدر المنثور 1: 105- اخرج جماعة عن أبي موسى الاشعري قال: كنا نقرأ سورة نشبهها في الطول و الشدة ببراءة فأنسيتها غير أني حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا و لا يملأ جوفه الا التراب، و كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات أولها: سبح للّه ما في السماوات، فأنسيناها غير اني حفظت منها: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ‏ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة و في نقل آخر عن أبي موسى نفسه: قال: نزلت سورة شديدة نحو براءة في الشدة ثم رفعت و حفظت منها: ان اللّه سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، و

فيه عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا اوحي اليه أتيناه فعلمنا ما اوحي اليه، قال: فجئته ذات يوم فقال: ان اللّه يقول: انا أنزلنا المال لإقام الصلاة و إيتاء الزكوة و لو ان لابن آدم واديا لأحب أن يكون له الثاني و لو كان له الثاني لأحب ان يكون إليهما ثالث و لا يملأ جوف ابن آدم الا التراب و يتوب اللّه على من تاب.

و لقد نسب اليه فيما يروى عن بريدة انه قرء هذه الجملات في صلاته كأنها آيات؟! أقول: و حتى الطفولة في معرفة القرآن تضحك على هذه العبارات، فأين هي في ألفاظها و معانيها من القرآن. ان هي الا إسرائيليات تعني للقرآن ما عني لكتاباتهم المحرفة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 92

كما و أن الآية الرسولية محمد (ص) نسخت الرسل السابقين أو أنستهم، لأنه جمع كلّ فضائل الرسل و الرسالات و زيادات، لحدّ هم يعتبرون تقدمات لمجي‏ء هذا الرسول (ص)، كما يعتبر وحيهم الرسالي بجنب وحيه وصية.

ثم الآيات الأحكامية الناسخة في القرآن- و هي قلة قليلة- قد أتى اللّه بها خيرا من المنسوخة او مثلها في الأثر الصالح للامة الأخيرة، و قد يجري ذلك في آيات الإمامة إلّا في الإنساء فإنهم معروفون على مدار الزمن، و قد يصدق‏ «بِخَيْرٍ مِنْها» في صاحب الأمر، ك «مثلها» في سائر الائمة خلفا لسلف‏ «1».

ثم الآيات الرسالية قبل القرآن، هي كذلك، لا تأتي آية لا حقة منها إلّا ناسخة للسابقة او منسية، و هي خير منها او مثلها، و القصد من الآية الرسالية تثبيت الرسالة، كلّ حسب المقتضيات و المصالح التي قد لا يعلمها إلّا اللّه، فليست الآية الرسالية- و كما الرسولية- لتحصر في واحدة، و تحسر عن سواها، بل هي محلّقة على كل ما هو الأصلح للرسل و المرسل إليهم، دلالة قاطعة على رسالاتهم.

و هنا مقابلة «ننسخ» ب «ننسها» تجعل النسخ إزالة الحكم مهما بقي في العلم، و تجعل الإنساء إزالة عن العلم كما أزيل حكمه، و مهما عمت «من آية» مثلث الآيات، فلا تعمها «أَوْ نُنْسِها» فقد تنسى آية رسالية أم رسولية بين أمة لا حقة، و لكن لا تنسى آية حكمية عن خاطر رسول، حكما له او لمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 115 عن اصول الكافي علي بن محمد عن اسحق بن محمد عن شاهديه بن عبد اللّه الجلاب قال: كتب إلى ابو الحسن (عليه السلام) في كتاب: أردت ان تسأل عن خلف بعد أبي جعفر و قلقت لذلك فلا تغتم فان اللّه عز و جل لا يضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم، ما يتقون، و صاحبكم بعدي ابو محمد ابني و عنده ما تحتاجون اليه يقدم ما يشاء اللّه و يؤخر ما يشاء ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها. قد كتبت بما فيه بيان و قناع لذي عقل يقظان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 93

قبله، و لا سيما محمد (ص) حيث‏ «سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى‏».

إن مشكلة النسخ كانت مشكلة كتابية إسرائيلية، إحالة له أحيانا، و نكرانا له أخرى، سواء أ كان نسخا لآية رسالية «وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى‏ مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ ...»

(6: 124).

ام آية رسولية كالرسالة الإسماعيلية الناسخة للرسالات الإسرائيلية، فرغم البشارات المحمدية في كتبهم أنكروه لمّا جاءهم لأنه ليس إسرائيليا.

ام آية او آيات أحكامية، كما القرآن بالنسبة لما بين يديه، و الإنجيل بالنسبة للتوراة في أحكام، و لا يعني النسخ الأحكامى- و كما النسخ الرسالي و الرسولي- تجهيلا لساحة الرب أنه علم بعد جهل، إنما الناسخ بيان لأمد المنسوخ، كما الآيات المنسوخة القرآنية تلمح بنفسها أنها لأمد سوف يبيّن‏ «1» فالحكم المنسوخ ان كان محددا بحد معلوم أم غير معلوم، كان الناسخ بيانا للمجهول في غير المعلوم حدّه، و توضيحا للمعلوم و الحكم الآتي بعده.

و إن لم يكن محدّدا بحدّ فهو مطلق فيه، كان الناسخ كتقييد لإطلاقه وقتيا، إذا فلا نسخ في الشرعة- في نفسها او لشرعة اخرى- بمعنى التعارض، بل هو- ككلّ- بيان لانتهاء حكم سابق و ابتداء حكم لاحق.

و في‏ «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها» برهان قاطع لا مرد له أن الآية الثانية- أيا كانت- لا تقل عن الأولى، بل و قد تزيد، آية رسولية ام رسالية أم أحكامية، فلا يصح القول بتقديم الأقدم من أولى العزم و تفضيله على لاحقة، فإمّا هما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمثل قوله تعالى: وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ‏ ... فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا و السبيل هنا هي التي تحملها آية النور: الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 94

على سواء، ام اللاحق خير من سابقه كما يصدق تماما في خاتم النبيين (ص).

و «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ» تعم مثلث الرسالة و حيثها و حيثيتها مادة و مدة، عدّة و عدّة.

«أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» و منه مثلث الآيات رسالية و رسولية و أحكامية:

أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ 107.

«أَ لَمْ تَعْلَمْ» فيهما لا تخص بخطاب الرسول (ص) اللهم إلا من باب إياك أعنى و اسمعي يا جاره، بل هو كلّ من يأهل لذلك الخطاب العتاب، المعترض على نسخ آية أو إنساءها، او المتلبّك فيه.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ‏ 108.

هذه تؤيد أن «من آية» في آية النسخ تعني- كأصل- آيتي الرسالية و الرسولية، إذ كانوا يستبعدون نسخها إلى شاكلة أخرى غير السابقة المتعوّد عليها في الرسالات، كما و «أم» اضراب عما سبق من تساءل جوابه آية النسخ، إذ تعنتوا متثاقلين متسائلين في هذه الآية الرسالية و الرسولية.

و «كَما سُئِلَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ» هو مثل سؤال الرؤية: «يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى‏ أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ...» (4: 153): «و قالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ...» و كما برزت هذه الإرادة السيئة في أسؤلة جاهلة قاحلة من المشركين:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 95

«وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ... أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا» (17: 92) «1».

و لان‏ «أَمْ تُرِيدُونَ» تشمل أهل الكتاب و المشركين، فالسؤال- إذا- يعمهما كما الأول للأولين و الآخر للآخرين‏ «2».

و لقد آل أمر التسائل التجاهل لحد سألوا الرسول (ص) ان يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، و هي شجرة كان المشركون يعبدونها و يعلقون عليها التمر، و كما سأل بنو إسرائيل موسى: «اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ» كما و تطلّبوا منه (ص) ألّا يكسر اللّات- مهما كسر سائر الأصنام- حتى يؤمنوا!.

و ترى الخطاب في‏ «أَمْ تُرِيدُونَ» تشمل- فيما شملت- المسلمين؟ اللهم نعم، قضية الإطلاق، و لكنه- فقط- لحد إرادة السؤال دون واقعة، ثم اللّهم لا، في واقع السؤال، حيث الايمان لا يلائم هكذا سؤال، اللهم إلّا من المنافقين، و كما في أضرابهم من الكتابيين.

«وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ» يقبل الكفر بدلا «بالايمان» في مسرح التبادل بين الكفر و الايمان‏ «فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ» تجارة خاسرة، حاسرة عن أية عائدة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 107 عن ابن عباس قال قال رافع بن حريملة و وهب بن زيد لرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه او فجر لنا أنهارا نتبعك و نصدقك فأنزل اللّه في ذلك‏ أَمْ تُرِيدُونَ ....

(2)

تفسير البرهان 1: 141 قال الامام العسكري (عليه السلام) قال علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) «أَمْ تُرِيدُونَ» بل تريدون يا كفار قريش و اليهود «ان تسألوا رسولكم» ما تقترحونه من الآيات التي لا تعلمون فيه صلاحكم او فسادكم‏ «كَما سُئِلَ مُوسى‏ مِنْ قَبْلُ» و اقترح عليه لما قيل له‏ «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 96

هؤلاء يتبدلون الكفر بالايمان لأنفسهم و يودون آملين نفس القصة للمؤمنين:

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ 109.

«وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً» «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى‏ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ».

إعلان صارخ عن كيد لئيم يكيده كثير من اهل الكتاب جموع المؤمنين‏ «لَوْ يَرُدُّونَكُمْ» تمنيا باطلا قاحلا في ودّهم المضلّل «يردونكم كفارا» و لماذا؟

«حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» لا جهلا بحقكم، فإنما مجال الحسد منقبة لا ينالها الحاسد ام لا يريد نيلها و لكنه يراها منقبة، و ذلك‏ «مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» و «هم» يعمهم و أهل الحق، و يا للعجب أن هؤلاء الحماقى في الطغاة يودون لو يردونهم كفارا، و الحق مبين لهم و للمؤمنين، فقد «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» و يودون أن يتحول المؤمنون أمثالهم، شيطنة مدروسة مدسوسة بين قبيل المؤمنين من هؤلاء الشياطين، فما دائهم- إذا- و ما دوائهم؟ فهل يحاربهم قبيل الايمان، ذودا عن أنفس مؤمنة بسيطة سريعة التأثر بالدعايات المضادة؟ ام عفوا و صفحا في العجالة حتى يأتي اللّه بأمره-؟!-:

«فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» و كيف يعفى عن تلكم الدعاية المضللة الخطرة، أم كيف يصفح عن الساعين في الأرض فسادا؟ و نفس العفو و الصفح دليل حاضر القوة الدافعة و المحاربة!.

إنه ليس العفو عنهم و الصفح إلّا مصلحة وقتية «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» فهو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 97

مطلق العفو المحدّد بإتيان أمره و ليس العفو المطلق مهما بلغ أمر الكيد و الإفساد منهم.

و لقد دافع اللّه عنهم سوء هذه الدعاية اللئيمة و الشكيمة- فيما دافع‏ «1»- بما أخبر رسوله و المؤمنين بكيدهم هذا، فلا تجب قتالهم كدفاع عن إفساد العقيدة، فانما أمر بالعفو و الصفح لمصلحة ربانية، علّ منها أن يعلم اهل الكتاب بفضحهم في كيدهم، و المسلمون على قوتهم و علمهم بذلك الكيد اللعين أمروا بالعفو و الصفح، علّهم يحيدون عما يكيدون آئبين الى ربهم، ثم بعد ردح يومر بقتالهم حيث الإياس عن نبهتهم: و «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» منه امر السياسة الصالحة و جاههم حين لم يرتدعوا و لم يرعووا، و من أمره الآتي:

«قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ» (9: 29).

و هنا الأمر بعد حدّه الزمني محدّد بسلوب أربعة، انتهاء إلى استسلامهم‏ «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ» دفعا للجزية بعد انتهاء شرهم.

كما و من أمره أمر هدايته لمن اهتدى بعد ضلال، و ارتدع بعد دلال، ف

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفسير الكبير للفخر الرازي 3: 236 روي ان فنحاص بن عازوراء و زيد بن قيس و نفرا من اليهود قالوا الحذيفة بن اليمان و عمار بن ياسر بعد وقعة أحد: ألم تروا ما أصابكم، و لو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم و أفضل و نحن أهدى منكم سبيلا، فقال عمار: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد، قال: فإني عاهدت أني لا اكفر بمحمد ما عشت، فقالت اليهود: أما هذا فقد صبأ، و قال حذيفة: و اما انا فقد رضيت باللّه ربا و بالإسلام دينا و بالقرآن إماما و بالكعبة قبلة و بالمؤمنين إخوانا، ثم أتيا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أخبراه فقال أصبحتما خيرا و أفلحتما، فنزلت هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 98

«أمره» يعم التكوين و التشريع، اللذين لم يكونا حاضرين حالا فيحضران استقبالا.

و يا لمقابلة أسوء السوء بالحسن لعلّهم يرتدعون ام يهتدون، و ليعلموا ان اللّه يردع المؤمنين عن قتالهم و هم أقوياء أمام هؤلاء الضعفاء الأغوياء، الذين جمعوا كل شر و ضرّ في ذوات أنفسهم:

«وَدَّ ... لَوْ يَرُدُّونَكُمْ‏ ... حَسَداً ... مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ...»!

و الحسد هو ذلك الانفعال الأسوء الأسود الردي‏ء الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الأمة المسلمة و ما زالت تفيض، منبعثة منه كل دسائسهم و تدابيرهم اللئيمة في كل دوائر السوء ضد الأمة المرحومة، و قد كشف القرآن لنا منها لنعرفه فنحذرهم، و

قد يروى عن النبي (ص) قوله: «إن لنعم اللّه أعداء، قيل و ما أولئك؟ قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله» «1».

و هنا- في الوقت الذي تتجلى للمؤمنين هذه الشكيمة اليهودية- يدعو القرآن أتباعه إلى الارتفاع عن المقابلة بالمثل، توجها الى الصفح و العفو «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» آمرا لهم بالمضي في طريقتهم المختارة:

وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ 110.

فلا يزعزعهم ذلك الخطر الحادق عن ركني الايمان عمليا: إقام الصلاة و إيتاء الزكوة، و بصورة عامة تقديم كل خير عقائدي و عملي لهذه الأنفس الطيبة المطمئنة باللّه، الناظرة لأمر اللّه: «وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 3: 237.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 99

إذ يبقى و لا يفنى، لا أصوات الأقوال و لا صور الأعمال و لا سير النيات و الأحوال‏ «إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» لا يخفى عليه خافية.

فلا تعني «تجدوه»- فقط- وجدان الثواب، بل و حضور نفس الأعمال الخيرة «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ...».

ثم إن في إقام الصلاة بشروطها صلة وثيقة بينهم و بين ربهم، كما في إيتاء الزكوة ماديا و روحيا وثيق الصلة بينهم أنفسهم، فلا يبقى فيهم منفذ من تشكيكات العدو و عرقلاته كما ان «من خير» تحلّق على الصلتين في كافة الخيرات المأمور بها في شرعة الحق، و في تطبيقها ضمان اللّانفوذية من الكتلة المضللة.

و من قيلات اهل الكتابين، الغيلات الويلات، التي طمأنتهم كما يزعمون فلا يحيدون عن أية خاطئة:

وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى‏ تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏ 111.

و إذا انحصرت الجنة فيهما- كما يدعيها كل لنفسه- فانحسرت عمن سواهم طول تأريخ الرسالات، فأين- إذا- مؤمنوا الشرائع السابقة على شرعة التوراة و الإنجيل؟ أفهم في النار على إيمانهم! أم لا في جنة و لا نار!.

فيا للحقد من طيش قاحل و حكم جاهل أن‏ «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً» كما يدعيه اليهود و «لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى» كما تدعيه النصارى، فلكي يطردوا المسلمين- ككل- عن الجنة لأنهم على شرعة جديدة يطردون معهم كافة المؤمنين في كل أدوار الرسالات قبل موسى و المسيح عليها السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 100

«تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ» كلّ أمانيهم، على ما هم عليه من تخلفات عقائدية و عملية، فمجرد الجنسية اليهودية او النصرانية تكفي لدخول الجنة فوضى جزاف! و لكن الإيمان و العمل الصالح في غيرهما لا يكفيان لدخولها! «قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ» فطريا ام عقليا ام كتابيا، ام في ايّ من الأعراف البشرية السلمية «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في أمانيكم.

و ترى كيف تكون‏ «تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ» جمعا فضلا عن كل أمانيهم؟ و لم تأت هنا إلّا واحدة «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ»! لقد ذكرت هنا أماني عدة هذه أخيرتها، ثم و هي تجمع كل أمانيهم الساقطة فانها كخلفيّة شاملة لها كلها.

أ ترى القرآن هنا يعارض دعواهم بالمثل، معاكسا تلك القولة الخاوية أن «لن يدخل الجنة إلا من كان مسلما» كجنسية اسلامية تكفيها النسبة كيفما كانت؟ كلّا! و إنما:

بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ‏ 112.

«بلى» هنا تزييف ل «لَنْ يَدْخُلَ»- «بلى» يدخلها غير الهود و النصارى، و كضابطة عامة رافضة لحواجز الجنسيات و الطائفيات‏ «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ ...».

فانما هو إسلام الوجه للّه بكل الوجوه ظاهرة و باطنة، عقائدية و عملية، فردية و جماعية، «أسلم ... و هو محسن» إسلام الإحسان و إحسان الإسلام و هما الإسلام عقائديا و عمليا، «فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» على قدر إسلام وجهه و إحسانه ما هو مسلم محسن‏ «وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ».

فقد يسلم مسلم وجهه للّه في وجهيه و هو غير محسن، كالعقيدة غير

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 101

الصالحة و العمل غير الصالح، ام يحسن في وجه واحد، عقيدة او عملا و لا يحسن في الآخر، فهو ايضا غير محسن، إذا «وَ هُوَ مُحْسِنٌ» يعم احسان وجهي الباطن و الظاهر للّه دون اختصاص بوجه، ام ترك الإحسان في إسلام الوجه.

فلا بد- إذا- من إحسان وجه العلم و العقيدة و النية و سائر الطوية، إلى احسان وجه الأعمال، المنبثقة من الوجه الأول.

«بلى» هذا هو كفيل الجنة، دون أية جنسية او طائفية او عنصرية أو إقليمية في ذلك الإسلام، فانما الإسلام المحسن لا سواه، سواء أ كان إسلاما في شرعة نوح و إبراهيم، أم موسى و عيسى، ام محمد صلوات اللّه عليهم أجمعين، بل و إسلام التوحيد المزيج، أم و غير الكتابي ما دام صاحبه مسلما و كما يقول اللّه: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى‏ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 62) و هم كلهم موحدون، بين مسلم و هود و نصارى- و هم كتابيون- أم عوان و هم الصابئون، ام و موحد غير كتابي كالمجوس: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى‏ وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ...» (22: 17) فما لم يدخل فيهم‏ «الَّذِينَ أَشْرَكُوا» كان «لهم‏ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» ثم إذ دخلوا فيهم‏ «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ»!.

اجل‏ «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» (3: 115) «بلى» انما هي حكمة واحدة ثم «لا و كلا»! «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ» لا للأمنيات و الهوسات الجهنمية، إنما «للّه» ثم‏ «وَ هُوَ مُحْسِنٌ» في إسلام وجهه، يسلمه للّه كما أمر اللّه، مهما كان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 102

قاصرا دون تعمد و لا بطّال أو متبتل في شرعة اللّه‏ «فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» حيث إن إسلام الوجه للّه محسنا هو العروة الوثقى، مصدرا لكل خيرات الإيمان مهما اختلفت مراتبها بمراتبه حسب مختلف الحالات و الاستعدادات: «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ...» (4: 125).

فالمسلم الذي يسلم وجهه للّه محسنا، له اجره عند ربه، و الكتابي الذي يسلم وجهه للّه محسنا له أجره عند ربه، «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (4: 123).

اجل و انها ضابطة ضابطة كلّ التخلفات و الطاعات دونما فوضى جزاف، ضابطة في طرفي السلب و الإيجاب: «بَلى‏ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ».

هذا الحبيس بخطيئته المحيطة به، فهو أعزل عن كل وجهة و واجهة ربانية، إلّا وجهات الهوى الهاوية، ثم‏ «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ» فأخلص ذاته و كل تعلقاته في وجهاته و واجهاته للّه‏ «وَ هُوَ مُحْسِنٌ» في إسلامه‏ «فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» ثم بينهما عوان متوسطات و لا يظلمون نقيرا.

هذا- ثم نرى بين اليهود و النصارى أنفسهم تناحرا في الكيان و تهافتا في سند الأمان:

وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى‏ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ وَ قالَتِ النَّصارى‏ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ‏ 113.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 103

تلك هي قالة كلّ من أهل الكتابين مناحرا لواقع الحق في البين‏ «لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ» من الحق و لا حق من الجنة، كما «لَيْسَتِ النَّصارى‏ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ» من الحق و لا حق من الجنة «1» «وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ» توراة و انجيلا، القائلان قول الحق، و أنه الايمان و العمل الصالح، دون طائفية قاحلة و عنصرية جاهلة «كذلك» البعيد عن ميزان الحق‏ «قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» و هم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني و إن هم إلّا يظنون، و المشركون الناكرون لكتاب الوحي قالوا «مِثْلَ قَوْلِهِمْ» رغم الفرق الفارق بين حكم الكتاب و اللّاكتاب، فهم نزّلوا أنفسهم منزلة الذين لا يعلمون، تجاهلا بحق الكتاب لأهل الكتاب، أن ليسوا سواء مع من لا يدين بكتاب‏ «فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» أيا كان مما حكم به الكتاب وحيا أم حرفوه عن جهات أشراعه.

فحين يتقاذف اهل الكتاب فيما بينهم- و هم يتلون الكتاب- كيف يرجى من الذين لا يعلمون ألّا يقذفوهم أنهم- ككل- ليسوا على شي‏ء؟ و قد قذفوا كل أهل الكتاب- بمن فيهم المسلمون- انهم ليسوا على شي‏ء!.

فليوحد اهل الكتاب كلمتهم على حق لهم أم حقايق، كيلا يرفضهم المشركون بما يتقاذفون فهم سواء: «قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (3: 64)- «يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى‏ شَيْ‏ءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 4: 7 روي ان وفد نجران لما قدموا على رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود: ما أنتم على شي‏ء من الدين و كفروا بعيسى (عليه السلام) و الإنجيل، و قالت النصارى لهم نحوه و كفروا بموسى و التوراة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 104

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى‏ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (5: 69).

و لندرس هنا نحن المسلمين- و بأحرى من غيرنا- ألّا ننجرف في منجرفات الخلافات العارمة بين الفرق الإسلامية، فكلّ يرمي أصحابه في الشرعة الواحدة أنهم ليسوا على شي‏ء، و لقد سمعت مغفلا من إخواننا في المدينة المنورة، يسمى عميد الجامعة الإسلامية فيها يقول: ان الشيعة الرفضة شر من اليهود، كما سمعت مغفلا آخر منّا في مكان آخر يقول: إن الفلسطينيين شر من اليهود! «وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ‏ أَ فَلا يَعْقِلُونَ»؟! وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى‏ فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ‏ 114.

نرى‏ «مَنْ أَظْلَمُ»- الدالة على قمة الظلم- هنا و في ثلاث صيغ اخرى:

«وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ» (2: 140)- «... مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً» (6: 21)- «... مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها» (6: 157) مما يدل على أن هذه الأربع أظلم الظلم على النفس و الحق و على الآخرين، و علّها خاصة بالمظالم العملية لا و العقائدية.

و ليس يختص بالذين منعوا الرسول (ص) عن المسجد الحرام ان يذكر فيها اسمه و سعى في خرابها- لمكان الجمع- مهما كان أصدق مصاديقه ممنوعا و هو الرسول و ممنوعا عنه و هو المسجد الحرام، و ممنوعا منه و هو ذكر اللّه فيه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و بمناسبة الآيات السابقة المنددة باليهود قد تعم اليهود، فقد كانوا يمنعون المسلمين عن الصلاة الى-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 105

«أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ- وَ سَعى‏ فِي خَرابِها» هما يحدّدان أظلم المنع، الناحيان منحى الصد عن سبيل اللّه، و أن يترك ذكر اسم اللّه، و هم- بطبيعة الحال- المشركون و الملحدون امّن نحى منحاهم في منعهم و سعيهم.

مساجد اللّه هي المختصة بذكر اسم اللّه فكيف يمنع ان يذكر فيها اسم اللّه؟ و انما تعمر بذكر اسم اللّه و الدعوة فيها الى اللّه فكيف يسعى في خرابها في حقل الذكر؟ و لا يسعى في خرابها إلّا المكذبون باللّه و آياته.

فكم من ساع لعمران مساجد اللّه في بنيانها و هو ساع في خرابها من حيث أنها مساجد اللّه، و يمنع ان يذكر فيها اسم اللّه، و لا فارق بينه و بين من يهدم بنيانها، حيث المعني من خرابها تهديمها من حيث انها مساجد اللّه و محال ذكر اسم اللّه.

«أولئك» البعيدون عن اللّه‏ «ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ» حين كانوا أذلّاء صغارا، كما «ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ» حين كانوا أعزة و كبارا، فان شرعة الحق لا تسمع لهم أن يدخلوها، و على اهل الحق ألّا يسمحوا لهم أن يدخلوها، إذا ف «ما كان» نهي عن ان يدخلوها على أية حال، و قد صرح المنع بالنسبة للمشركين: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا ...».

«لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ» في شرعة الحق و ميزانه، و منه عدم السماح لدخولهم فيها «وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ» لا أعظم منه إذ لا أظلم منهم، و انما يقدر العذاب بقدر الظلم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المسجد الحرام بعد تحويل القبلة، ام و سعوا في تهديم الكعبة و ما استطاعوا.

كما و تعم هدم البيت المقدس بواسطة بخت النصر و سواه من الطغاة، ام اي منع من اي مسجد او مسجد او سجدة و تهديم اي منها طول زمن التكليف على مدار الرسالات الإلهية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 106

و تعني‏ «مَساجِدَ اللَّهِ» اضافة الى محال السجدة: المساجد- نفس السجدة و أزمنتها، اعتبارا أن «مساجد» جمع لمثلث المسجد و المسجد، اسم مكان و زمان و مصدرا ميميّا، إذا فهو المنع عن عبادة اللّه في أصلها و في أزمنتها و أمكنتها، مهما اختصت‏ «أَنْ يَدْخُلُوها» بأمكنتها.

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ‏ 115.

لقد تطمئن هذه الآية المؤمنين أنهم إن منعوا عن مساجد للّه، فكل الأرض مساجد للّه، و «الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ» بما هما الجهتان الأصيلتان تشملان كل الجهات‏ «فَأَيْنَما تُوَلُّوا» وجوهكم الى اللّه في مساجد و سواها «فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» إذ لا يختص وجهه بالمساجد مهما كانت أفضل من سائر بقاع الأرض، و لا يعني وجه اللّه هنا إلا المتوجّه اليه في العبادة و الدعاء، و الوجه- ككل- هو ما يواجه الشي‏ء او يواجه به، و كل الكائنات مواجهة ربّهم بكلّ الوجهات و الوجوه التكوينية، و هو مواجه لهم فيها، و كذلك التشريعية لمن هو متشرع بشرعة من اللّه.

فليست الآية لتعني ان القبلة الخاصة ساقطة عن وجوب الاستقبال إليها في الصلوات، بل هي- بمناسبة آية المنع عن المساجد- توسعة في أمكنة السجدة للّه و قد يشهد له «أينما» دون «إلى اين» و ليس فرض القبلة تضييقا لدائرة وجه اللّه، إنما هو مصلحة جماعية وحدويّة للجماعة المسلمة ان يوجهوا وجوههم إليها لوجه اللّه الذي ليس له زمان و لا مكان، فكما أن الوجهة المعرفية و العقائدية ثم العملية للمسلمين واحدة، فلتكن قبلتهم في صلاتهم- كذلك- واحدة، كشعيرة ظاهرة من مشاعر الوحدة، أم إن تولي الوجه إلى اللّه يعم الصلاة و سواها من وجوه الاتجاه الى اللّه، و شرط القبلة خاص بالصلوات بدليل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 107

خاص، و هنا ايضا يسقط شرطها عند الضرورة، فهي- إذا- ضابطة عامة لكل الاتجاهات الى اللّه صلاة واحدة و صلات واحدة «فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»، في مساجد اللّه و سواها، الى القبلة و سواها، مهما كانت القبلة شرطا مصلحيا في قسم من الاتجاهات الى اللّه‏ «إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ» الاتجاهات «عليم» بالمضايقات و الضرورات التي تمنعكم عن مساجده، ام عن القبلة.

فإذا صلى لغير القبلة إذ لا يعرفها و لا يسطع، ثم تبين له أنه صلاها الى غير القبلة أعادها ما لم يفت الوقت و كانت القبلة خلفه و لا يعيدها إذا فات او كانت بين المشرق و المغرب‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تدل عليه‏

صحيحة عبد الرحمن بن أبي عبد اللّه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إذا صليت و أنت على غير القبلة و استبان لك انك صليت و أنت على غير القبلة و أنت في وقت فأعد و ان فاتك الوقت فلا تعد،

أقول: و قد خصص ذلك بما كانت القبلة على ظهره في صحاح عدة. و

في التهذيب عن محمد بن الحصين قال‏ كتبت الى عبد صالح: الرجل يصلي في غيم في فلات من الأرض و لا يعرف القبلة فيصلي حتى فرغ من صلاته بدت له الشمس فإذا هو صلى لغير القبلة يعتد بصلاته ام يعيدها؟ فكتب يعيد ما لم يفت الوقت او لم يعلم ان اللّه يقول- و قوله الحق- فأينما تولوا أنتم وجه اللّه،

و

في تفسير العياشي عن الباقر (عليه السلام) في الآية قال (عليه السلام) انزل اللّه هذه الآية في التطوع خاصة فأينما تولوا فثم وجه اللّه ان اللّه واسع عليم، و صلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ايمانا على راحلته أينما توجهت به حين خرج الى الخيبر و حين رجع من مكة و جعل الكعبة خلف ظهره.

أقول: هذا الإطلاق يناسب التطوع كأصل كسائر الاتجاهات غير الواجب فيها الاستقبال الى القبلة و كما يناسب الفرض عند الضرورات، و هو على آية خاص مخصوص بغير فرض الصلاة، ام مطلق على الوجه الاول في‏ «فَأَيْنَما تُوَلُّوا ...».

و

في الدر المنثور 1: 109- اخرج البخاري و البيهقي عن جابر بن عبد اللّه قال‏ رأيت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أنمار يصلي على راحلته متوجها قبل المشرق تطوعا، و عنه ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان يصلي على راحلته قبل المشرق فإذا أراد ان يصلي المكتوبة نزل و استقبل القبلة و صلى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 108

و على أية حال فالآية ضابطة تعم الكون كله لأمكنة الصلاة، و اتجاه المصلي فيها، مهما خصت في خاصة الموارد بنص الكتاب او السنة، و هي ما أمكن الاتجاه فيه الى القبلة حيث الأمر بتولي الوجوه شطر المسجد الحرام في آيته يخص المتمكن، ثم تعم غيره‏ «فَأَيْنَما تُوَلُّوا ...».

و قد تكون صلتها بالآية السابقة ان اليهود كانوا يعترضون على الرسول (ص) و المسلمين هامّة تحويل القبلة من القدس الى المسجد الحرام، و ان صلاتهم- إذا- باطلة إذ لا يتجه إليهم ربهم إلّا الى القبلة التي كانوا عليها، فرد اللّه عليهم بما رد، ان له تحويل القبلة «فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» «1» و طبعا كما يأمر اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه عن عامر بن ربيعة قال‏ كنا مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدا فيصلي فيه فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة فقلنا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل اللّه‏ وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ ... فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مضت صلاتكم‏

، و

فيه اخرج الدارقطني و ابن مردويه و البيهقي عن جابر بن عبد اللّه قال‏ بعث رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة لم نعرف القبلة فقالت طائفة منا القبلة هاهنا قبل الشمال فصلوا و خطوا خطا و قال بعضنا القبلة هاهنا قبل الجنوب فصلوا و خطوا خطا فلما أصبحوا و طلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فسكت فأنزل اللّه، و للّه المشرق و المغرب.

أقول: و قد استفاض الحديث عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أئمة اهل بيته (عليهم السلام) ان «بين المشرق و المغرب قبلة» و طبعا هذه التوسعة لمن لا يعرف القبلة و لا يستطيع ان يصلي مرات الى جهات، او تأكد من القبلة و هو خاطئ و قد خرج الوقت.

(1).

نور الثقلين 1: 118 في الاحتجاج للطبرسي قال ابو محمد (عليه السلام) قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لقوم من اليهود: او ليس قد ألزمكم في الشتاء ان تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة و ألزمكم به في الصيف ان تحترزوا من الحر فبدا له في الصيف حين أمركم بخلاف ما أمركم-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 109

[سورة البقرة (2): الآيات 116 الى 123]

وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (116) بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (119) وَ لَنْ تَرْضى‏ عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لا النَّصارى‏ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى‏ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (120)

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (121) يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (122) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (123)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 110

وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ‏ 116.

«و قالوا» كل من قالوا من مختلف صنوف المشركين و اليهود و النصارى‏ «اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً» و ظاهر الاتخاذ هنا هو التبنّي و «سبحانه» أن يتبنىّ و لماذا؟ أ لكي يكون أزرا له و معينا؟ و لا يحتاج الى أزر و لا معين! «بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» ملكية حقيقية، فما ذا يفيده اتخاذ ولد؟ ثم و «كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ»:

مطيعون لسلطته التكوينية و خاضعون، فما هو دور اتخاذ الولد- لو أمكن- لربنا؟

و هو مستحيل في نفس الذات!.

بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ‏ 117.

الخلق البديع هو ما ليس له مثال يحتذى، فكما المادة الأولية لا مثال لها قبلها، كذلك ولائدها المتطورة من سموات و الأرض، فإنها خلقت من غير مثال، و الولد- متّخذا او حقيقيا- له مثال على أية حال، فالوالد بأجزائه الروحية و البدنية مثال للولد المنفصل عنه، فليس بديعا منه و

«ان اللّه عز و جل ابتدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله فابتدع السموات و الأرض و لم يكن قبلهن سماوات و لا أرضون ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

به في الشتاء؟ فقالوا: لا فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): فكذالكم اللّه تعبدكم في وقت بصلاح يعلمه بشي‏ء ثم تعبدكم في وقت آخر لصلاح آخر يعلمه في شي‏ء آخر فإذا أطعتم اللّه في الحالتين استحققتم ثوابه فانزل اللّه تعالى: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ ... يعني: إذا توجهتم بامره فثم الوجه الذي تقصدون منه اللّه و تأملون ثوابه.

(1). نور الثقلين 1: 119 في اصول الكافي بسند عن سدير الصيرفي قال: سمعت حمران بن أعين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 111

و المتبنيّ غير ولده يتبنّاه بمثال له من أولاد آخرين، و هو في الحالتين بحاجة اليه‏ «لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» برهان اوّل على أنه تعالى «سبحانه» من اتخاذ الولد فضلا عن أن يلد، ثم‏ «بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» برهان ثان على أنه لم يلد و لن يلد، و على هامشه استحالة اتخاذه ولدا.

«وَ إِذا قَضى‏ أَمْراً» فليس ليلده او يتخذه‏ «فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» و قوله فعله!.

و القضاء هنا يعني ارادة التكوين‏

«فإرادته للفعل إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي و لا يهمّ و لا يفكر و هذه الصفات منفية عنه و هي من صفات الخلق، فإرادة اللّه هي الفعل لا غير ذلك، يقول له كن فيكون بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همة و لا تفكر و لا كيف لذلك كما أنه لا كيف له» «1».

فقضاء أمره في الخلق الأوّل خلقه لا من شي‏ء، ثم في سائر الخلق خلقه مما خلقه، و في كلا الخلقين ليس منه إلّا الإرادة، دون حاجة الى ما يحتاجه خلقه من محاولات و مساعدات.

و من شؤون اتخاذ الولد للّه سبحانه خرافة وحدة حقيقة الوجود- الإغريقية، التي نشبت في الفلسفة الإسلامية و ترسبت فيها، فإن الفلسفة الإسلامية- و مع الأسى- تأثرت بأصداء الفلسفة الإغريقية في أصول لها و هذه منها، و البراهين العقلية و نصوص الكتاب و السنة معسكرة على أن الخلق غير الخالق فإنه ليس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- يسأل أبا جعفر (عليه السلام) عن قول اللّه: بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ... أما تسمع لقوله تعالى: وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ.

(1).

تفسير البرهان 1: 146 عن الكافي عن صفوان بن يحيى قال‏ قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) أخبرني عن الإرادة من اللّه و من الخلق، فقال: الإرادة من المخلوق الضمير و ما يبدو بعد ذلك من الفعل، و أما من اللّه فإرادته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 112

كمثله شي‏ء، باين عن خلقه و خلقه باين منه، لا هو في خلقه و لا خلقه فيه، فليس الكون إشعاء ذاتيا من خالق الكون فانه ولادة و ليس خلقا بديعا، و لا هو صورة مرئية لكونه أو تجل منه، فان هذه ولادة مهما اختلفت صورها، تبدلا للخالق- بكله او جزء منه او مرتبة من كيانه- الى المخلوق، حيث الولادة- ككل- هي التبدل- ككل- سبحانه و تعالى عما يشركون.

وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ‏ 118.

فلقد كذب اللّه و شتمه من اتخذ له ولدا و كما

يروي الرسول (ص) عن اللّه: «كذبني ابن آدم و لم ينبغ له أن يكذبني و شتمني و لم ينبغ له أن يشتمني، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، و ليس اوّل الخلق بأهون علي من إعادته، و اما شتمه إياي فقوله: اتخذ اللّه ولدا و أنا اللّه الأحد الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد» «1».

«الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» علّهم هنا هم المشركون المنقطعون عن وحي السماء، أم و كل المجاهيل في معرفة اللّه و وحيه، فقالتهم الأولى: «لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ» لو أنه يكلم بشرا كما يدعيه محمد و المرسلون قبله، فلما ذا هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 109- اخرج البخاري و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول اللّه: ... و

فيه عن أبي موسى الأشعري عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: لا أحد أصبر على أذى يسمعه من اللّه إنهم يجعلون له ولدا يشرك به و هو يرزقهم و يعافيهم.

و

في نور الثقلين 1: 119 في العلل باسناده الى سفيان بن عيينة عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لم يخلق اللّه شجرة إلّا و لها ثمر تؤكل فلما قال الناس: اتخذ اللّه ولدا- ذهب نصف ثمرها، فلما اتخذوا مع اللّه ولدا شاك الشجر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 113

التكلّفات بوساطات الوحي، المعرقلة مسير الكثير و مصيرهم، فلو أنه كلمنا دون وسيط لكنا مؤمنين‏ «1»، و الثانية كتنزل التنازل عن الأولى: «أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ» كما أرسل الأولون، و ما نقترحه عليه من آية؟.

«كذلك» البعيد البعيد «قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» هؤلاء «الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» على مدار الزمن الرسالي‏ «تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ» المقلوبة كلمة واحدة في القالة الأولى، و طلبا لما يشتهون من آيات الرسالة في الثانية، و الجواب كلمة واحدة «قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ» الرسالية في كل أدوارها «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» بها فمن لا يوقن بآيات اللّه إذا جاءت، لا تتبين له آية، و حتى لو كلمه اللّه، و كما كلم اللّه قائدهم الشيطان الرجيم بما كلم، فرد عليه و إبليس عن أمره إلى هواه!.

و تراهم كيف يصدقون كلام اللّه لو أنه كلمهم اللّه، و ليس ليريهم ذاته، ثم لا يتم الإختيار لو أن اللّه أوحى الى كلّ ما يوحى!: «وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها».

فالذي يجد رياحة اليقين و راحته في قلبه، مفتوحا الى آياته بمنافذه، يجد في آيات اللّه مصداق إيقانه و إيمانه، فليست الآيات لتنشئ اليقين بأنفسها، و إنما ينشئ في قلوب صافية ضافية، مهما كانت الآيات بعيدة الدلالة في مقياس الآخرين.

و لقد أصبحت كفار اليهود و النصارى، الناكرون لهذه الرسالة السامية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر 110 عن ابن عباس قال‏ قال رافع بن حريملة لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يا محمد! ان كنت رسولا من اللّه كما تقول فقل للّه فليكلمنا حتى نسمع كلامه فانزل اللّه في ذلك‏ «وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ...» قال: هم كفار العرب‏ «لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ» قال: هلا يكلمنا اللّه‏ «كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يعني اليهود و النصارى و غيرهم‏ «تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ» يعني العرب و اليهود و النصارى و غيرهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 114

متشابهي القلوب مع الذين لا يعلمون، بل و أنكر و أنكى و هم يتلون الكتاب، عارفين طبيعة الوحي و شاكلته، فإذا جاءهم الوحي القمة أنكروه قضية العصبية القومية و العنصرية.

لقد تشابهت قلوب المشركين الذين لا يعلمون، و أهل الكتاب الذين يعلمون، إذ أصبحت مقلوبة عن الهدى، مليئة بالهوى، فابتليت بأمثال هذه الأسؤلة الجاهلة.

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ‏ 119.

«إنّا» بجمعية الصفات الربانية «أَرْسَلْناكَ» بجمعية العطيات جمعية الميّزات الرسالية «بَشِيراً وَ نَذِيراً» مزودا ببينات الآيات، فإذا حققت البشارة و النذارة كما حقّت‏ «لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ» الرافضين لآياتك و دعواتك الرسالية، فلا تحزن عليهم لو لا يؤمنون، و لا على نفسك لأنهم لا يؤمنون، فلست أنت- كرسول بشير نذير- مسئولا عن أصحاب الجحيم، لماذا لم يؤمنوا؟ و إنما تسأل لو كنت مقصرا في دعوتك، على تقصيرهم في قبولها و الإقبال إليها، و قد بلغت القمة في دعوتك، ثم لا عليك أن يصبحوا من أصحاب الجحيم.

وَ لَنْ تَرْضى‏ عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصارى‏ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى‏ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ 120.

قد تلمح‏ «لَنْ تَرْضى‏» أن الرسول (ص) كان يدأب محاولا ترضية اليهود و النصارى حتى يؤمنوا، فآيسه اللّه أولا بإحالة رضاهم إلّا أن يتحول إلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 115

ملتهم، و ثانيا «لَئِنِ اتَّبَعْتَ ...» بتهديد شديد، فليس الحق ليقبل أنصاف حلول و لا جعل البلد بلدين، او الشطر شطرين، ف «قل» لهؤلاء الحماقى الأنكاد، المحاولين لتحويلك إلى ملتهم‏ «إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى‏» و ليست هي الهوى، فامض في صراط الحق، و امش في دعوتك صارحة ناصحة ناصعة، و لا تتحول عن هدى اللّه قيد شعرة، و ان و عدوك- إذا- اتباعك في ملة الحق، فليس الباطل- أيّا كان- ليتذرّع به إلى الحق، فإما حقا و إما باطلا و لا عوان في ملة الحق!.

و كيف تتبع أهواءهم ليتبعوك و هم عارفوك بما عرّفهم إياك في كتب السماء:

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ‏ 121.

هناك باطل تلاوة الكتاب، كالتي للأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلّا أماني و إن هم إلّا يظنون، و التي للمحرفين الكلم عن مواضعه و نسوا حظا مما ذكروا به و لا تزال تطلع على خائنة منهم، فهم لا يؤمنون بالقرآن و نبيه و هم يعلمون.

ثم الذين‏ «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ» كما أنزله اللّه و قصده، ايمانا به خالصا دونما شائبة «أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» لا سواهم منهم‏ «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ» شركية و كتابية فإن تلاوة كتاب الوحي تحمل على الإيمان بالقرآن من زاويتين اثنتين، زاوية الأنس بالوحي فوحي القرآن آنس، و أخرى هي البشارات القرآنية المحمدية في كتابات الوحي، و في كلّ منهما كفاية للإيمان بهذه الرسالة السامية.

و لأن التلاوة- لا سيما المجردة عن حروف جارّة كما هنا- هي المتابعة،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 116

فهي هنا

«يتبعونه حق اتباعه» «1»

و ما حقّ اتباعه إلّا بعد حق معرفته و تدبره إيمانا به‏

«إنما هو تدبر آياته و العمل بأحكامه» «2»

و القصر هنا في‏ «أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» نسبي في الحقل الكتابي، إذ يؤمن به من غير اهل الكتاب من يتحرون عن الحق.

ثم‏ «آتَيْناهُمُ الْكِتابَ» كما تعني أهل الكتابين حيث يؤمنون بالقرآن على ضوء تلاوة كتبهم حق التلاوة، كذلك تعني أهل القرآن حيث يزيدهم حقّ تلاوته إيمانا به.

كما «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ» تعم كفار اهل الكتاب و المشركين، و كذلك كفار المسلمين و هم الذين لا يتلونه حق تلاوته «فأولئك» ككل‏ «هُمُ الْخاسِرُونَ» إذ خسروا الحق و هم على نبعته.

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ 122 وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 111- اخرج الخطيب في كتاب الرواة عن مالك عن ابن عمر عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: يتبعونه حق اتباعه.

(2)

تفسير بيان السعادة 1: 141 نسب الى الباقر (عليه السلام) انه قال: يتلون آياته و يتفقهون فيه و يعملون بأحكامه و يرجون وعده و يخافون وعيده و يعتبرون بقصصه و يأتمرون بأوامره و ينتهون بنواهيه، ما هو و اللّه حفظ آياته و درس حروفه و تلاوة سوره، و درس أعشاره و أخماسه، حفظوا حروفه و أضاعوا حدوده، انما هو ... قال اللّه تعالى: كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، فالذين آتاهم الكتاب و شرفهم بذلك يحزنهم ترك الرعاية، و القصور و التقصير في مراعاته، و الذين آتاهم الشيطان الكتاب أو أخذوه من الآباء بحسب ما اعتادوه او تلفقوه من الرجال بحسب ما تدارسوه فإنهم يعجبهم حفظ الرواية و لا يبالون بترك الرعاية.

و في ارشاد الديلمي عن الصادق (عليه السلام) مثله باختلاف يسير

، مثل «يرتلون» بدلا عن «يتلون» و ليس فيه ذيله من قال اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 117

تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ‏ 123.

ذلك هو الهتاف الأخير ببني إسرائيل بعد طويل المجابهة في الحجاج على طول اللجاج، و هم على أبواب الإهمال و الإغفال و التدجيل و الإدغال، متورطين في التجرد النهائي عن شرف الأمانة العظمى بالنسبة للرسالة الأخيرة الكبرى.

يذكّرهم هنا مرة أخرى ب «نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ» بشرف الرسالات و الكتابات الإسرائيلية.

ثم و يحذّرهم‏ «يَوْماً لا تَجْزِي» و تكفي‏ «نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً» على الإطلاق في نفس او شي‏ء سواها.

«وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ» بديل‏ «وَ لا شَفاعَةٌ» ككفيل‏ «وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ» بعد هذا المثلث السليب بايّ من الأساليب، فلا كافى و لا عدل و لا شفاعة و لا نصرة، إلا كفاية الإيمان، و عدل عمل الإيمان، و شفاعة الصالحات إيمانا و عملا، و نصرة اللّه- إذا- فيما يتبقّى من لمم و عصيانات.

[سورة البقرة (2): الآيات 124 الى 141]

وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى‏ عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)

رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (131) وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134) وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (138)

قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (141)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 120

قطاعات من هذه السورة مضت بشأن الجدال مع أهل الكتاب، أكثرها مع بني إسرائيل، منذ موسى إلى محمد عليهما السلام، بإشارات إلى المشركين بما يلتقون فيها مع أهل الكتابين.

و في هذه الآيات رجعة الى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى (ع) إلى ابراهيم (ع) فإنه الأصل الذي يتبنّاه أهل الكتابين فيما يدعون، كما و أن قريشا كانوا إليه يرجعون، فهو المحور المرجع لذلك المثلث الكتابي و الشركي،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 121

فأحرى أن يرجع إليه إصلاحا لما أفسدوا زعم الانتساب اليه في شرعتهم و طقوسهم.

هنا يبدأ بشريطة الإمامة الابراهيمية، و هي الابتلاء العظيم، إمامة لها شروطها و ظروفها الخاصة كنبراس شامل لإمامة الرسالة و رسالة الإمامة على طول الخط.

ذلك- و ليعلم بنو إسرائيل، ألّا يرثوا الإمامة من إبراهيم كسائر الميراث الذي لا شرط فيه إلا قرابة الدم و اللحم على شروطها، فانما هي على شرط التوفية الشاملة لكل الابتلاءات الربانية و ترك المظالم كلها مهما لم يكن من ذريته، أم كان منهم من إسرائيل، ام كان من بني إسماعيل حين تنقرض شروطات الإمامة في بني إسرائيل:

وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ‏ 124.

«ابراهيم» مذكورة في سائر القرآن (69) مرة في (25) سورة و هي لغة سريانية قد تعني أب الجماعة الكثيرة و قد قرأت بأشكال تسعة «1» أثبتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و الثمانية الأخرى هي: «إبراهام- إبرهم- ابرهم- ابراهم- ابراهم- ابراهم- ابرهوم» و الظاهر ان هذه كلها الا لفظ القرآن سريانية أم عبرانية، و المعربة الصحيحة هي «إبراهيم»، و قد فسرت بتفاسير عدة ك «أب رحيم» برى‏ء من الأصنام هام الى ربه- الشديد النظر- و الأولان بعيدان لأنها سريانية لا نفسّر بتجزئات عربية، رغم ان ذلك خلاف التجزئة أيضا، فأين أب من أب و اين راهيم من رحيم! مهما عنت الأب الرحيم من غير هذا التحليل، و قد يعني الأب العالي كما في قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست، يعني أب الجماعة الكثيرة (التكوين 17- 4 و 5):

«أما أنا فهوذا عهدي معك و تكون أيا لجمهور من الأمم 4 فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أيا لجمهور من الأمم 5 و اثمرك كثيرا جدا و أجعلك أمما».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 122

و أضبطها «إبراهيم» حسب متواتر القرآن.

و لماذا هنا «إِبْراهِيمَ رَبُّهُ» تقديما للمفعول و هو مفضول؟ علّه اختصاصا له بذلك الابتلاء، ام و لان «ربه» لا مجال له ادبيا لو لا تأخيره إلّا تحريرا له ك «ابتلى رب ابراهيم إياه» فنقصان في ادب اللفظ، ام «ابتلى رب العالمين- او- الله- ابراهيم» فنقصان في حدب المعنى حيث القصد بيان ربوبية خاصة في ذلك الابتلاء.

و هنا ابتلاء رباني خاص لإبراهيم الخليل يبتليه به ربه في أخريات حياته كما تلمح له‏ «مِنْ ذُرِّيَّتِي» فقد كانت له ذرية بعد الإياس: «قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى‏ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ» (15: 55) فلما وهب له ذريته قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ» (14: 41).

ثم و من أهم الكلمات التي ابتلي بها فأتمها بعد نفس الإمامة هي قصة ذبح إسماعيل و هو بكر ذريته: «قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى‏ فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ‏ ... إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ» (37: 106) «1».

إذا فقد كان ابتلاءه بكلمات فأتمهن، و كان ذلك في أخريات حياته النيرة، مهما شملت «كلمات» طول حياته النيرة التي كانت كلها ابتلاءات بكلمات مهما كانت درجات‏ «مِنْ ذُرِّيَّتِي» تشمل ذريته من إسماعيل كما من إسحاق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و هنا نعرف ان «أب» في السريانية هو الأب و «راهم» هو جمهور الأمم.

(1). و من ذلك ابتلاءه بابيه آزر و نمرود و سائر المشركين، و من أبرز بلاءه هنا إلقاءه في النار و قول جبريل له: أ لك حاجة و جوابه: أما إليك فلا، و علّ فوقه بلاء ابتلاءه بذبح اسماعيله (عليهما السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 123

و الابتلاء الرباني هو الامتحان الاختبار ليظهر بإتمامه مكنون اللباقة و الياقة، إما للمبتلي و المبتلى أمامه كما في الخلق، أم دون الاوّل كما للخالق فانه يعلم السر و أخفى، و قد يكون الابتلاء من خلفيات اعتداء الناس قضية إيمانك او سواه، او من نتائج تخلفك عن شرعة اللّه.

ثم و ليس الابتلاء الرباني الايماني إلّا في أمور صعبة ملتوية معقدة، لا يسطع لها إلّا الأشداء الأقوياء، و يسقط دونها الضعفاء.

و إذا كان المبتلي هو الرب فالبلية هي الأشد حسب مختلف الأهداف منها بدرجاتها، و لأن الإمامة الرسالية هي القمة المرموقة من درجات الكمال، فالابتلاء الهادف إليها، المحضّر لها، هي أصعب البليات و أنسبها لهذه الدرجة العليا.

و هنا «ربه» دون «رب العالمين» أمّا شابه، مما تلمح صارحة صارخة أن هذه البلية بكلمات هي بلية ربانية كما تناسب الساحة الإبراهيمية و سماحتها و كما يسطع له و يليق به دونما إطاقة تزيل الطاقة.

و هي مناسبة لتلك الإمامة الخاصة التي هي فوق الرسالة و النبوة حيث جعلت له بعدهما.

أ ترى- إذا- ما هي الكلمات؟ أ هي- فقط- كلمات لفظية حمّلت عليه ليقولها؟ و ليست فيها تكلّفات و بليات! فكثير هؤلاء الذين يكثرون من كلمات طائلة- أية كلمات- و ليس لهم فيها ابتلاء، و لا هم آهلون لمعانيها و مغازيها، و لا أنهم مطبقوها! ثم التلفظ بهذه الكلمات ليس إتماما لها: «فأتمهن» بل هو «قالهن» أمّا شابه.

أم هي- فقط- أعمال شاقة لا يسطع لها إلّا أقوياء بالإيمان؟ و صحيح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 124

التعبير عنها و فصيحه هو «الأعمال» أو «الصالحات» أما شابه دون «كلمات»!.

علّها هي كلمات اللّه التشريعية: الآمرة و الناهية، الخاصة بموقف الابتلاء الإبراهيمي، التي يخلّف إتمامها الإمامة بإذن اللّه؟ و لكن «فأتمهن» بضمير جمع العاقل قد لا تناسبها!.

ام هي- فقط- تطبيق هذه الكلمات بما فيها تحمل الإمامة و ذبح إسماعيل فتحقق ضمير العاقل؟ اضافة الى مواد عاقلة في سائر ابتلاءه فانها من منتوجات كمال العقل و اللب.

قد تعني «كلمات» هنا كلا الأمرين الأمرين، فاستماع تلك الكلمات التشريعية و لا سيما شرعة الإمامة، الحصيلة عن سائر الكلمات، إنه ابتلاء، و تقبلّها دون تعنّت و سؤال ابتلاء، و تطبيقها ابتلاء، كما و قصة أمره بذبح إسماعيل‏ «إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ» تشمل مثلث الابتلاء، الذي لا يخلد بخلد اي مبتلى.

فإبراهيم: كلمة اللّه، توجهت إليه كلمة اللّه- و هي أمر اللّه- أن يذبح إسماعيل كلمة اللّه، و ذبحه هو كلمة اللّه، الدالة على قمة التسليم للّه، كما و تحمل الإمامة من عليا هذه الكلمات، و هنا «فأتمهن» لائقة بهذه الكلمات، فقد أتم استماع الأمر، و الايمان به، و التسليم له، ثم و تطبيقه.

ذلك! كما و من الكلمات كلمات اللّه العليا الأربعة عشر المحمديون «أتمهن» إلى القائم اثنا عشر إماما تسعة من ولد الحسين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 120 في الخصال عن المفضل بن عمر عن الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: سألته عن الآية ما هذه الكلمات؟ قال: التي تلقاها آدم من ربه فتاب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 125

و الإتمام في ميزان اللّه- إن صح التعبير- هو إله الإتمام، الذي ليس فوقه إتمام.

إذا فكل الابتلاءات الإبراهيمية طول حياته النيرة تشمله «كلمات» و هي الدالات على العناية القمة التربوية الربانية فيما أمره ربه و نهاه، و الدالات على قمة التسليم قلبيا إذ سلم له، و الدالات على تمام التسليم و كما له إذ طبقها، و «أتمهن» هنا كما تعني أن اللّه أتم هذه الكلمات في ابراهيم تأييدا و تسديدا، كذلك تعني أن ابراهيم أتمهن حسب الطاقة البشرية مزودة بعصمة ربانية، و يقابله تركهن، أو انتقصهن، لا! بل «أتمهن» كما أراده اللّه منه، و أتمهن اللّه تتميما لناقص الإرادة البشرية بعصمة إلهية.

قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً.

هنا «قال» دون «فقال»: تفريعا للإمامة على إتمام الكلمات، لأن إتمامها ليس إلا ظرفا صالحا لجعل الإمامة، لا نتيجة ضرورية مفرّعة عليه، أم و لأن من هذه الكلمات هي كلمات جعل الإمامة: «إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً»- و منها قوله: و من ذريتي، ثم جوابه: «قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

فإن الإمامة و لا سيما هذه الكبرى ابتلاء عظيم بمسئوليتها الكبرى، ثقيلة على من يحملها، عظيم حملها بحملها، و لكن ابراهيم (ع) أتمها و أتى بها كما أريد منه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليه و هو انه قال: يا رب اسألك بحق محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين الا تبت على فتاب اللّه عليه أنه هو التواب الرحيم، فقلت له يا ابن رسول اللّه فما يعني عز و جل بقوله فأتمهن؟ قال: أتمهن إلى القائم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 126

ثم‏ «إِنِّي جاعِلُكَ ...» مما يدل على انحصار جعل الإمامة باللّه، و انحساره عمن سواه، و «جاعلك إماما ...» حيث اسم الفاعل عامل في مفعوليه هنا، دليل انه جعل في الحال، حيث الفاعل الماضي لا يعمل، و اما الاستقبال فهو مجاز يحتاج إلى دليل و صدق المشتق بمادته ليس إلّا بصادق واقعها في الحال.

و الإمامة بإطلاقها هي القيادة الحقة كما هنا او الباطلة كما «جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» و ليس المعني منها في ذلك الجعل ما دون العصمة من القيادة فان ابراهيم معصوم حينه بأعلى درجات النبوة، و ان اللّه لا يجعل قيادة روحية بانتصاب لمن هو دون العصمة، فانه قد يخطأ او يقصّر او يقصر، فكيف يأتمنه اللّه على قيادته للناس؟!.

بل و ليست هذه الإمامة هنا هي الرسالة او النبوة، فإنهما مجعولتان له ماضيتان، و نفس‏ «إِنِّي جاعِلُكَ» وحيا دليل على حاضر الوحي رسالة و نبوة، فكيف يجعله صاحب وحي و هو رسول، كما و هو الآن في مختتم عمره و قد آتاه اللّه الحكم و النبوة في شبابه: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (26: 83)- «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا. إِذْ قالَ لِأَبِيهِ» (19: 41) و ذلك حين كان فتى و هو يحارب الآلهة المزيفة و عبّادها:

«فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا» (49).

فلأن الإمامة هنا هي بعد كامل العبودية و النبوءة و الرسالة و النبوّة و الخلقة «1» حيث تخطّاها إلى القمة مرحليا كلّا تلو الأخرى، إذا فهي الإمامة بين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 149 عن الكافي بسند متصل عن زيد الشحام قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ان اللّه تبارك و تعالى اتخذ ابراهيم عبدا قبل ان يتخذه نبيا و ان اللّه اتخذه نبيا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 127

المرسلين دون سائر الناس فحسب، حيث الإمامة الرسالية على الناس كانت له سابقة، فلتكن الإمامة الحاصلة بعد إتمام كلماتها هي الإمامة على المرسلين كما هم على سائر الناس.

فكل رسول- غير اولي العزم الذين دارت عليهم الرحى- هو إمام أمته، و ولي العزم فوقه هو إمامه، مهما كان في زمنه أم يأتي بعده، فقد جعل اللّه كلّا من اولي العزم إماما لسائر الرسل و النبيين.

فموسى إمام و كتابه إمام، و طبعا لكافة الرسل الإسرائيليين إلّا المسيح (ع): «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً ...» (11: 17).

ثم الرسل الإسرائيليون بين الإمامين: موسى و المسيح، هم كذلك أئمة لمن دونهما: «وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ. وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» (21: 73) «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ. وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ» (33: 24).

و هنا مرتبة ثالثة من الإمامة الرسالية تحلّق على ولاية العزم و ما دونها من رسالات هي الإمامة المحمدية السامية، المنقطعة النظير بين ملاء العالمين، من الملائكة و الجنة و الناس أجمعين، كما يبيّنها هكذا أمثال قوله تعالى:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قبل ان يتخذه رسولا و ان الله اتخذه رسولا قبل ان يتخذه خليلا و ان الله اتخذه خليلا قبل ان يتخذه إماما، فلما جمع له الأشياء قال: «إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً» قال: فمن عظمها في عين إبراهيم‏ «قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» قال: لا يكون السفيه إمام التقي.

أقول: «نبيا» هنا تؤول الى النبوءة فبعدها الرسالة ثم لم يذكر النبوة بعدها اكتفاء بالخلة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 128

«وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

محمد (ص) اضافة إلى أنه إمام سائر المكلفين، كذلك هو إمام المرسلين و النبيين، و إمام على اولي العزم من الرسل نوح و ابراهيم و موسى و عيسى، كما و هو امام على الأئمة الإثني عشر من عترته المعصومين سلام اللّه عليهم أجمعين، و امام على كافة الكروبيين.

«إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً» تعني الإمامة الوسطى، دون العليا المحمدية، و لا الدنيا الرسالية لغير من دارت عليه الرحى من الرسل.

اجل! و إنها لا تعني أية إمامة رسالية بدرجاتها، لكي تطرد رسالة آدم (ع) إذ ظلم بما أكل من الشجرة فغوى‏ «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» يعني عهد الإمامة الوسطى كما لإبراهيم، و باحرى العليا كما لمحمد (ص) دون سائر الإمامات في سائر الرسالات و أدناها رسالة آدم و قد «عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 121).

ف «عهدي» هنا هو ذلك العهد الخاص، دون أي عهد كان، فعهد الفطرة الإنسانية- المعبر عنها بفطرت اللّه- يناله كل إنسان، و عهد العقلية الإنسانية يناله كل عاقل، و عهد الشرعة الإلهية يناله كل مؤمن، و عهد الرسالة الإلهية لا يناله إلّا المصطفون مهما سبق لهم ظلم مّا كآدم، ثم عهد الإمامة بين المرسلين لا ينال الظالمين، مهما كان ظلما سابقا مغفورا.

و حتى إذا عنت «عهدي» كل إمامة في مثلها- شاملة لرسالة آدم- لم تكن «الظالمين» تعم ماضية الحال، بل هي حسب الوضع و الاستعمال تعني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 129

الحال و الاستقبال، فليكن من يجعل إماما غير ظالم حال جعله و حتى آخر عمره.

أ ترى آدم الذي ظلم بما عصى‏ «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» هل هو طي هذه المراحل تشمله «الظالمين» وصفا ماضيا بدّل إلى تمام العدل و الاصطفاء؟!.

إذا فلتشمل «المشركون» كل الموحدين الذين كانوا مشركين، ثم آمنوا و أصبحوا من المقربين كسلمان أمن شابهه من أفاضل المؤمنين.

و كما «الظالمين» حالا عند جعل الإمامة خارج عن «عهدي» كذلك «الظالمين» استقبالا، بمناسبة العهد الخاص الرباني الواجب ذكره على اية حال.

بل و كذلك «الظالمين» ماضيا حين يكون فاحشا كالشرك، ام أيا كان حين تكون الإمامة المطلقة التي تقتضي الاصطفاء المطلق بين ملإ العالمين.

فكما لا ينال عهد الإمامة الوسطى مثل آدم عليه السلام على عصمته حين اصطفاءه بالرسالة، فبأحرى ألا ينال أمثال الخلفاء الثلاث، أن يحملوا الإمامة القمة عن الرسول (ص).

فالإمامة التي هي عهد خاص رباني هي القيادة الروحية، مهما حملت- واقعيا كما هو شرعيا- القيادة الزمنية.

فمهما عنون الخلفاء الثلاث ثم الائمة الرابع بعنوان الإمام، فهم ليسوا أئمة يحملون شرعة اللّه بذلك الانتصاب الخاص بعهد خاص.

ثم «عهدي» هنا- و إن على القدر المتيقن- هو عهد الامامة الإبراهيمية و هي بعد المحمدية فضلا عنها، و «الظالمين» بعد «فأتمهن» هم المنتقصون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 130

الكلمات المبتلى بها، و لان الابتلاء لإبراهيم بتلك الكلمات يحلق على كل حياته، فإتمامها كذلك حذو النعل بالنعل.

فكل من انتقص كلمة من هذه الكلمات طيلة حياته، انتقاصا في عدّتها ام عدّتها، في مادتها ام هيئتها، فقد يعد من «الظالمين» الذين لا ينالهم «عهدي» هذا.

و من أشر الانتقاص هو الإشراك باللّه، فكيف يجعل إماما- بهكذا إمامة أم فوقها و هي المحمدية- من عبد وثنا ردحا عظيما من عمره.

فمهما لم تدل «الظالمين» على الماضي، إلّا الانتقاص في تلكم الكلمات المحلّقة على مثلث الزمان، يمنع منعا باتا عن جعل تلك الامامة الكبرى.

و لم تقل «ينال عهدي العادلون» لأن العدل مهما كان ظرفا لتأهل الإمامة لم تكن لزامه الإمامة، فقد اكتفى بالشرط السلبي و هو عدم انتقاص الكلمات في مثلث ازمنة الحياة، حيث يراد هذه الإمامة الخاصة.

إذا فكيف يحل الإمامة المحمدية و هي المطلقة القمة، من عبد وثقنا فيما مضى، لا و حتى آدم الذي عصى ربه فغوى، و لا ذا النون إذ ذهب مغاضبا ...

فنادى في الظلمات‏ «إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» و لا موسى‏ «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي» فضلا عن الخلفاء الثلاث الذي لا يسوون شسع آدم عليه السلام!.

ثم‏ «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» لا يستلزم انه يناله غير الظالمين بصورة مطلقة، و انما هو سلب لأهلية هذه الامامة عن الظالمين، لا و اثبات للزوم الإمامة لغيرهم، فهم إذا من هو كإبراهيم ام فوقه، و قد تحققت الامامة فوق الإبراهيمية لمحمد (ص) و عترته المعصومين اللّهم إلّا لفاطمة (ع) حيث اكتفي بعصمتها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 131

فإنما

«أبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة فصارت في الصفوة» «1»

و هم المصطفون حين جعل الإمامة حتى الموت، مهما زادت الصفوة العليا صفوة في ماضيها، كما في حالها و استقبالها بأدلة أخرى.

أجل قد يمنع الظلم الماضي من عهد الإمامة إذا كان من كبائر الإثم و الفواحش و من أكبرها و أفحشها الإشراك باللّه مهما كان مغفورا بالإيمان، و لكنه ليس مغفورا لمنصب الإمامة، فان الاصطفاء، و قاعدة إمكان الأشراف، يمنعان انتصاب من كان مشركا لمنصب الإمامة، مهما أصبح من أعدل العدول، كما و الغضاضة الشركية السابقة تمنع المأمومين على الائتمام بذلك الإمام، مهما صحت الصلاة خلفه، و صح قضاءه و شهادته أمّا ذا سوى القيادة الروحية العليا و هي إمامة الأمة «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 150 عن الكافي بسند متصل عن عبد العزيز بن مسلم في حديث فضل الامامة قال: كنا مع الرضا (عليه السلام) بمرو- الى ان قال (عليه السلام):- ان الامامة اجل قدرا و أعظم شأنا و أعلى مكانا و امنع جانبا و ابعد غورا من ان يبلغها الناس بعقولهم او ينالوها بآرائهم و يقيموا اماما باختيارهم، ان الامامة للّه عز و جل خص بها ابراهيم الخليل بعد النبوة و الخلة مرتبة ثالثة و فضيلة شرفه بها و أشاد بها ذكره فقال عز و جل‏ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً فقال الخليل مسرورا بها «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» قال اللّه تبارك و تعالى‏ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ‏ فأبطلت هذه الآية ...

(2)

روى الشيخ في اماليه بسند متصل عن عبد اللّه بن مسعود و الشافعي ابن المغازلي في المناقب على ما في تفسير اللوامع 1: 629- باسناده يرفعه اليه قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كيف صرت دعوة إبراهيم أبيك؟ قال: اوحى اللّه عز و جل الى ابراهيم‏ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً فاستخف ابراهيم الفرح فقال يا رب و من ذريتي مثلي، فأوحى اللّه عز و جل اليه ان يا ابراهيم إني لا أعطيك عهدا لا أفي لك به، قال: يا رب ما العهد الذي لا تفي به؟ قال: لا أعطيك عهدا الظالم من ذريتك، قال يا رب و من الظالم من ولدي لا ينال عهدك؟ قال: من سجد لصنم من دوني لا اجعله إماما ابدا و لا يصلح ان يكون اماما، قال ابراهيم: و اجنبي و بني ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 132

ثم‏ «وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى‏ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً» تنفي عن مثل آدم عهد الإمامة المعني ب «عهدي» فليس يكفي في ذلك العهد حاضر العدالة، بل و ماضيها كما في حاضرها، حتى تحل في ظرف ظريف طريف حفيف في مثلث الزمان لكل أبعاد العدالة.

مطلق الإمامة الشامل لإمامة الجماعة و إمامة القضاء و إمامة التقليد، لا يقتضي هذه المرتبة القمة من الاصطفاء، و لا تعني الإمامة في الآية مطلقها الشامل لها، بل هي الإمامة المطلقة لمكان «للناس» دون اختصاص بحقل او ناس خاص، كما و أنها فيها بعد الرسالة و النبوة.

فمن يحمل قيادة الأمة الاسلامية ككلّ بعد إمام الائمة محمد (ص) ليس إلّا من أصفى الأصفياء كما محمد (ص) في قمتهم علي الإطلاق، فكيف يصح أن تشمل هذه الإمامة من عبد صنما، كما و «إِنِّي جاعِلُكَ» تختص جعل ذلك العهد باللّه، و الخلفاء الثلاث بعد الرسول لم يكونوا منتصبين من قبل اللّه، و لا هم أصفياء الامة ككل، بإجماع الامة الإسلامية ككل!.

ثم النسبة بين هذه الإمامة و النبوة عموم من وجه، فقد يكون نبيا و ليس هكذا إماما، كآدم و من فوقه من غير اولي العزم، أم يكون إماما و ليس نبيا و لا رسولا، كالائمة الإثني عشر المحمديين، ام هو إمام و نبي كالخمسة أولي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس، و من ثم قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فانتهت الدعوة إلي والى اخي علي (عليه السلام) لم يسجد أحد منا لصنم قط فاتخذني اللّه نبيا و عليا وصيا (تفسير البرهان 1: 151).

و

ممن أخرجه عن ابن مسعود المير محمد صالح الترمذي الكشفي في مناقب مرتضوي ص 41، روى عن الحميدي عن عبد اللّه بن مسعود عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما ترجمه انه قال: ان دعوة ابراهيم الإمامة لذريته لا تصل إلّا لمن لم يسجد لصنم قط و من ثم جعلني اللّه نبيا و عليا وصيا لي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 133

العزم، ام هو إمام الأنبياء و الائمة ككل و هو محمد (ص).

و لان أئمة اهل البيت عليهم السلام يحملون الإمامة فهم أفضل من سائر اولي العزم عليهم السلام و قد تدل على ذلك آية التطهير و ما أشبه.

و ترى الخليل تطلّب من ربه الإمامة المجعولة له للبعض من ذريته:

«وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي»؟ علّها هي إمامة مطلقة لا مطلق الإمامة كما و انها قضية الموقف:

«إِنِّي جاعِلُكَ ...» إذا «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» تجتث كل دركات الظلم، ناحية منحى كل درجات العدل في حياة الإمام كلها، و ذلك منطبق على أئمة المرسلين بعده: موسى و المسيح و محمد عليهم السلام، أمّن حذى حذوهم من أئمة الإسلام المعصومين، فلا تشمل- و لأقل تقدير- مثل آدم، الذي عصى ربه قبل رسالته فغوى، مهما اجتباه ربه- بعده- فتاب عليه و هدى.

و من ميّزات هذه الإمامة أن ليس يختص وحيها بالعلوم و المعارف بل و فعل الخيرات، كما و الهداية بأمر اللّه تكوينيا و تشريعيا، فكما هم مهتدون بأمر اللّه فيهما، كذلك هم هادون بأمر اللّه فيهما، و هم عاملون الخيرات بوحي اللّه:

«وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» (21: 73).

و إطلاق القول‏ «وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» ضاربا الى كل أبعاد الماضي- و هي قبل الإمامة- ذلك الإطلاق يخرج كمثل آدم عليه السلام.

و في رجعة أخرى إلى آية الابتلاء

: «و» اذكر يا إمام أئمة الهدى، الرسول المصطفى، «اذكر» ذكرى من ابراهيم الخليل (ع) كأفضل مثل من أمثولات الإمامة بالابتلاء، و لكي تكون على أهبة لابتلاء أشد و أقوى لإمامة هي أشمل و أنبل و أعلى، اذكر «إِذِ ابْتَلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 134

إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ ...» فربك يبتليك بكلمات و يجعلك للناس إماما على العالمين أجمع- كما جعله.!.

«فأتمهن» ابراهيم و «أتمهن» ربه، و أين إتمام من إتمام، و كذلك اللّه يتم لك و تتمه أنت، و اين كلمات من كلمات.

«قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً» و قد جعلت أنت إماما على النبيين‏ «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ ...».

«قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» و كما قال موسى‏ «وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي» و لكن اللّه جعل لك من ذريتك أئمة يحملون أمانة إمامتك ككل و كما يبدو من آية التطهير، الجاعلة طهارتك القمة لأهل بيت رسالتك القدسية و هم الائمة الإثني عشر عليهم السلام.

و قد تعني «بكلمات» قسما منها يناسب الإمامة الإبراهيمية، و لمحمد (ص) كل الكلمات لأن إمامته هي كل الإمامات: «فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ» (7: 158) ايمانا علميا و عقيديا و عمليّا في كل الحقول المعرفية و العملية، دون إبقاء لكلمة يبتلى بها إلّا و أتمها كأتمّها حتى نال الإمامة الكبرى.

و لئن نال الخليل مرتبة الإمامة بعد العبودية و الرسالة و النبوة و الخلة كما تناسب إمامته، فقد نال الحبيب الإمامة الكبرى بعد أن أصبح اوّل العابدين:

«قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ» ثم أصبح آخر النبيين و رسولا إليهم أجمعين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ ...» ثم حبيبا لرب العالمين لحد يحلف بعمره ربّه‏ «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (15: 72) كما و يحلف بنفسه‏ «فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ...» (4: 65).

و ترى الخليل- بعد- يتطلب من ربه إمامته للبعض من ذريته دون شرط

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 135

إلّا انهم من ذريته؟ و ذلك بعيد عن مقام الخليل أمام ربه الجليل، و قد ابتلي هو نفسه بكلمات، فكيف يدعو لذريته دون ابتلاء!.

«وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» ليست لتتعلق- فقط- ب «إِنِّي جاعِلُكَ ...» بل و قبلها ب «ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ» إذا فلدعاءه بعدان اثنان، أن يبتلي ربه من ذريته- كما هو- بكلمات، ثم يجعله بإتمامهن إماما، فأضاف ربه إليهما بعدا ثالثا «قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» فلا يصلح الظالم أن يبتلي بكلمات تلك الإمامة حتى يجعل إماما.

و ترى ابراهيم الخليل (ع) هو بعد كأضرابه من النبيين، حكمت عليه رغبة امتداد الإمامة في ذريته فسألها لهم ربه؟ و لا وراثة فيها، و لا تقدم لها فيهم لأنهم- فقط- ذرية!.

نقول هنا: إضافة إلى أن امتداد الشخصية- زمنية او روحية أما هيه؟- هو رغبة فطرية، أودعها اللّه في فطرت الإنسان، تنمية للحياة، و مضيا في طريقها المرسوم، و قد قرر الإسلام على أساسه شرعة الميراث و سائر الإختصاص في حقل التربية مادية و معنوية: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»- «قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً» نقول إضافة إلى ذلك إنه استدعاء بشروط، دونما فوضى جزاف، و دون سلب لغير ذريته، و من ثم فدعاءه- كسائر فعله- إنما هو بإذن ربه و دعاءه- قضية التسليم المطلق لساحة الربوبية و قد عرف وحيا من ربه ان من ذريته من إسماعيل من يأهل لتلك الإمامة.

و كما في دعاءه‏ «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ...»

(2: 128) و ما البعد الثالث لتحقيق ذلك الدعاء: «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» إلّا توضيحا لسائر الأجيال في هذه الإذاعة القرآنية العالمية، و ليس تفهيما لإبراهيم، العارف شروطات تلك الإمامة الكبرى كما لمسها في نفسه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 136

فطالما يدعو ابراهيم إمامته للبعض من ذريته، و لكنه يشترط شرط إتمام نفس الكلمات، مما لا يحصره في ذريته، اللّهم إلّا بما أوحى إليه ربه، ألّا يصلح لشروطاتها إلّا بعض من ذريته كمحمد و عترته المعصومين عليهم السلام أجمعين.

و هنا «من ذريتي» لا تعني إلّا البعض منهم، و هم بين عادل و ظالم، فتراه أراد الظالمين منهم فقط ترجيحا للمفضول على الفاضل! ام عنى الفريقين؟

و «من» تبعض! فهو- إذا- يعنى العدول منهم- و لأقل تقدير- حالة الإمامة، و «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» أخرجت كل ظالم منتقص كلمات الابتلاء، ماضيا او مستقبلا فضلا عن الحال، فلم يشمل عهد الامامة كل العدول حال الجعل، بل هم العدول في مثلث الزمان لقمة العدالة و هي عدم الانتقاص في الكلمات المبتلى بها هكذا إمام.

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (125).

«البيت» هنا هو البيت العتيق: الكعبة المشرفة، و الجعل هنا تشريفي تشريعي، و واقعي تكويني، في مثابته و أمنه، فما هي «مثابة» و ما هو «أمنا».

«مثابة» هي في الأصل المثوبة اسم لمكان «البيت» ام و مصدرا ميميا، ام و على هامشهما اسم زمان، فان لإتيانه حجا زمان خاص، و التاء للمبالغة، فالبيت مصدر لكل صادر بكل معاني «مثابة» كما هو ملجأ لكل حائر سادر، فهو «مثابة» مصدرا و زمانا و مكانا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 137

و لقد أتت «مثابة» في مختلف المناسبات لمعان عدة، فلا تختص بواحدة دون أخرى، و قضية الإفصاح البليغ في مذهب الفصاحة البالغة، ان يؤتى باللفظ قدر المعنى المرام، لا زائدا على المعنى و لا ناقصا عنه، و خرافة استحالة استعمال لفظ واحد في اكثر من معنى واحد تنحل في ألفاظ الكتاب و السنة بأن للقائل مقام جمع الجمع فلا مشكلة له في هكذا استعمال جامع بين شتات، و ذلك من اختصاصات الكتاب و السنة، اختصارا في التعبير، و عناية للمعنى الكثير.

كما و تنحل في اصطلاح من يقوم لما يستعمله من ألفاظ كل المعاني الصالحة في اللغة، دون حاجة الى لحاظها ردف بعض حتى يحيله قوله تعالى‏ «ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ».

فمختلف التفسير لمثابة مختلف عن تفسيرها المعني منها دون أية حجة لواحد من معانيها، و هي:

1 المقام- 2 المرجع- 3 المجتمع- 4 الممتلئ- 5 الملجأ- 6 الماتي متواترا- 7 المقبل- 8 المتاب- 9 محل الثواب- 10 المنتبه- 11 المستقى- 12 مجتمع الماء ...

و بضرب مثلث الصيغة من «مثابة» إلى المعاني الإثني عشر تصبح معانيها المعنية ستة و ثلاثين مهما اختلفت عنايتها في درجات، و اين هي من معنى واحد لا دليل له، و هو في نفس الوقت خلاف الفصيح بل و غير صحيح!.

اجل إنه 1 مقام الإسلام و منطلقه، و مقام المسلمين بكل انطلاقاتهم الحيوية السامية.

2 و مرجعهم حيث يرجعون اليه في مشاكلهم الروحية و الجماعية أماهيه؟

«لا يقضون منه وطرا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

يروى عن باقر العلوم (عليه السلام) تفسيرا لمثابة: يرجعون اليه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 138

3 و مجتمعهم‏ «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى‏ ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ ...» اجتماعا عن كل التفرّقات و التفرقات.

4 و ممتلئ مجدهم بجمعه الحافل الكافل لحل كل المشاكل بتشاور و تحاور ملي‏ء بما يغنيهم.

5 و ملجؤهم في مخاوفهم عن مفازاتهم في سياساتهم الزمنية و الروحية، و سائر حاجياتهم الحيوية.

6 يأتونه متواترا في حجهم و عمرتهم دونما انقطاع، قطاعات عظيمة من مختلف الألسن و الألوان من مشارق الأرض و مغاربها، من كل فج عميق.

7 مقبلين اليه زيارة له، و استقبالا في صلواتهم و سائر عباداتهم، استقبالا لقبلته الواحدة.

8 و متابهم عن ذنوبهم فردية و جماعية، فإنهم فيه من ضيوف الرحمن و حاشاه ان يرجعهم خائبين!.

9 و محل ثوابهم إذ يثيبهم اللّه بزيارته حقها كما وعد عباده الثائبين اليه التائبين.

10 و منتبها لهم عن كل غفلاتهم و غفواتهم، و ليشعروا ماذا عليهم في مسئولياتهم الإسلامية الهامة.

11 و مستقى لهم من تروية ماء الحياة في كل حقولها الروحية و المادية، من مشارف بئره العظيم، بدلاء التضامن و التعاضد الأخوي الاسلامي.

12 و مجتمع مياه الحياة في كافة الجنبات: العلمية- العقيدية- الأخلاقية- العبادية- الاقتصادية- السياسية و العسكرية أماهيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 139

ذلك هو كيان جعل البيت في الإساس، يجمعها «قِياماً لِلنَّاسِ»: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» (5: 97) و مباركا و هدى للعالمين: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً ...» (3: 16).

و «الناس» كل الناس هم المحور الإساس في مثابة البيت و أمنه و القيام فيه و بركته و هداه، مما يلمح أن الحج فريضة إنسانية تصلح الحيوية الجماهيرية.

«و أمنا» هنا دون «آمنا» كما ل «مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» مما يدل على خالص الأمن و السلام فيه، أمنا في شرعة اللّه اكثر من كل بيت، و أمنا واقعيا ليس في ايّ بيت، مهما يوجد فيه خلاف الأمن من متخلفين، و لكنه اقل بكثير من غيره على طول الخط.

و البيت هنا «مثابة و أمنا» لا يخص الكعبة المباركة- مهما كانت هي الأصل فيهما- بل و المسجد الحرام و الحرم كله كما «هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ» و «حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» «اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» تشهد على هذه الشمولية.

ثم‏ «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» تأمر الحجاج و المعتمرين- الطائفين و العاكفين و الركع السجود- تأمرهم ان يتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى أمرا تشريعيا بعد أمنه تكوينا و تشريعا، فما هو مقامه المأمور باتخاذ مصلّى منه؟.

يأتي مقام ابراهيم في ثانية: «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ» (3: 97) مما تلمح- بين معانيها- و تلمع ان‏ «آياتٌ بَيِّناتٌ» كلها مقام ابراهيم، و قد ذكرنا في مسرحها اثنتي عشرة آية، من أبرزها- المعروف بينها عند الكل- هو مقام ابراهيم- موضع قدمه من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن، إذ أثرت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 140

قدمه المباركة حين كان يرفع القواعد من البيت، و حين أذن في الناس بالحج‏ «1».

ذلك الحجر نزل في مثلث الحجر- كما يروى- من الجنة «2» و كما لمقام ابراهيم أبعاد، كذلك اتخاذ مصلّى منه له أبعاد، أوسعها مقام البيت ككل، فانه مصلّى لكافة المصلين في هذه المعمورة و سواها، مصلّى واسع ابتداء من البيت نفسه و إلى كل أنحاء العالم.

ثم في مقام الحجر فان الصلاة فيه مفضلة على غيره من كل أنحاء البيت، ثم المسجد الحرام كله، ثم مكة كلها، ثم الحرم كله، ثم المشاعر كلها، فانها كلها مقام ابراهيم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في حسنة ابن سنان او صحيحه- على الأصح- قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ» ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام ابراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، و الحجر الأسود و منزل إسماعيل.

و

في الدر المنثور 1: 118- اخرج ابن ماجة و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن جابر قال: لما وقف رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يوم فتح مكة عند مقام ابراهيم قال له عمر يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هذا مقام ابراهيم الذي قال اللّه: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى‏ قال: نعم.

(2)

المجمع روي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال: نزلت ثلاثة أحجار من الجنة مقام ابراهيم و حجر بني إسرائيل و الحجر الأسود،

و في الدر المنثور 1: 119- اخرج الترمذي و ابن حبان و الحاكم و البيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): الركن و المقام ياقوتتان من يواقيت الجنة طمس اللّه نورهما و لو لا ذلك لأضاء ما بين المشرق و المغرب،

و اخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان الركن و المقام من ياقوت الجنة و لو لا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضائا ما بين المشرق و المغرب و ما مسهما من ذي عاهة و لا سقيم إلّا شفى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 141

و ل «من»- في‏ «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» بالنسبة لخصوص المقام- موقعها الدلالي فقهيا لهندسة «مصلى» فلم يقل «في» لأنه لا يكفي مكانا لصلاة، و لا لمصلّ واحد فضلا عن مئات الآلاف، و لا «اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» حتى يصبح كالبيت يصلّى حوله من كل الأطراف، مهما جعل البيت دبرا، و لا «الى مقام ابراهيم» و كيف يجعل خلف المصلي.

و إنما «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» فهي ابتدائية تبين مبتدء لركعتي الطواف أنه حد المقام- و طبعا حيث هو الآن و كما كان- و ليست تبعيضية فان كلّ المقام لا يسع لمصلّ واحد فضلا عن بعضه و لجموع المصلين!.

ذلك بيان ظريف لمبتدء الصلاة الخاصة- دون كل صلاة- فقد يشمل خلف المقام و جانبيه حياله، ما صدق انه‏ «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» مهما كان خلفا و حيالا بعيدا لإطلاق «من مقام» ثم المنتهى- طبعا- هو منتهى المسجد الحرام، و إن كان الأقرب منه فالأقرب أقرب في تطبيق الأمر، إلّا أن مختلف الظروف و الحالات لها مختلف الأبعاد ل «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ».

و مستفيض النقل عن الرسول (ص) و أئمة اهل بيته عليهم السلام عنه، ليس إلّا «عند المقام» و «خلف المقام» «1» و هما بيانان ل «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ»،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمما

روي في «خلف المقام» ما في الدر المنثور 1: 118- اخرج مسلم و ابن أبي داود و ابو نعيم في الحلية و البيهقي في سننه عن جابر ان النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) رمل ثلاثة أشواط و مشى أربعا حتى إذا فرغ عهد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ: و اتخذوا من مقام ابراهيم مصلى‏

و

فيه 120- اخرج الحميدي و ابن النجار عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) من طاف بالبيت سبعا و صلى خلف المقام ركعتين و شرب من ماء زمزم غفرت له ذنوبه كلها بالغة ما بلغت‏

و

فيه أخرج الأزرقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) المرء يريد الطواف بالبيت أقبل يخوض الرحمة فإذا دخله غمرته ... فإذا فرغ من طوافه فأتى قام ابراهيم فصلى ركعتين دبر المقام خرج من ذنوبه كيوم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 142

فلا يتجاوز المقام الى البيت فانه ليس «من مقام» علما أن البيت هو القبلة في المسجد الحرام، إذا ف- «من مقام» تعني الصلاة الى البيت، فكيف تتجاوز قدام المقام الى البيت؟.

و لان خلف المقام أقرب مقاما في «من مقام» الي المقام، فليقدم على جانبي المقام، و لكلّ منهما مقامات حسب مختلف المقامات.

و

لقد رأوا «أبا الحسن موسى (ع) يصلي ركعتي طواف الفريضة بحيال المقام قريبا من ظلال المسجد لكثرة الناس» «1».

و ذلك‏ «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» بعيدا عنه قضية الضرورة، مهما بعد عن «عند المقام» فضلا عن «خلف المقام» حيث المدار هو صدق «من مقام».

و هو يشمل كل أضلاع المقام سعة المسجد الحرام إلّا ضلعه القبلي، ثم و

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

ولدته امه ...

أقول: لا تجد فيما يروى عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إلّا خلف المقام او دبره.

و

في التهذيب عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ليس لأحد ان يصلي ركعتين طواف الفريضة الا خلف المقام لقول اللّه تعالى: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى‏ ان صليتهما في غيره فعليك اعادة الصلاة.

و

في الكافي 4: 423 و التذهيب 1: 485 حسنة معاوية بن عمار او صحيحته‏ «إذا فرغت من طوافك فائت مقام ابراهيم (عليه السلام) و صل ركعتين و اجعله أماما ...»

و

في التهذيب عن أبي عبد اللّه الأبزاري‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن رجل نسي ان يصلي ركعتين طواف الفريضة في الحجر؟ قال: يعيدهما خلف المقام لان اللّه يقول: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى‏ يعني بذلك ركعتي طواف الفريضة.

(1). كما

في الكافي 4: 423- في الصحيح عن الحسين بن عثمان‏ رأيت أبا الحسن موسى (عليه السلام) يصلي ...

و

في التهذيب 1: 486- «قريبا من الضلال لكثرة الناس».

و قد يشملهما «عند المقام» مع رعاية الترتيب كما

في خبر زرارة: «لا ينبغي ان يصلي ركعتي طواف الفريضة إلّا عند مقام ابراهيم» (الكافي 4: 424 و التهذيب 1: 485).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 143

«خلف المقام» يشمل كل مساحة الضلع الخلفي حتى آخر المسجد الحرام، مهما لم يشمل «عند المقام» كل السطح اليميني و اليساري.

فخلف المقام نص في جعل المقام أماما كإمام، و عند المقام يعمه و حيال المقام برجاحة الخلف، إذا فخلفه هو الاوّل ما صدق الخلف، ثم حياله ما صدق الحيال، و أجمل تعبير عنهما «من مقام».

فمن الأضلاع الاربعة للمقام يبقى الضلع المواجه للكعبة حيث لا يصح ان يتخذ مصلى إذ يستلزم استدبار الكعبة، ثم الأضلاع الثلاثة الاخرى هي بين الأحرى فالأحرى كلها «مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ» في كونها مصلّى الأقرب منها فالأقرب الى المقام حيث هو المبتدء فيها، ما صدق انه من مقام، و الخلف و الحيال البعيد عن المقام، مهما بعدا عن خلف المقام و حياله حسب النصين و لكنهما داخلان في «من مقام» حيث المنتهى هو آخر المسجد الحرام إذ لم يذكر هنا منتهى آخر، فلو كان لذكر كالمبتدء!.

و ترى إن نسي الصلاة خلف المقام حتى قضى مناسكه كلها او بعضها، عليه ان يرجع فيصلي خلف المقام؟ طبعا نعم إن أمكن‏

«يرجع إلى المقام فيصلي ركعتين» «1»

«و ان كان ارتحل فإني لا أشق عليه و لا آمره أن يرجع و لكن يصلي حيث يذكر» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في الكافي 4: 426 و الاستبصار 2: 234 و التهذيب 1: 486 صحيحة ابن مسلم عن أحدهما (عليهما السلام) قال: سئل عن رجل طاف طواف الفريضة و لم يصل الركعتين حتى طاف بين الصفا و المروة ثم طاف طواف النساء و لم يصل أيضا لذلك الطواف حتى ذكر و هو بالأبطح؟

قال: يرجع الى المقام فيصلي ركعتين.

(2) كما

في التهذيب 1: 486 و الاستبصار 3: 235 صحيحة أبي بصير سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن رجل نسي ان يصلي ركعتي طواف الفريضة خلف المقام و قد قال اللّه:

وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى‏ حتى ارتحل؟ فقال: ان كان ارتحل ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 144

ذلك لإطلاق الأمر «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» للناسي كما الذاكر، خرج موقف المشقة و الحرج، إذ لا عسر في الدين و لا حرج، و ان كان الأحوط الجمع بين ان يصليهما حيث يذكر، و أن يستنيب‏ «1» لادائهما عند المقام، ام و إذا رجع في سفرة أخرى يقضيهما.

فالأصل المرجع- ككل- هو على أية حال‏ «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» ما أمكن دون عسر و لا حرج، و الجمع بين صلاة الأصيل و الوكيل يجمع بين مختلف الدليل.

و هنا ويلات من مختلفات الروايات ان فلانا و فلانا سألوا النبي (ص) لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزلت‏ «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى»! ويكأن اللّه يتبع في وحيه إلى رسوله أهواء فلان و فلان، فهما أخرى بالاتباع و أعرف من الرسول (ص) استصلاحا لركعتي الطواف‏ «2».

و كما يهرف فيما يخرف‏

«كان المقام إلى لزق البيت فقال عمر بن الخطاب يا رسول اللّه (ص) لو نحّيته عن البيت ليصلي إليه الناس ففعل ذلك رسول اللّه (ص) فأنزل اللّه: «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى» «3»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في التهذيب عن ابن مسكان قال: حدثني‏ من سأله عن الرجل ينسى ركعتي طواف الفريضة حتى يخرج؟ فقال: يوكل، قال ابن مسكان و في حديث آخر: ان كان جاوز ميقات أهل ارضه فليرجع و ليصلهما فان اللّه تعالى يقول‏ وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى‏.

(2)

الدر المنثور 1: 119- اخرج الطبراني و الخطيب في تاريخه عن ابن عمر ان عمر قال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى فنزلت: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى‏

و فيه خرج عبد بن حميد و الترمذي عن انس قال: يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لو صلينا خلف المقام؟ فنزلت ...

(3) المصدر 119 أخرج ابن أبي دواد عن مجاهد قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 145

كلّا! إن المقام هو المقام الآن كما كان دون تحوّل و لا تحويل و لا تخويل في تحويل، كما البيت هو البيت، و المشاعر هي المشاعر، و الحرم هو الحرم.

و لأن المطاف يتسع حسب اتساع الطائفين- و الى خلف المقام بقليل او كثير- فحتى لا تكون فوضى الصدام بين الطائفين و المصلين، قد تلمح‏ «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى»- دون «صلّوا» او ما أشبه- تلمح بأن المصلّى من المقام مرحليّ لجمهرة المصلين كما المطاف، فليتقدم المطاف على المصلى، و على المصلين أن يتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى إلى آخر المسجد الحرام بصورة مقررة محسوبة على الجميع، حيث لا يضيق المطاف على الطائفين.

فالإسلام بكل مقرراته نظام، و لا سيما في القرارات الجماعية تحسّبا دقيقا رفيقا لسلامة التطبيق في كل جليل و دقيق، و مؤتمر الحج هو من أدق التنظيمات الجماعية الإسلامية السلمية «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ»- «قِياماً لِلنَّاسِ».

فليكن المطاف و المصلى بحيث لا يكون صدام و احتدام بين الطائفين و المصلين، فليراع المصلون كتلة الطائفين، كما على الطائفين رعاية كتل المصلين، مع تقدم الأوّلين حسب الحاجة الضرورية لصالح الطواف من متّسع المطاف.

و لو أن المطاف احتل- يوما مّا- المسجد الحرام كله، و طبعا في واجب الطواف، فليقرّر لكلّ من الطواف و الصلاة موعد يكفيه، باستثناء أمام المقام الى البيت فانه مطاف على أية حال، و ليراع واجب كلّ من الطواف و صلاته، تقديما على تطوعّه، و لا يجوز إشغال المصلّى خلف المقام مع الزحام- كما المطاف- تقديما للفرض على النفل كما قدّمه اللّه. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا- اسرار. مناسك و ادلة حج- باللغة الفارسية، و فيما أوردناه من الفروع كفاية كأصول لأحكام صلاة الطواف.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 146

ثم و في رجعة اخرى الى الآية مسائل:

الاولى: لو تحوّل المقام الى غير مقامه الآن، لم تتحول الصلاة خلفه عما خلفه كما كان حيث المقام لا يختص بذلك الحجر القابل للتحول، بل هو مقامه من أرض المسجد الحرام الى تخوم السماوات و الأرض، و كما الكعبة المباركة و المسجد الحرام، و الحل و الحرام، حيث الظاهرة الآن على الأرض هي علامات، و ليست هي- فقط- الأصل في مسرح الأحكام.

الثانية: المأمور بالصلاة خلف المقام أم عنده هو هو المكلف بطوافها، فلا يستنيب فيها مهما كلف الأمر، إلا إذا لا يسطع أن يأتي بالأمر، عذرا يسقط عنه أصالة الأمر، إذا فإلى الاستنابة، كالمغشي عليه و الميت و من أشبه، فإجادة القراءة و سائر الواجبات و الأركان و إن كانت مفروضة في تطبيق الأمر، إلّا أنها لا تسمح للاستنابة، قصورا عن الإجادة أم تقصيرا فيها.

ثم الاستنابة في الواجبات هي خلاف الأصل حتى عند الضرورة حيث تسقط الفريضة عندها، اللهم إلّا بدليل، و لا دليل على الوجوب او السماح في استنابة لصلاة الطواف إلّا لمن يعذر بنفسه عنها، في نفسه، ام لأنه خارج لا يسطع على العودة.

الثالثة: لا يجوز له طواف واجب ما لم يعرف واجبات ركعتيه كواجباته، إلّا إذا ضاق وقت الطواف، فان طاف في سعة الوقت و لا يعرف واجب الصلاة أخرها حتى يعرفها تعلما، ام يقتدي في ركعتي الطواف، فان صلاهما مخلا بصحتها أعادها بعد تعلمها ان أمكن، فان كان خرج ام في تعلمه حرج، صلاهما حيثما كان و استناب.

فالأمر الذي لا بد منه هنا كضابطة أن عليه نفسه ركعتي الطواف كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 147

الطواف، فلا استنابه هنا او هناك إلّا عند الضرورة، و ليس منها عدم معرفته كيف تؤدى الصلاة؟.

الرابعة: لا تجب في ركعتي الطواف رعاية عدم تقدم النساء على الرجال، قضية تضيّقها مكانا و زمانا، ففي رعاية المكان و الزمان، الى رعاية عدم التقدم حرج فلا وجوب.

و أخيرا ذكر مصلى المقام مما يدلّ على ان صلاة الطواف فريضة كسائر ما يذكر من فرائض الحج في القرآن، و لكنها ليست ركنا كسائر أركانه.

ثم و التفصيل الى سائر المفصلات المخصصة لهذه الفروع، فانما علينا ان نلقي إليكم الأصول و عليكم التفريع‏ «1».

ثم‏ «وَ عَهِدْنا إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» مفسّرة في نظيرتها: «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (22: 26).

فالركع السجود فيهما هم المصلون- ككل- طائفا او عاكفا او قائما، ثم الطائفون هم المسافرون لقرنهم في آية الحج بالقائمين، ام هم أعم منهم و من يطوف بالبيت و علّه أصلح، حيث التعبير عن خصوص المسافرين بالطائفين هو أوسع من معناها، كما و العاكفين- علّه- أعم من المقيمين و المعتكفين في المسجد الحرام و القاعدين فيه، فقد شملت الآيتان كل عابد في المسجد الحرام، مسافرا او مقيما، معتكفا او طائفا او مصليا ام جالسا فإنه أيضا عبادة، و التطهير المأمور به هو- ككل- تعبيد الكعبة المباركة بما حولها لهؤلاء العباد، إزاحة لمعالم الشرك، و إراحة للموحدين بمعالم و طقوس التوحيد، فيعم تطهيره عن كل الأرجاس ظاهرة و باطنة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 123 عن تفسير القمي في الآية قال الصادق (عليه السلام) يعني نحّ عنه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 148

و قد تلمح «طهرا ...» بأولى و أحرى إلى طهارة نفوس هؤلاء، و طهارة ملابسهم و أبدانهم، و طهارتهم عن الأحداث، فمثلث الطهارة قد تعنى ضمن المعني من «طهرا» «1».

و لان أظهر مصاديق «بيتي»- الموسّع إلى المسجد الحرام- هو نفس الكعبة المباركة، فقد يظهر من الآية جواز الصلاة في جوف البيت، و أما الطواف فلا يشرع إلّا حول البيت لنص آخر «وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» و كيفما توجهت في جوف البيت كنت متجها الى القبلة لأنه كله قبلة من داخله كما هي من خارجه، اللهم إلّا من يقوم على أشراف سطح البيت فليست صلاته إلى القبلة فلا تصح، إلا مستقبلا لسائر الأشراف.

و ليس يعني‏ «حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» إلّا الخارجين عن البيت و المسجد الحرام، حيث الشطر هو الجانب، و هي تعني شطر المسجد الحرام.

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى‏ عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (126).

هنا «هذا بَلَداً آمِناً» لا تعني انه لم يكن حينذاك بلدا، حيث المفعول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المشركين، و قال: لما بنى ابراهيم البيت و حج الناس شكت الكعبة الى اللّه تبارك و تعالى ما تلقى من أنفاس المشركين فأوحى اللّه إليها قرّي كعبتي فاني ابعث في آخر الزمان قوما يتنظفون بقضبان الشجر و يتخللون.

(1).

المصدر في كتاب العلل بسند متصل عن عبيد اللّه بن الحلبي قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) أ يغتسلن النساء إذا اتين البيت؟ قال: نعم- ان اللّه عز و جل يقول: ان طهرا بيتي للطائفين و العاكفين و الركع السجود، فينبغي للعبد ألّا يدخل إلّا و هو طاهر قد غسل عنه العرق و الأذى و تطهر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 149

الثاني «آمنا» يكفي لجديد الجعل، ف «هذا» إشارة الى البلد كما في ابراهيم‏ «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً» (35) «1».

فقد تطلّب أمنه في حقلي التكوين و التشريع كما شرحناهما في آية «ابراهيم»- ثم‏ «وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» ينضاف الى اهله المؤمنين‏ «وَ مَنْ كَفَرَ» و لكن رزقه بدعائه ليس لينجيه من عذاب اللّه حيث‏ «فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا» و كل متاع الدنيا قليل!.

«ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى‏ عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ» و قد يكون الطائف من ثمرات الحرم كما دعى الخليل فأعطاه الجليل الطائف لتكون من رزق الحرم‏ «2».

ثم «الثمرات» تعم ثمرات القلوب الى ثمرات القوالب كما يروى عن أئمة الهدى عليهم السلام‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفصيل البحث عن موقفي الدعائين نجده في تفسير آية ابراهيم.

(2)

الدر المنثور 1: 124- اخرج الأزرقي عن محمد بن المنكدر عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «لما وضع اللّه الحرم نقل له الطائف من فلسطين» أقول: قد يعني من ذلك النقل وضع مماثل لقرية فلسطين فيه حيث الطائف يشبهها في جوّها و منظرها و ثمارها، و في نور الثقلين 1: 124 عن العلل عن ابن مهزيار عن الرضا (عليه السلام) في الطائف: أ تدري لم سمي الطائف؟ قلت لا، قال: ان ابراهيم (عليه السلام) دعى ربه ان يرزق اهله من كل الثمرات، فقطع له قطعة من الأردن فأقبلت حتى طافت بالبيت سبعا ثم أقرها اللّه عز و جل في موضعها، فانما سميت الطائف للطواف بالبيت.

(3)

الدر المنثور 1: 121- اخرج احمد عن أبي قتادة ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) توضأ ثم صلى بأرض سعد بأرض الحرة عند بيوت السقيا ثم قال: اللّهم ان ابراهيم خليلك عبدك و نبيك دعاك لأهل مكة و انا محمد عبدك و رسولك أدعوك لأهل المدينة مثل ما دعاك ابراهيم بمكة، أدعوك ان تبارك لهم في صاعهم و مدهم و ثمارهم، اللهم حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكة، و اجعل ما بها من وراء الخم، اني حرمت ما بين لا بيتها كما حرمت على لسان ابراهيم الحرم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 150

و لقد تصبغ دعاء ابراهيم لأهل البلد الحرام بما صبغة اللّه من قبل‏ «لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» إفادة له من هذه العظة البالغة، محترسا في دعاءه محددا المرزوقين من اهله بمن آمن و قد تبرء من قبل من المشركين‏ «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» (9: 114).

و لكن يبقى هنا مجال السؤال: هل إن طلب الرزق للمشرك ضمن المؤمن، هو من الاستغفار له؟ طبعا لا! و لكنه استرحام قد يحوم حوم الاستغفار.

فانما حصر الخليل دعاءه في المؤمنين حائطة على مرسوم الدعاء، و لكيلا يكون مطلقا يقيّد كما قيّدت‏ «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي» و قد حسره عن حصره الجليل، و لأن هذا الرزق ليس ليختص بالمادي منه المؤمنين‏ «قالَ وَ مَنْ كَفَرَ ...» و لكن كيف؟

إنما «فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا»، ثم الرزق الآخر و هو الروحي الإيماني يختص بالمؤمنين، و كما اختص عهد الإمامة بغير الظالمين، و قد يروى أن الرسول (ص) دعى لأهل المدينة كما دعى ابراهيم لأهل مكة «1».

ذلك و إلى رسم راسم لمشهد تنفيذ الخليل بإسماعيل لأمر الجليل بإعداد البيت و تطهير «لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

- و

فيه اخرج مسلم عن أبي هريرة ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: اللهم ان ابراهيم عبدك و خليلك و نبيك و إني عبدك و نبيك و انه دعاك لمكة و اني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة و مثله معه، و فيه اخرج الطبراني في الأوسط عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ... و اجعل مع البركة بركتين.

(1). الدر المنثور 1: 128- اخرج الأزرقي عن ليث بن معاذ قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هذا البيت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 151

وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ‏ 127.

قد تعني‏ «الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ» أن ليس البيت هو القواعد و البنيان، مهما كانت منه، إذا فالبيت هو المربع الخاص من سطح الأرض، ثم من فوقها إلى السماء السابعة، و كذلك من تحتها، عمود مستقيم يربط أعلى النقط من الكون إلى أدناها، و قد يصدقه ما يروى عن الرسول (ص):

«هذا البيت خامس خمسة عشر بيتا سبعة منها في السماء و سبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى، و أعلاها يلي العرش البيت المعمور، لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى، و لكل بيت من أهل السماء و من اهل الأرض من يعمره كما يعمر هذا البيت» «1».

و قد يعني البيت المعمور- حيث يلي العرش- السدرة المنتهى، التي انتهى إليها الرسول (ص) في معراجه، مجتازا «مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ»- إلى سائر بيوت اللّه في السماوات و الأرضين- «إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» و هو البيت الأقصى في أقصى الكون في السدرة المنتهى.

و هكذا يحق لخاتم النبيين و اشرف الخلق أجمعين أن يطوف البيوت الخمسة عشر بأهليها، و كما

قال (ص) عن سفرته هذه: «رأيت في كل سماء ميادين فيها خلق كثير ...».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن الصادق (عليه السلام) يعني من ثمرات القلوب اي جهنم الى الناس ليثوبوا إليهم‏ (تفسير البرهان 1: 154).

و

عن الباقر (عليه السلام) ان الثمرات تحمل إليهم من الآفاق و قد استجاب اللّه له حتى لا توجد في بلاد المشرق و المغرب ثمرة لا توجد فيها حتى حكي انه يوجد فيها في يوم واحد فواكه ربيعية و صيفية و خريفية و شتائية (تفسير بيان السعادة 1: 145).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 152

لقد رفع ابراهيم القواعد من البيت و إسماعيل بما بوّء له ربّه مكان البيت:

«وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» (22: 26).

بوّأه له بما أوحى إليه هندسة المكان ليرفع القواعد عليه كما هندسه ربّه.

إذ لم تكن له- حينذاك- قواعد و لا أعلام، إلّا بذلك الإعلام من اللّه الملك العلّام‏ «1».

و ان هذا البيت المبارك- قبل ان يضع ابراهيم القواعد منه- كان بيتا بأعلام أحيانا و دون أعلام أخرى، كيف لا و «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» (3: 96).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 126- اخرج الديلمي عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: «جاءت سحابة على تربيع البيت لها رأس تتكلم ارتفاع البيت على تربيعي فرفعاه على تربيعها.

و

في نور الثقلين و عن الصادق (عليه السلام) ان إسماعيل (عليه السلام) لما بلغ مبلغ الرجال امر اللّه ابراهيم (عليه السلام) ان يبني البيت فقال: يا رب في اي بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت بها على آدم القبة، فأضاء لها الحرم فلم يدر ابراهيم في أي موضع يبنيه فان القبة التي أنزلها اللّه على آدم كانت قائمة الى أيام الطوفان فلما غرقت الدنيا رفع اللّه تلك القبة و بقي موضعها لم يغرق و لهذا سمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق فبعث اللّه جبرئيل (عليه السلام) فخط له موضع البيت فانزل اللّه عليه القواعد من الجنة و كان الحجر لما أنزله اللّه على آدم أشد بياضا من الثلج فلما مسته ايدي الكفار اسودّ، فبنى ابراهيم (عليه السلام) البيت و نقل إسماعيل الحجر من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه ابراهيم (عليه السلام) و وضعه في الموضع الذي هو فيه الآن فلما بنى جعل له بابين، بابا الى المشرق و بابا الى المغرب يسمّى المستجار ثم ألقى عليه الشجر و الأذخر و علّقت هاجر على بابه كساء و كان معها و كانوا يكتسون تحته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 153

فإبراهيم (ع) ليس إلّا أوّل بان لقواعده، بما بوأه ربه من مكان البيت، و قد كان بيتا منذ آدم، مطافا له و لذريته، بل و منذ كانت خليقة على وجه الأرض و وجوه السماوات السبع و الأرضين السبع.

«رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا» ما نرفع من قواعد البيت‏ «إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ» دعاءنا سرا او جهرا «العليم» بنياتنا و طوياتنا، و «العليم» سؤلنا،

و قد كان النبي (ص) إذا أفطر قال: «اللّهم لك صمنا و على رزقك أفطرنا فتقبل منا انك أنت السميع العليم» «1».

رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ‏ 128.

و تراهما لمّا يسلما بعد لربهما حتى يسألانه‏ «وَ اجْعَلْنا ...»؟ إن الإسلام المسؤول هنا هو غاية التسليم، و هي لا تحصل إلّا بعد العروج الى معارج الإيمان، و مما استجاب لهما ربهما عن سؤل الإسلام: «فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» (37: 103).

و لذلك الإسلام درجات تدرّج ابراهيم الى ما دون العليا منها، فان محمدا اوّل من اسلم:

«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» (6: 14) حيث الأوّلية هنا ليست لتكون زمنية و قد كان قبله مسلمون كإبراهيم و إسماعيل و من أشبه، فهي أولية في الدرجة، و

«الايمان من الإسلام بمنزلة الكعبة الحرام من الحرم قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 137- أخرج الدار قطني عن ابن عباس قال كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 154

يكون في الحرم و لا يكون في الكعبة، و لا يكون في الكعبة حتى يكون في الحرم» «1»

و لذلك الإسلام ميّزات عن مطلق الايمان و سمات، فلا يلبس الإسلام بظلم أو مشرك مهما لبسهما الإيمان: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ» (6: 82) «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ».

و لقد قورن مطلق الايمان بمقارنات الظلم و الشرك و الفساد و العصيان، و لم يقارن بشي‏ء منها ذلك الإسلام، فلذلك يعدّ من ميّزات المرسلين دون الإيمان فانه لكل المؤمنين بدرجاتهم.

لذلك يطلب الخليل الى ربه الجليل ان يجعله و إسماعيل مسلمين له، بعد كل درجات الإيمان و درجات من الإسلام.

ثم يتطلّب من ربه‏ «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا» ذريتي من إسماعيل‏ «أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» و هم أهل بيت الرسالة المحمدية، فالرسول فيهم هو محور الدائرة، و ذووه المعصومين هم الأشعة، فلأن ابراهيم تطلّب لهم أصل الإسلام لا درجته، لم يمنع سؤاله أن يكون محمد أوّل المسلمين.

و لقد أسلم إبراهيم لدرجة قبل هذا الوقت: «إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ» (131) ثم يتطلب بعده إسلاما أرقى‏ «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ...» فهو كما الإيمان درجات: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ...»

و لو أنه إسلام قبل الايمان أم إسلام الإيمان، لم يكن يسأله من ربه، بل كان يفعله لأنه من فعله، فإنما الإسلام المسؤول هنا هو قمة التسليم بما آمن و أسلم، توفيقا من اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الكافي عن سماعة عن الصادق (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 155

و هكذا نرى ذلك الإسلام أنه من حصائل الإيمان، كل درجة منه حصيلة درجة منه فإنهما كلّا درجات:

«إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ» (30: 53) «وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ» (5: 111).

كما و يوصي المصطفين من عباده أن يكونوا من المسلمين: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (2: 132).

ثم و لا تسمع أحدا من النبيين يؤمر بالإيمان، اللهم إلّا بالإسلام، اللهم إلّا شذرا في عرض ايمان المؤمنين بعرض الرسول تلفيقا رفيقا بينهما: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ» على أن إيمانه هنا ليس باللّه، بل بما أنزل إليه، طمأنة للمؤمنين.

و لا تجد اللّه يذكر أحدا منهم بخير أفضل من الإسلام‏ «ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً» (3: 67) و تراهم- دوما- يؤمرون بالإسلام و مرتبطون بالإسلام!.

فذلك بدرجاته إسلام، و قبله الإيمان بدرجاته، ثم قبلهما إسلام لمّا يصل إلى القلب فلم يصل لحد الإيمان: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14) و اين إسلام من إسلام؟!.

و هنا «مِنْ ذُرِّيَّتِنا» تختص دعاء الخليل بأمة مسلمة للّه من ذرية ابراهيم من إسماعيل، فلا تشمل الأمة الإسرائيلية حتى المسلمة منهم لأنهم من إسحاق، دون إسماعيل، و لا كلّ المسلمين إذ ليسوا كلهم و لا جلّهم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 156

إسماعيل، أ تراهم بعد هم كل بني هاشم فإنهم من ذرية إسماعيل، و كيف تعمهم ذلك الدعاء لإسلام ردف إسلام ابراهيم؟ و فيهم عصاة بغاة طغاة! و لئن خصّت بعدولهم فليس كل العدول مسلمين بذلك المعنى الرفيع، ثم لماذا تختص بهم و ممن سواهم مسلمون أرقى و اجل من جلّهم؟.

إذا فهم مسلمون خصوص من ذرية إسماعيل، و المعصومين الاربعة عشر عليهم السلام‏ «1» أم هم أصدق مصاديقها، و سائر الامة المسلمة من ولد إسماعيل هم على هامشها؟ إلّا إسلاما أدنى مما لإبراهيم و إسماعيل و المحمديين المعصومين، هو إسلام يحصل على ضوء الصمود و الرقي فلما ذا يسأله لها و لهم من اللّه.

فلا بد- إذا- أنه إسلام العصمة القمة المرموقة و لمّا يصلا اليه إذ يرفعان القواعد من البيت.

و هكذا تكون‏ «وَ تُبْ عَلَيْنا» فإنها ليست توبة عليهم من عصيان، بل هي توبة رجوعا عليهم برحمة خاصة تضمن لهم كامل الإسلام.

فقد يتوب اللّه على عبد يتوب إليه عن ذنب كما في آدم‏ «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (20: 121).

او يتوب على عبد رجوعا برحمة خاصة تعصمه و تسدده عما لا يحمد، لولاها لكاد أن يقترفها او يقتربها حيث تكل الطاقات البشرية كما في يوسف‏ «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» (12: 24) و في محمد (ص):

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 130 في الكافي باسناده الى أبي عمر و الزبيري عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه ... ثم اخبر عن هذه الامة و ممن هي و انها من ذرية ابراهيم و ذرية إسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبدوا غير اللّه قط الذين وجبت لهم الدعوة دعوة ابراهيم و إسماعيل من اهل المسجد الذين اخبر عنهم في كتابه انه «اذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 157

«وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17: 74) و هكذا يكون- دوما- توبة اللّه على أصفى المصطفين.

ثم‏ «وَ أَرِنا مَناسِكَنا» قد تعم الإراءة المعرفية الى إراءة فقهية، فحين يرينا اللّه مناسكنا كما هي، كان بامكاننا تطبيقها كما هي، فتصبح حجة مقبولة مشكورة محبورة، و قد تعم «مناسكنا» مصدرا ميميا و اسم زمان و مكان، و الاراءة المعرفية تناسب الأولى.

و كأن‏ «تُبْ عَلَيْنا» هي من الظروف الصالحة ل «أَرِنا مَناسِكَنا» إراءة لملكوتها، بعد هذه التوبة التي توصّل إلى الملكوت.

رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏ 129.

هناك‏ «أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» كانت ظرفا ظريفا لبلورة هذه الرسالة السامية هنا بدعاء ثان، و لقد سمع اللّه دعاءه في إسماعيل كما في الأصل العبراني من تكوين التوراة:

(17: 20): «و ليشمعيل شمعتيخا هينه برختي أوتوا و هيفرتي أوتوا و هيربتي أوتوا بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد و نتتيو لغوي غادل»-:

«و لإسماعيل سمعته:- ابراهيم- ها أنا أباركه كثيرا و أنميه و أثمره كثيرا و ارفع مقامه كثيرا بمحمد و اثني عشر إماما يلدهم إسماعيل و اجعله أمة كبيرة».

و في التكوين 21: 12 «... و ابن الجارية ايضا سأجعله أمة لأنه نسلك».

و قد سمي إسماعيل به لأنه مسموع الرب في ولادته و في نسل امة مسلمة من ذريته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 158

و في الأصل الانقلوسي من «نبوئت هيلد»: وحي الطفل: شبوياه شاباه بههيا شعطاطابا لأرعابتيا و و رهاباه دعبدا تشوباه و يرحم إباطابا عل بوخرا حبيبا:

يأسر أعداءه- محمد المذكور قبل- في ساعة جيدة في ارض مرغوبة و يرحمه اللّه هناك اجابة لدعوة ابراهيم لإسماعيل.

ذلك- ثم نجد التوراة تبشر في آيات أخرى ان ذلك الموعود من ولد قيدار بن إسماعيل في عدة تصريحات‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منها ما في اشعياء (142: 1- 20) ... لتشد البرية و مدنها و الحظائر التي يسكنها قيدار و ليرنّم سكان الصخرة و ليهتفوا من رؤوس الجبال (11) ليؤدوا المجد للّه و يخبروا بحمده في الجزائر (12).

هذه بشارة لنبي من قيدار و «هو الولد الثاني لإسماعيل» (تك 13: 25) و «أبوه من أشهر قبائل العرب و بلادهم الجزيرة العربية» (اشعياء 21: 16).

فالصرخات التي تسمع من اهل قيدار و ترنماتهم من الصخرة و هتافاتهم من رؤوس الجبال كل ذلك تصريحات لطيفة بشأن الرسول المبعوث من نسل قيدار ابن إسماعيل، ترنمات من اعالي جبال مكة و عرفات و منى و المشعر الحرام في حج البيت.

و في الآية (10) منها: انشدوا للرب نشيدا جديدا تسبيحة له من اقاصي الأرض يا هابطي البحر و يا ملأه و يا أيتها الجزائر و سكانها.

و النشيد الجديد هو الشرعة الجديدة المحلقة على كل الجزائر من ذلك النبي الإسماعيلي، و في بعض التراجم (هذه ترجمة القسيس اوسكان الارمني في ترجمته لكتاب اشعياء المطبوعة 1733 في مطبعة انتوني بورتولي و قد الفها في 1666- اي قبل 67 سنة من طبعها) تأتي هذه الآية هكذا: يسبحون الرب تسبيحا جديدا و يبقى اثر سلطانه بعده و اسمه «احمد» (89).

و في اشعياء 6: 1- 22) توصيفات لمكة المكرمة بالكعبة المباركة و هذا الرسول المكي قائلا:

قومي استنيري فان نورك قد وافى و مجد الرب أشرق عليك 1 ها ان الظلمة تغشى الأرض والد يجور يشمل الشعوب و لكن عليك يشرق الرب و يترائى عليك مجده 2 فتسير الأمم في نورك و الملوك في ضياء اشراقك 3 ارفعي طرفك الى ما حولك و انظري كلهم قد اجتمعوا و أتوا إليك. بنوك من بعيد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 159

و

قد يروى عن النبي (ص) قوله: «انا دعوة ابراهيم» «1»

و

«اني عند اللّه في أم الكتاب لخاتم النبيين و إن آدم لمنجدل في طينة و سأنبئكم باوّل ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يأتون و تحملين بناتك في حضنك 4 حينئذ تنظرين و تتهللين و يخفق قلبك و يرحب إذ تنقلب إليك ثروة البحر و يأتيك غنى الأمم 5 كثرة الإبل تغشاك بكران مدين و عيفة. كلهم من «شبا» يأتون حاملين ذهبا و لبانا يبشرون بتسابيح الرب 6.

كل غنم قيدار تجتمع إليك- و كباش نبايوت تخدمك. تصعد على مذبحي المرضي لدي و امجّد بيت جلالي 7 من هؤلاء الطائرين كالسحاب و كالحمام الى كواها 8 إن الجزائر تنتظرني و سفن ترشيش مستعدة منذ الاوّل ان تأتي ببنيك من بعيد و معهم فضتهم و ذهبهم لاسم الرب إلهك و لقدوس إسرائيل لأنه قد مجدك 9 و بنو الغرباء يبنون أسوارك و ملوكهم يخدمونك لأني في غضبي ضربتك و في رضاي رحمتك 10 و تنفتح أبوابك دائما لا تغلق نهارا و لا ليلا ليؤتى إليك بغنى الأمم و تحفر إليك ملوكهم 11 لان الامة و المملكة التي تتعبد لك و الأمم تخرب خرابا 12 مجد لبنان يأتي إليك السرو و السنديان و الشربين لزينة مقدسي و أمجد موطئ قدميّ 13 و بنو الذين عنّوك يفدون إليك خاضعين و يسجد لأخامص قدميك كل من ازدراك و يدعونك مدينة الرب 14 و بما أنك كنت مهجورة متروكة فلم يكن أحد يجتاز فيك سأجعلك فخر الدهور و سرور كل جيل فجيل 15 و ترضعين لبن الأمم و ترضعين ثدي المملوك و تعلمين أني أنا الرب مخلصك و فاديك عزيز يعقوب 16 آتي بالذهب بدل النحاس و آتي بالفضة بدل الحديد و بالنحاس بدل الخشب و بالحديد بدل الحجارة و اجعل ولاتك سلاما و مسخريك عدلا 17 لا يسمع من بعد بالجور في أرضك و لا بالدمار و الحطم في تخومك بل تدعين اسوارك خلاصا و أبوابك تسبيحا 18 لا تكون الشمس من بعد نورا لك نهارا و لا ينيرك القمر بضيائه ليلا بل الرب يكون لك نورا أبديا و إلهك يكون فخرك 19 لا تغرب شمسك من بعد و قمرك لا ينقص لأن الرب يكون لك نورا ابديا و تكون ايام مناحتك قد انقضت 20 و يكون شعبك كلهم صديقين و الى الأبد يرثون الأرض. هم فرع غرسي و عمل يدي الذي أتمجد به 21 القليل منهم يصير ألفا و الصغير يصير امة عظيمة. انا الرب أعجل ذلك في ميقاته 22.

(1).

الدر المنثور 1: 139- اخرج ابن سعد في طبقاته و ابن عساكر من طريق جويبر عن الضحاك ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: انا دعوة ابراهيم، قال: و هو يرفع القواعد من البيت:

ربنا و ابعث فيهم رسولا منهم ... حتى أتم الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 160

دعوة أبي ابراهيم و بشارة عيسى بي و رؤيا أمي التي رأت و كذلك أمهات النبيين يرين» «1».

«وَ ابْعَثْ فِيهِمْ» هذه الأمة المسلمة من ذريتنا «رَسُولًا مِنْهُمْ» و كلهم نور واحد فإن: أولنا محمد آخرنا محمد أوسطنا محمد و كلنا محمد صلوات عليهم أجمعين.

«رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ» تكوينية: آفاقية و أنفسية، و تدوينية: قرآنية و كتابيات أخرى.

و لماذا «وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ» هنا «وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ» في ثلاث أخرى‏ «2» أ ترى تعليم الكتاب و الحكمة هو المقدم على التزكية كما هنا، ام هي المقدمة عليها كما في الثلاث الأخرى، ام هما صنوان لا يتفاضلان، فهما متعاضدان مع بعضهما البعض متقارنان؟ فلما ذا تتقدم التزكية ثلاثة أضعاف تقدم التعليم عليها؟.

علّ الأضعاف في التزكية للتأشير إلى أهميتها، حيث التعليم ذريعة الى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر اخرج احمد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في الدلائل عن العرباض بن سارة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إني عند اللّه ...

و

فيه اخرج احمد و ابن سعد و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي عن أبي امامة قال‏ قلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما كان بدء أمرك؟ قال: دعوة ابراهيم و بشرى عيسى و رأت امي انه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام.

(2) و هي: كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (2: 151) و لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (3: 64) و هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (62: 2).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 161

التزكية فهي رأس الزاوية في محاولات الرسالة، فلو أمكنت التزكية دون تعليم لما كان ضرورة، و هما صنوان متعاملان، كلما ازداد التعليم المعرفة ازدادت التزكية، و كلما ازدادت التزكية ازداد العلم و المعرفة

«العلم نور يقذفه اللّه في قلب من يريد ان يهديه».

وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ‏ 130.

«مِلَّةِ إِبْراهِيمَ» هي توحيد الإسلام و إسلام التوحيد لوجه اللّه، و لا يرغب عنها إلّا من سفه نفسه: حملا لها على خفة العقل و الإدراك، فالنفس الانسانية فطريا و عقليا راغب الى هذه الملة المسلمة الحنيفة، فلا يرغب عنها إلى سواها إلّا من حمل نفسه على التنازل عن ذاتيتها، استخفافا بها و تغرّبا عنها.

«وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا» بقمة الاصطفاء فانه من أصفى الأصفياء «وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» كما تطلّبه يوم الدنيا «وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» و سعى له سعيه، و متى اصطفيناه في الدنيا؟:

إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ‏ 131.

و علّه إسلامه بفعله لما أمر به قبل إسلامه المطلوب من ربه حين دعا «وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ ...».

فهناك إسلام قضية كمال الإيمان، و هنا إسلام قضية الأمر الخاص، و علّه لأمر خاص كما «أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ» ثم إسلام بعدهما تطلّباه إذ يرفعان القواعد من البيت، و قد يجمع مراتب الإسلام حديث قدسي يذكر عيشا أهنى و حياة أبقى‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في البحار عن ارشاد الديلمي‏ قال اللّه سبحانه يا أحمد هل تدري اي عيش اهنى و أي حيوة أبقى؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 162

وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ‏ 132.

«بها» لا مرجع صالحا لها إلّا «مِلَّةِ إِبْراهِيمَ» دون الإسلام لذكوريته، ثم و هذه هي ملة الإسلام في توحيد العقيدة و العمل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: اللهم لا- قال: اما العيش الهني‏ء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكرى و لا ينسى نعمتي و لا يجهل حقي، يطلب رضائي في ليله و نهاره، و أما الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتى تهون عليه الدنيا و تصغر في عينه و تعظم الآخرة عنده، و يؤثر هواي على هواه و يبتغي مرضاتي، و يعظم حق نعمتي، و يذكر عملي به، و يراقبني بالليل و النهار عند كل سيئة او معصية، و ينقي قلبه عن كل ما أكره، و يبغض الشيطان و وساوسه و لا يجعل لإبليس على قلبه سلطانا و سبيلا، فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبا حتى أجعل قلبه و فراغه و اشتغاله و همه و حديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبتي من خلقي و افتح عين قلبه و سمعه حتى يسمع بقلبه و ينظر بقلبه إلى جلالي و عظمتي، و أضيق عليه الدنيا، و أبغض اليه ما فيها من اللذات و أحذّره من الدنيا و ما فيها كما يحذّر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفر من النار فرارا و ينقل من دار الفناء الى دار البقاء، و من دار الشيطان الى دار الرحمن، يا أحمد و لأزينّنه بالهيبة و العظمة فهذا هو العيش الهني‏ء و الحياة الباقية، و هذا مقام الراضين فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال: أعرّفه شكرا لا يخالطه الجهل، و ذكرا لا يخالطه النسيان، و محبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين، فإذا أحبني أحببته و افتح عين قلبه إلى جلالي، و لا أخفي عليه خاصة خلقي، و أناجيه في ظلم الليل و نور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين و مجالسته معهم، و أسمعه كلامي و كلام ملائكتي، و أعرّفه السر الذي سترته عن خلقي، و ألبسه الحياء حتى يستحيي منه الخلق كلهم، و يمشي على الأرض مغفورا له.

و اجعل قلبه واعيا و بصيرا، و لا أخفي عليه شيئا من جنة و لا نار، و أعرّفه ما يمر على الناس في القيامة من الهول و الشدة و ما أحاسب به الأغنياء و الفقراء و الجهال و العلماء، و أنومّه في قبره، و أنزل عليه منكرا و نكيرا حتى يسألاه، و لا يرى غم الموت و ظلمة القبر و اللّحد و هول المطّلع، ثم انصب له ميزانه و أنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرأه منشورا، ثم لا أجعل بيني و بينه ترجمانا، فهذه صفات المحبين، يا أحمد اجعل همك هما واحدا، و اجعل لسانك لسانا واحدا، و اجعل بدنك حيا لا يغفل أبدا، من يغفل عني لم أبال في أي واد هلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 163

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ‏ 133.

هنا في ذكر إسماعيل في عداد آباء يعقوب دليل السعة في لغة الأب فهي تختلف عن الوالد، فأبوه آزر في آيات ليس والده، لا سيما و انه تبرء من آزر «فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ» ثم نراه في أواخر عمره يدعو لوالديه‏ «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ» إذا فوالده غير أبيه.

و إنه لمشهد عميق التدليل- في لحظات الموت- على عمق عقيدة التوحيد بين آل ابراهيم، فيعقوب- و هو رأس الزاوية في بيت إسرائيل- لا يوصي عند احتضاره بمال، و لا يشغله بال، إلّا ذلك الأمر الجلل فهو المبتدء و هو المآل، فهو- فقط- تركته و تركة آباءه، قضية كبرى لا تشغله عنها سكرات الموت، بل هي تشغله عما سواها.

«ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي» اختبار حاسم تظهر فيه مدعى الدعوة التوحيدية لهم طول حياته الرسالية، يتلوه جواب حاسم‏ «نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ ...» أن إلهنا جميعا إله واحد، خلاف المشركين الذين لكلّ منهم إله او آلهة، ثم‏ «وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» لا فقط مقرون و إنما إسلام له قلبا و قالبا.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (134).

«تِلْكَ أُمَّةٌ» موحدة مسلمة «قَدْ خَلَتْ» فخلف من بعدها خلف أضاعوا ملتها الوحيدة الموحدة المسلمة، و تخلفت عن شرعة اللّه المرسومة بينها، ف‏ «لَها ما كَسَبَتْ» من خير «و لكم» الخلف المتخلف‏ «ما كَسَبْتُمْ»- «وَ لا تُسْئَلُونَ» أنتم‏ «عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ» كما و هم لا يسألون عما كنتم تعملون، كما «و لكم»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 164

المسلمين‏ «ما كَسَبْتُمْ ...» أمم ثلاث لكلّ ما كسبت و عليها ما اكتسبت.

و ليست الإمة في ميزان اللّه أمة الجنس و الإقليم و العنصر و التراب و الدم، فإنها موازين لحيونة الأمم، أم و إنسانيتها المنفصلة عن شرعة اللّه، و إنما هي جماعة ذات قصد واحد: خيرا أو شرا، مهما اختلفت أجناسهم و أواصر الأنساب و القرابات فيما بينهم.

أجل- إنها أمة دينية و ليست أمة طينية، و على هذا القياس فالكتلة الموحدة المسلمة من آل إبراهيم‏ «أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ» ثم الكتلة الكافرة من آل إبراهيم أمة «وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ» و كذلك المسلمون، من آمن منهم حق الإيمان و من لم يؤمن، فلكلّ حساب حسب الصالحات و الصالحات، دونما فوضى جزاف بحساب القوميات و العنصريات أم سائر الصّلات غير الروحية.

وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135).

قالت اليهود: «كونوا هودا تهتدوا» و قالت النصارى: «كونوا نصارى تهتدوا» «1» فكلّ يتمسّك بطائفية خاوية عن‏ «مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» فمجرد كونك من أولاء أم هؤلاء يكفيك هدى! «قل» لا هذا و لا ذاك‏ «بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» لا نسل إبراهيم كإبراهيم- إسرائيل و سواها- و إنما «مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» هذه هي الهدى دون سواها، أيا كنت في أصلك و نسلك، في وصلك و فصلك، و قد

يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 140 عن ابن عباس قال قال عبد اللّه بن صوريا الأعور للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتدي، و قالت النصارى مثل ذلك فأنزل اللّه فيهم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 165

و آله و سلم) قوله: بعثت بالحنيفية السمحة «1»،

و ترى الحنافة لمّا تكفي هدى لأنها الإعراض عما يخالف الحق، و يقابله الجنف، فلما ذا- إذا- «وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»؟.

علّه لأنهم تمسكوا بظاهر الحنيفية و انتساب النسب إلى إبراهيم الحنيف، فلكي يسد عليهم كل ثغرات الجنف تحريفا لمعنى الحنف يصرّح‏ «وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» و قسم من الهود و النصارى مشركون.

و لقد وصف «حنيفا» وصف إيضاح ب «مسلما» في أخرى: «ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (3: 67) مما يلمح أنهم كانوا يتذرعون بصيغة «حنيفا» لإلصاق أنفسهم إلى إبراهيم، و كأن «حنيفا» لقب يلقب به نسل إبراهيم أيّا كانوا، فجاء «مُسْلِماً- وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» كإيضاح يخيّب آمال المشركين الحنفاء الجنفاء!.

فلان الملة الإبراهيمية هي الناصعة بين الغابرين في خالص التوحيد، المعروفة لدى الخواص و العوام، لذلك فليعلن بملته الوحيدة الكبرى بين أهل الملل الثلاث و سواهم من الموحدين- رفضا لكل الفواصل المختلقة- من لدن إبراهيم إلى موسى و المسيح و إلى خاتم النبيين (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 140- أخرج احمد عن أبي امامة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):، و فيه عن ابن عباس قال‏ قيل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أي الأديان أحب إلى اللّه؟ قال: الحنيفية السمحة، و عن سعد بن عبد اللّه بن مالك الخزاعي قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): أحب الدين إلى اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 166

«قولوا» أيا كنتم من الملل، سلسلة موصولة متواصلة من ملل كتابية «آمَنَّا بِاللَّهِ» كأصل هو رأس زوايا الإيمان، و من ثم فروع: «وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا» ككل الكتابيين، «وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا» كمسلمين، و الإيمان بكتابات السماء ذريعة للإيمان بالقرآن و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «آمنوا بالتوراة و الزبور و الإنجيل و ليسعكم القرآن» «1».

أم و «قولوا» أيها المسلمون‏ «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا»: القرآن- لا فحسب بل‏ «وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ‏ ... وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ» قبل إبراهيم و بعده ككلّ.

و ترانا كيف نؤمن بعد ما أنزل إلينا- و هو ناسخ- بما أنزل إلى سائر النبيين و هي منسوخة؟.

إنه إيمان تصديق بكل ما أنزل اللّه أنه من اللّه، ثم و إيمان تطبيق لكلّ في زمنه، فتطبيق لشرعة القرآن الناسخة للبعض من سائر الشرائع، و هو تصديق لها إذ تبشر بالقرآن، ثم و محور الإيمان هو الإيمان باللّه و برسالاته و اليوم الآخر، الأصول الأساسية لكل إيمان، «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» في هذه الأصول، و لا سيما رأس الزاوية و هو توحيد اللّه «و نحن» ككل «و نحن» المسلمين «له» لا لسواه «مسلمون».

كما و «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» في ضابطة الإيمان، أن نؤمن ببعض و نكفر ببعض، فلا تفريق هنا أو هناك، و ذلك كلمة الإيمان الجاسم الحاسم‏ «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 140- أخرج ابن أبي حاتم عن معقل بن يسار قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 167

«آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ...»

(2: 285).

هذه هي قضية الإيمان المجرد عن انحيازات طائفية أم قبلية أما هي من امتيازات جاهلة قاحلة لا دور لها في حقل الإيمان الصالح.

و ترى لماذا اختلاف التعبير لمنازل الوحي ب «ما أنزل» أولا و «ما أوتي» ثانيا، و هذا أعم من الوحي كما «وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ» (3: 12) و الوحي النازل الى موسى و عيسى أعلى نازلا و منزلا من النازل الى إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط؟!.

علّه لأن أصل الوحي هو النازل على إبراهيم، ثم تبعا له و لمن تبعه، و من ثم أوتي موسى و عيسى و النبيون نفس الوحي مهما اختلف وحي عن وحي في درجات و بعض الطقوس، و ذلك معاكسة لما كان يزعمه الهود و النصارى أنهم الأصل في الوحي.

و كما أن «أنزل» أعم من الإيتاء و الإعطاء، كذلك «أوتى» أعم من الوحي و سواه، فهذان التعبيران لسلسلة الرسالات الحاملة للوحي- علّها- للتدليل على أن النازل إلى المرسلين ليس عطية لهم فهم مالكوها، بل هو إيتاء كأمانة و وديعة مرجوعة بعد تطبيقها، فتلك الوحدة الكبرى بين الرسل و الرسالات في أصول الدعايات و الاتجاهات، هي القاعدة المتينة الرصينة للتصور الإيماني المسلم السليم، السائرة في كل الدروب على هدى و نور، التي تجمع كل الشعوب- بلا تمييز- على درب الإسلام التام و السلام العام، مفتوحا للناس جميعا و كل العالمين في مودة و وئام، ذلك هو الإيمان الإسلام السليم أيا كان و أيان و من أيّ كان:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 168

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137).

«آمَنُوا بِمِثْلِ ...» دون «آمنوا بما آمنتم به» تنازل في درجات الإيمان، فإنهم لم يكونوا مؤمنين بمثل ذلك الإيمان المجرد عن حسابات دخيلة فيه، فكيف يدعون إلى نفس ذلك الإيمان المجرد، إلّا قفزه لا تناسب سليم الدعوة و الدعاية.

فليؤمنوا أولا «بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ» إيمانا بكل ما أنزله اللّه على رسله دون تمييز، ثم و ذلك الإيمان المجرد يجرهم بطبيعة الحال إلى نفس ما آمنتم به من رسالة الإسلام، حيث الإيمان السليم بالوحي الكتابي، يجذب الى الإيمان بمحور الوحي: القرآن العظيم، و لا يعني‏ «بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ» مثل اللّه الذي آمنتم به، حتى تسقط «مثل» عن لفظ القرآن‏ «1» إذ «ليس كمثله شي» بل هو مماثلة في أصل الإيمان، لا الذي يؤمن به، إيمانا باللّه كما آمنتم، و إيمانا برسالات اللّه كما آمنتم.

«وَ إِنْ تَوَلَّوْا» عن مثل هذا الإيمان‏ «فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ» تقسيم لبلد الإيمان الى شقين: إسرائيلي و إسماعيلي، و ذلك شقّ لوحدة الدين و الإيمان، و خروج عن واقع الإيمان إلى اللّاإيمان، أم هو أنحس- أحيانا- من الكفر المطلق!.

إذا «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ» بعد ما أديت واجب الدعاء و بالغ الدعوة، فاللّه هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 140 عن ابن عباس قال: لا تقولوا «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ» فان اللّه لا مثل له، و لكن قولوا: فان آمنوا بالذي آمنتم به، و فيه عن أبي جمرة كان ابن عباس يقرأ: فإن آمنوا بالذي آمنتم به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 169

الكافي لا سواه، فلا ترج في سدّ ثغراتهم إلّا إيّاه‏ «وَ هُوَ السَّمِيعُ» لحواركم حول الدين، و «السميع» لدعائك و سؤالك حفاظا على الدين «العليم» بما يصلحك و يصلح هذا الدين، ف‏ «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» (5: 105) و كل ما في البين حقا و لا حول عنه هو:

صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (138).

آية فريدة في صيغة التعبير، عرضا جامعا لما يتوجب الالتزام به على كل العالمين، فما هي‏ «صِبْغَةَ اللَّهِ» حتى نصطبغ بها او نلتزمها؟ و ليست للّه صبغة يمكن الاصطباغ بها، و لا أية صبغة!.

«صِبْغَةَ اللَّهِ» هي من إضافة الفعل الى فاعله، كخلق اللّه و روح اللّه و أخلاق اللّه و شرعة اللّه أم أي فعل للّه، و هي كفطرت اللّه أدبيا و معنويا مهما كانت أعم منها و من سائر الصبغة، تكوينية و تشريعية، فهي مفعول مطلق نوعي تعني صبغا خاصا إلهيا لقبيل الإنسان و سائر المكلفين، مما للإنسان في أصله خيار كمتابعة الفطرة و العقل و الشرعة الإلهية، أم ليس له خيار كأصل الفطرة، أمّا يقدم سببه كتطبيق ماله خيار ثم اللّه يهديه كما اهتدى.

و إضافة الفعل إلى فاعله كما هنا تقدّر «من» النشوية، أي: صبغة ناشئة من اللّه كسائر خلق اللّه.

فليست من إضافة الصفة الى موصوفة تقديرا ل «في» ان تكون هذه الصبغة في اللّه كسائر صفاته الذاتية، ام «ل» حيث تعم ما تعنيه «من- و- في».

ففي ذلك المثلث من تقادير الجار المحذوف لا تصلح هنا إلا «من» إذ ليست لذات اللّه صبغة و حتى المعنوية، حيث الصبغة حالة خاصة من الصّبغ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 170

و ليست له تعالى حالة دون أخرى إذ لا حدّ لذاته و صفاته حتى تصبغ بصيغة! و إنما المعني منها ما صبغ به خلقه.

و لقد صبغ اللّه الناس كلهم بصبغة الفطرة، ثم العقلية التي تتبناها، ثم شرعة من الدين الهادية لهما، الشارحة لأحكامهما، الشارعة سبيلهما الى الخير المرام، و لقد اختصرت في: «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ...» و لها- ككل- حصيلة مزيد الهدى و التقوى: «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17).

ثم و هي «الإسلام» «1» و «الولاية في الميثاق» «2»: إسلاما للّه و رسله و كتبه، و ولاية توحيدية و رسالية أما هيه من ولايات إسلامية، كلّ على درجاته.

و قد تتعلق «صبغة اللّه» بكلّ من‏ «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ»- «اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ»- «نَعْبُدُ إِلهَكَ ...»- «بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ»- «آمَنَّا بِاللَّهِ ...» «آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ» و الكل راجع إلى الإسلام و الولاية في الميثاق في ذلك المثلث البارع الذي هو كيان الإنسان كإنسان: «فطرت الله- العقل- شرعة الله»!.

صبغة سابغة سابقة على كل صبغة لأنها «صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ» كما صبغنا- في مثلث الفطرة و العقلية و الشرعة- بعبادته السليمة عن كل إشراك و دون أي عراك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 157 يروي تفسير «صِبْغَةَ اللَّهِ» بالإسلام عن عبد اللّه بن سنان و حمران و محمد بن مسلم و أبان و عبد الرحمن بن كثير كلهم عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ «الصبغة هي الإسلام».

(2)

المصدر عن الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 171

و يا له من تعبير منقطع النظير، يتصبغ أولا ب‏ «صِبْغَةَ اللَّهِ» أمرا إلزاميا من اللّه، بمواصفة غالية تجعلها في أعلى قمم الحسن و الجمال، و ثانيا بإقرار المصبوغين بها «و نحن» المسلمون المحمديون «له» لا لسواه «عابدون» لا نعبد إلّا إياه، كحصيلة بارزة لصبغة اللّه.

فحذار حذار في دين اللّه و شرعته عن كل صبغة غير إلهية في قال او حال او فعال على أية حال، في تكوين او تشريع أم أية صبغة ربانية.

و كما الصبغة المادية تظهر على المصبوغ كأولى المظاهر، كذلك الصبغة الروحية من طبعها الظهور في كافة المظاهر الحيوية الإنسانية، و قد سميت بصبغة اللّه عناية بتلك الظاهرة في مظاهر الأقوال و الأفعال، كما هي في كامنات العقائد و الأحوال، فكل إناء بما فيه يرشح، فالفطرة- و هي أعمق أعماق الإنسان- لمّا تصبغ بصبغة اللّه، فلتصبّق- على آثارها- النفس بكل جنودها و مراحلها الخيّرة: عقلا و صدرا و لبا و قلبا و فؤادا، و من ثم في كافة الحواس و مظاهرها في كافة الحقول، و القلب الفؤاد هو المحور الأصيل كإمام الائمة في مملكة النفس الإنساني، حيث «القلوب أئمة العقول و العقول أئمة الأفكار و الأفكار أئمة الحواس و الحواس أئمة الأعضاء».

و كل صبغة دون صبغة اللّه هي صبغة ابليسية مهما اختلفت دركاتها، كما و الصبغة الإلهية- في حقل التكوين و التشريع و التكليف، و الواقع الحاصل بينها- درجات.

أجل‏ «صِبْغَةَ اللَّهِ» لا الصبغة اليهودية و النصرانية «1» أمّا هيه من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 141 عن قتادة قال: ان اليهود تصبغ أبناءها يهود و ان النصارى تصبغ أبناءها نصارى و ان صبغة اللّه الإسلام و لا صبغة احسن من صبغة اللّه الإسلام و لا أطهر و هو دين اللّه الذي بعث به نوحا و من كان بعده من الأنبياء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 172

المختلقات الزور و الغرور التي هي من صبغ الغرور «وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»!.

و كما أن‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ» آية يتيمة، كذلك‏ «صِبْغَةَ اللَّهِ» و هي أعم منها و أتم و أطمّ حيث تعم كل صبغة ربانية تكوينية او تشريعية، ما بالإمكان الالتزام له أو تحصيله حتى يصبح صاحبها من أهل اللّه و خاصته و خيرته و حزبه، اللهم اجعلنا منهم بحقهم.

قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139).

فلما ذا المحاجة في اللّه: في ذاته و صفاته و أفعاله، في وحيه و آياته، لماذا المحاجة فيه بين من يربّبه دون نكير حسب الأصل الكتابي و صبغة اللّه، ثم‏ «وَ لَنا أَعْمالُنا» دونكم‏ «وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ» دوننا كما «وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» دونكم؟.

إن المحاجة في الدين هي حصيلة أحد أمرين: الاختلاف فيمن يعبد «وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ» او الاختلاف في: أيّ الأعمال أصلح و أقرب الى الرب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه أخرج ابن مردويه و الضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان بني إسرائيل قالوا يا موسى هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا اللّه فناداه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك فقل نعم ان اصبغ الألوان الأحمر و الأبيض و الأسود و الألوان كلها في صبغتي و انزل اللّه على نبيه‏ «صِبْغَةَ اللَّهِ ...»

أقول: و لكنها لا تعنى صبغة الألوان اللهم إلّا هامشا كخلق اللّه و منه الاصباغ كلها، حيث الصبغة هيئة خاصة من الصبغ فلا تعني- مبدئيا- كل صبغ.

و النصارى يشتغلون بصبغ أولادهم في سابع الولادة مكان ختان المسلمين، بغمسهم في الماء الأصفر المسمى عندهم بالمعمودية، و هو اسم ماء غسل به المسيح (عليه السلام)، فمزجوه بماء آخر و كلما استعملوا منه جعلوا مكانه ماء آخر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 173

«وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ» لا فحسب حتى نستوي فيها بل‏ «وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» معرفيا و عبوديا دون إشراك، فلما ذا- إذا- تحاجوننا؟! و لقد كانت اليهود و النصارى- كلّ- يختص الرب بنفسه بآصرة النبوة الإلهية المزعومة او النبوة الممتازة المدّعاة، فرد عليهم هذه التهوسة العمياء بأن ربوبيته- كأصل- هي بيننا و بينكم على سواء، ثم و نحن نختلف في مدارج الزلفى إليه حسب الأعمال و الإخلاص فيها، فمن هو أخلص منا للّه معرفيا و عمليا؟.

ثم إذا اختصت الهدى و الزلفى بمن كان هودا او نصارى، فما بال إبراهيم الخليل أهو كما نحن- في زعمكم- بعيد عن الهدى و أنتم به تنتسبون و تفتخرون؟:

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (141).

لقد كان هؤلاء قبل اختلاق اليهودية و النصرانية، فهل كانوا- بعد- هودا أو نصارى؟.

و عجبا من حمقهم في عمقهم أنهم كانوا يتفوهون بهذه الفرية الوقحة على هؤلاء الرسل الكرام! و تراهم ماذا يظنون بهؤلاء؟ أهم ضلّال لأنهم ليسوا هودا أو نصارى، أم هم هود أو نصارى؟ ثم اللّه مشتبه في أمرهم، و إنما يعرف الهدى هود او نصارى! «قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ»؟

و لقد كتموا شهادة إلهية تحمل بشارة محمدية: كتمانا عن أسرها، أم تحريفا في لفظها و معناها لحسرها عن معناها و أسرها عن محتواها فهم أظلم و أطغى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 174

«تلك» الكتلة الرسالية و الرسولية الصالحة، إسرائيلية و سواها «أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ» و مضت بإسلامها و أعمالها «لَها ما كَسَبَتْ» دونكم‏ «وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ» دونهم‏ «وَ لا تُسْئَلُونَ» أنتم- أيّا كنتم- «عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ» و أن ليس للإنسان إلّا ما سعى- و لا تزر وازرة أخرى.

[سورة البقرة (2): الآيات 142 الى 152]

سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى‏ عَقِبَيْهِ وَ إِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (143) قَدْ نَرى‏ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (146)

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (148) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ (152)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 176

سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (142).

جزء ثان من القرآن يبدأ فيه بهامة تحويل القبلة، مما أحدث عراكا حادا بين أهل القبلة و ناس سفهاء من اليهود و المشركين و منافقين من المسلمين، فريصة كفريسة حريصة عليها هؤلاء السفهاء من الناس بملابسات أحاطت به، سفسطة عارمة تواجهها حجة صارمة من رب العالمين:

«سيقول» المستقبل تستقبل تحويل قبلة الى أخرى و قوله سفيهة بعد التحويل، و «ما ولاهم» تساءل استنكار على ذلك التحويل بصورة التهويل و التسويل و «هم» يحتمل أنفسهم الى جانب سفهاء غيرهم ف «هم» تعم سفهاء من المشركين و أهل الكتابين و جهالا من المسلمين، و لكنما الخطر الحادق الذي سفّه جهالا من المسلمين هو سفاهة أهل الكتاب و لا سيما اليهود الذين كانت قبلتهم قبلة الإسلام لردح ابتلائي من الزمن.

لو كانت القبلة المتولى عنها في‏ «ما وَلَّاهُمْ» هي القدس الى الكعبة، زعم ان القدس هي القبلة المكية، لكان صحيح التعبير هو «و قال السفهاء» فان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 177

سفاسف القول و سفاهته من المشركين و ضعفاء المسلمين كانت أشد خطرا على الدعوة الجديدة الإسلامية في مكة.

فلتكن الآية نازلة قبل أي تحول عن القبلة المرضية- و هي الكعبة المباركة- و «سيقول ...» توطئة لتحولها الى القدس حيث يتبع قالة سفيهة من مشركين و يهود و ضعفاء من المسلمين، ثم تحول القدس الى الكعبة المباركة حيث يتبع قالة الآخرين و تقطع ألسنة المشركين.

فالتحويل الأول هو المحور لهذه السفاهة الثالوثية، و على ضوءه الثاني قضاء على سفاهة و بقاء الأخرى.

ثم‏ «وَ ما جَعَلْنَا ...» نازلة بعد التحويل الثاني فان‏ «الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها» التي يعتذر منها هي القدس، إذ لم يكن اتباع الرسول- كابتلاء للمسلمين- إلا في التحول عن الكعبة الى القدس، فان التحول عن القدس الى الكعبة كان مرجوا لهم ينتظرونه ليل نهار كما و الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) كان يقلب وجهه الى السماء.

و لم تكن الكبيرة الثقيلة عليهم إلا قبلة القدس المتحوّل إليها من الكعبة المباركة، ثم‏ «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ» طمانة لهم بالنسبة لفترة القبلة الثانية، زعما من بعضهم أن صلاتهم إليها كانت ضائعة.

ف‏ «ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ» من المسلمين، تعني- بطبيعة الحال- القبلة المكية، و كذلك من غيرهم حيث القبلة المتولى عنها هي قبلة المسلمين، فهي- على أي الحالين- ليست القدس، بل الكعبة المباركة، مهما شملت «ما ولاهم» التحويل الثاني ضمنيا، و هو من القدس الى الكعبة. ثم‏ «قُلْ لِلَّهِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 178

الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ» اجابة صارمة عن كافة المشاكل المزعومة حول النسخ و التحويل، سواء من أهل الكتاب أم سفهاء المسلمين ... أ ترى بعد «قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها» هي القدس؟ و صيغتها الصحيحة- و لا سيما من اليهود المتبجحين بقبلتهم و بكلّ ما لديهم-: «قبلتنا» توهينا للمسلمين أنهم ما كانت لهم قبلة في بزوغ إسلامهم إلا قبلتنا، و «قبلتهم» هي الكعبة المباركة التي كانت قبلة لهم في العهد المكي، ثم حولت عنها بعد الهجرة لمصلحة وقتية مذكورة في آيات تالية، ثم رجعت الى ما كانت للمصلحة الدائبة الخالدة في استقبال البيت العتيق، و قد دلت على ذلك أحاديث‏ «1».

أم إنها القدس إذ كانت قبلتهم منذ بزوغ الإسلام و حتى أشهر بعد الهجرة ثم حولت إلى شطر المسجد الحرام كما تدل عليه طائفة أخرى من أحاديث‏ «2»، و علّ التعبير عن القدس هنا ب «قبلتهم» يعني تعميق الشبهة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في الدر المنثور 1: 142 عن ابن عباس قال: اوّل ما نسخ في القرآن القبلة و ذلك ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لما هاجر الى المدينة و كان اكثر أهلها اليهود امره اللّه ان يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بضعة عشر شهرا و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يحب قبلة إبراهيم ...

و

فيه عن البراء بن عازب‏ كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قد صلى نحو بيت المقدس سنة عشر او سبعة عشر شهرا ...

و

عن ابن عباس‏ ان محمدا كان يستقبل صخرة بيت المقدس و هي قبلة اليهود فاستقبلها سبعة عشر شهرا ليؤمنوا به و ليتبعوه و ليدعوا بذلك الأميين من العرب فقال اللّه: و للّه المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه اللّه و قال: قد نرى تقلب وجهك في السماء

، و

عن سعيد بن عبد العزيز ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) صلى نحو بيت المقدس من شهر ربيع الاول الى جمادي الآخرة، و فيه عن انس ان القبلة قد حولت الى الكعبة مرتين. فمالوا كما هم ركوع الى الكعبة.

(2) كما

في الدر المنثور 1: 143- أخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب‏ ان الأنصار صلت للقبلة الأولى قبل قدوم النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) المدينة بثلاث حجج و ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) صلى للقبلة الاولى بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 179

في ذلك التحويل، أنها كانت قبلتهم منذ البداية، فهي- إذا- قبلتهم، مهما كانت كذلك قبلتنا، فهم لا يعارضوننا- فقط- في شرعتنا، بل و في شرعتهم، معارضة ذات بعدين بعيدين عن شرعة الحق التي لا تتحول- في قياسهم- نكرانا للنسخ- أيّا كان- و هم في الوقت نفسه معترفون بالشرعة الإبراهيمية المنسوخة في البعض من أحكامها بالشرعة التوراتية، و عارفون التناسخ في التوراة نفسها، و هم الآن ينددون بكل نسخ و ناسخ بعد التوراة! و علّ‏ «قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها» تشمل القبلتين، حيث كانت هي الكعبة ثم تحولت الى القدس، ثم من القدس الى الكعبة، و كلاهما «قبلتهم» إذ كانتا أمرا من شرعتهم، و لا صراحة في الآيات لإحداهما بل «سيقول» تعمهما مهما اختلفت قولة عن قولة كما اختلفت قبلة عن قبلة، ثم الأحاديث القائلة أنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أمر في العهد المكي أن يستقبل القدس من واجهة الكعبة «1» قد تجمع بين القبلتين في العهد المكي، و لكلّ من القبلتين ملامح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في تفسير البرهان 1: 158- ابو علي الطبرسي عن علي بن إبراهيم باسناده عن الصادق (عليه السلام) قال: تحولت القبلة الى الكعبة بعد ما صلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بمكة ثلث عشرة سنة الى بيت المقدس و بعد مهاجرته الى المدينة صلى الى بيت المقدس سبعة أشهر، قال: ثم وجهه اللّه الى الكعبة ...

(1).

المصدر عن ابن عباس‏ ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان يصلي و هو بمكة نحو بيت المقدس و الكعبة بين يديه و بعد ما تحول الى المدينة ستة عشر شهرا ثم صرفه اللّه الى الكعبة.

و

في تفسير البرهان 1: 158- الامام ابو محمد العسكري (عليه السلام) قال: ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذ كان بمكة أمره ان يتوجه نحو بيت المقدس في صلواتهم و يجعل الكعبة بينه و بينها إذا أمكن لم و إذا لم يمكن استقبل بيت المقدس فكان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يفعل ذلك طول مقامه بها ثلث عشر سنة فلما كان بالمدينة و كان متعبدا باستقبال بيت المقدس استقبله و انحرف عن الكعبة سبعة عشر شهرا او ستة عشر شهرا ...

و

في الدر المنثور 1: 175- أخرج احمد و ابو داود و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم-

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 180

في ذلك العهد من الآيات التالية، لا سيما بالنسبة للكعبة المباركة.

ف «سيقول» كقولة معترضة آتية من السفهاء، هي أحرى ان تكون «قال» لو أن القدس هي القبلة المكية، فإنها هي الأصيلة عند الموحدين و المشركين، فكون القدس- إذا- هي القبلة المكية هو مثار لسفاهة و سفاسفة القول أكثر من تحويل القبلة عن القدس إليها، و من ثم فكل من إلّا لنعلم ...

قد نرى تقلب وجهك ... لئلا يكون للناس عليكم حجة ... كل ذلك إضافة إلى أن مكية القدس في القبلة هي من الموانع العظيمة لقبول الإسلام لذلك القول اللدّ- لدّا إلى لدّهم!- هذه الخمس هي من عساكر البراهين لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة، مهما اتجه الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الى القدس من قبلها ضمنها أم لم يتجه، و تفصيل الأربعة الأخيرة تجده عند آياتها.

و على أية حال فلقد

جاء قوم من اليهود الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا: يا محمد! هذه القبلة بيت المقدس قد صليت إليها ثم تركتها الآن، أ فحقا كان ما كنت عليه؟ فقد تركته الى باطل! فإن ما يخالف الحق فهو باطل، أو باطلا؟ فقد كنت عليه طول هذه المدة! فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟ فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): بل ذلك كان حقا

و هذا حق يقول اللّه تعالى: قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ‏ إذا عرف صلاحكم يا أيها العباد في استقبال المشرق أمركم به و إذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، و إن عرف صلاحكم في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و صححه و البيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال: أحيلت الصلاة ثلاثة احوال و احيل الصيام ثلاثة احوال فامّا احوال الصلاة فان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قدم المدينة فصلى سبعة عشر شهرا الى بيت المقدس ثم ان اللّه أنزل عليه: قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها الآية فوجهه اللّه الى مكة هذا حول ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 181

غيرها أمركم به، فلا تنكروا تدبير اللّه في عباده و قصده الى مصالحكم ... «1»

و المشرق و المغرب هنا هما تعبيران عن كافة الجهات الأرضية، لأنهما النقطتان الأصيلتان، فليس المشرق: القدس- فقط- للّه، أو المغرب: قبلة النصارى- فقط- للّه، بل و الجنوب الكعبة فله الجهات كلها، يحوّل عباده في صلاتهم و كل صلاتهم أينما يريد لمصالح و ابتلاءات، كما و أن أصل تحول شرعة الى شرعة ابتلاء: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (5: 48). فكما أن قبلة القدس- في وقتها- صراط مستقيم لاتجاه الصلاة، كذلك الكعبة المباركة صراط مستقيم، بل هي الأصل المقصود على مدار الزمن الرسالي، و لا سيما الإسلامي، و قبلة القدس ابتلاء وقتي لمصلحة وقتية و قد مضت.

و قد اختلفت الروايات في عديد الأشهر المدنية لقبلة القدس من خمسة الى سبعة الى سبعة عشر، و لأن عديد الأشهر ليس من صميم قصته التحويل، لم تشر إليها الآيات و كما لم تصرح للقبلة المكية، فإنما الأصل في مسرح البحث هو تحويل القبلة، و أن أصلها هو الكعبة المباركة.

و لقد انطلقت أبواق اليهود السفهاء- و معهم سائر السفهاء من الناس مشركين و منافقين و مسيحيين- تصرخ على المسامع‏ «ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها» مرة أولى حين تحولت عن الكعبة الى القدس، و مرة أخرى إذ تحولت عن القدس الى الكعبة، انطلقت تلقي في صفوف المسلمين و في قلوب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذا من تتمة الحديث السابق عن الامام العسكري، و مكان النقط ... اربع عشرة سنة، فهو من القسم الثاني الدال على ان القبلة في مكة كانت هي القدس، و لكن باتجاه الكعبة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 182

السذج منهم بذور الريبة و القلقة، حيث النسخ- في زعمهم- دليل الجهل و هو لا يصدر عن مصدر الربوبية، دليلا على أن محمدا لا يصدر عن ربه!.

ذلك! رغم ما سبق في‏ «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ...» إذ بيّنت أن النسخ- على أية حال- تحمل مصلحة مماثلة أو خيرا مما نسخ، و قبلة الكعبة خير من قبلة القدس كأصل على مدار الزمن، كما و أن قبلة القدس كانت خيرا منها- مصلحيا وقتيا كاختبار- أو مثلها في أصل الاتجاه.

وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ... 143.

آية وحيدة تحمل صيغة الأمة الوسط، لا تشبهها إلّا آية الحج إلّا في لفظ الوسط: «وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ...» (78).

فهذه و إن لم تحمل صيغة الوسط، و لكنها تواصفه تفسيرا له أنهم هم الوسط بين الرسول و الناس، «و كذلك» التحويل للقبلة الأصيلة الى قبلة يهودية، خروجا عن العنصرية و الطائفية فيها، كذلك العبدى المدى، الوسيع الصدى، البليغ الهدى من صبغة الإسلام و إسلام الصبغة «جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ...» فما هو الوسط لهذه الأمة، و من هم المعنيون ب «كم أمة؟» أهم الوسط بين إفراط الحياة الجسدانية و تفريط الحياة الروحية، حيث الوسط بينهما جامع لهما مهما كانت الحياة الروحية هي الأصيلة بينهما؟.

و هذا مهما كان صحيحا في نفسه، و لكنه لا يناسب خلفيته الصريحة هنا:

«لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ» فإن هذه الوسطية تتطلب مرجعية الأمة الوسط لطرفي الإفراط و التفريط، لا أن تكون شهيدة عليهم، إلّا بمعني الرقابة على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 183

أعمالهم كشهادة خاصة! أم شاهدة عليهم في حقل الاعتدال، نبراسا لهم في ترك الانانية و الإنية الطائفية، و تحلّلا في شرعة اللّه عن الانحيازات غير الشرعية، اتباعا لأمر اللّه كيفما كان و إن في ترك المجد القبلي و القبلي، كما و أن الوسط اليهودي و النصراني لا يمت بصلة لهذه الوسطية الإسلامية لأنهما من أهل الكتب السماوية و هي كلها تحمل الشرعة المعتدلة الوسط، اللّهم إلّا بالنسبة لإفراط اليهود في الاتجاهات المادية، و تفريط النصارى فيها مبدئيا كنسيّا- مهما تورطوا في الماديات و أكثر من اليهود، و لكن «جعلناكم» يختص الوسط بجعل رباني و ليس الإفراط و التفريط يهوديا و نصرانيا من جعل اللّه! ... أم هم الوسط بين الرسول و الناس، كما ينادي به الانقسامات الثلاث: شهداء على الناس- الرسول الشهيد على الشهداء، و ناس، فطبيعة الحال قاضية هنا باختصاص للشهداء على الناس بهذا الرسول الشهيد عليهم.

فهل هم- بعد- كل الأمة الإسلامية؟ و فيهم بغاة و فساق طغاة! أم و عدول لا يصلحون للشهادة على الناس! «1» اللّهم إلّا شهادة على حق الوسط الاعتدال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 135 عن تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: قال اللّه: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ... فان ظننت ان اللّه عنى بهذه الآية جميع اهل القبلة من الموحدين، أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب اللّه شهادته يوم القيامة و يقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلّا! لم يعن اللّه مثل هذا من خلقه، يعني الأمة التي وجبت لها دعوة ابراهيم‏ «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» و هم الأمة الوسطى و هم خير امة أخرجت للناس.

أقول: فكما الرسول شهيد على الامة الوسط كذلك الامة الوسط شهيدة على الناس، و قد تعني الشهادة هنا كل مراحلها و لكنها محصورة في الشهادة على، من شهادة على الأعمال لكي تكون وسطا، و شهادة عليها إلقاء لها يوم يقوم الاشهاد فلا بد أولا من تلقّيها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 184

إن نفس الشهادة على الناس كوسط بين الرسول و الناس، يحد موقف الأمة الوسط، فهنالك شهادة متعدية بنفسها: شهده، و هنا «شهد على» ام شهادة له لصالحه كدعاية ذاتية، أم تمثيلا للكيان الرسولي؟ و هنا «شهد على».

ف «شهده» تتطلب حضورا عند العمل أيا كان، حضورا ذاتيا أم علميا، و لا يتيسّر إلّا للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و المعصومين من عترته! (عليهم السلام).

و «شهد له» محصورة في بعديها بالعدول الصالحين من الأمة المسلمة.

ثم و «شهد عليه» هنا في الدعاوي، تتطلب العدالة، و ليست الأمة- ككل- عادلة، و لا أن الآية تختص الشهادة بالدعاوي.

و «شهد عليه» هنا في الأعمال، تختص بالصالحين الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، دون كل الأمة و لا كل العدول، و تلك الدعوة- على شروطها- لا تختص بالأمة الإسلامية. و «شهد عليه»- إلقاء للشهادة على الأعمال يوم يقوم الأشهاد- يتطلب تلقيا لها هنا حضورا ذاتيا أو علميا بما يعلّمهم اللّه، و ذلك مخصوص بالمعصومين! ثم و لا تختص تلك الشهادة بخصوص المعصومين من هذه الأمة!.

و على كلّ فلا تعني الآية كلّ الأمة الإسلامية دون ريب، فقد تعني عدول الأمة حيث يمثّلون الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على قدر عدلهم بين الناس: مسلمين و سواهم، ثم و بأحرى العدول الدعاة من الأمة، الآمرة الناهية: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (57: 19) «1»، فهي مهما عمت كل المؤمنين، إلّا أن مؤمني هذه الأمة أعلى محتدا ممن سواهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 133 عن الكافي باسناده الى أبي جعفر الباقر (عليهما السلام) حديث طويل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 185

ثم في القمة، الائمة الاثنى عشر المعصومون (عليهم السلام)، فإنهم القمة العليا بعد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من الشهداء بكل معاني الشهادة و مغازيها و مراميها و لا سيما الشهادة على الأعمال و الأحوال، فالوسط في الأمة هي العدل على مراتبه و مراتبهم‏ «1» فلأن العدل في هذه الأمة أعدل منه في غيرها و أفضل، فكأن العدول منهم هم الشهداء- فحسب- على الناس، سواء ناس المسلمين او الكتابيين او المشركين و الملحدين، إلّا أن لكل شهادة أهلها الخصوص دونما فوضى جزاف.

فمؤمنو هذه الأمة شهداء على الناس شهادة ذاتية بأعمالهم و أحوالهم، و شهادة على كيان هذه الرسالة السامية، شهودا منه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على محتده الرسالي.

و الدعاة الى اللّه منهم شهداء على الناس رقابة على أعمالهم و أحوالهم، و دعوة لترقيتهم عن نقائصهم ممثلين للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في كل دعواتهم الصالحة.

و الائمة المعصومون منهم- إضافة الى هذه و تلك- هم شهداء على أعمالهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و فيه يقول: و لقد قضي الأمر أن لا يكون بين المؤمنين اختلاف و لذلك جعلهم شهداء على الناس ليشهد محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) علينا و لنشهد على شيعتنا و ليشهد شيعتنا على الناس.

(1).

الدر المنثور 1: 144- اخرج جماعات عدة عن أبي سعيد الخدري و أبي هريرة و ابن عباس و جماعة آخرين عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان «وسطا» في الآية تعني «عدلا» و العدل درجات كما بيناه في درجات الشهادات.

و

في نور الثقلين 1: 135 عن كتاب المناقب و في رواية حمران بن أعين عنه (عليه السلام) انما انزل اللّه‏ وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً يعني: عدولا- لتكونوا ... و لا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمة و الرسل (عليهم السلام)، فاما الأمة فانه غير جائز ان يستشهدها اللّه و فيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 186

و أحوالهم، بل و على كافة المكلفين على مدار الزمن الرسالي دون إبقاء «1».

فأعلى الوسط بين الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و بين الناس هم هؤلاء الأكارم، تمثيلا للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، كما هو، و تبيينا لشريعة الحق كما هي‏

«إلينا يرجع الغالي و بنا يلحق المقصر» «2».

كما و أن الشرعة الإسلامية هي الوسط المعتدل بين كل إفراط و تفريط مختلقين في كتابات السماء، فنفس تحوّل القبلة الى القدس ردحا من الزمن وسطية و اعتدال حيث تزال به العصبية القومية في القبلة، رغم ان القبلة الإسلامية هي الكعبة المباركة، بل هي القبلة في كل الشرائع الإلهية، فرغم كل ذلك يومر المسلمون قضاء على الانحيازية القِبلية و القَبلية ان يتجهوا الى القدس شطرا من العهد المدني، حال ان أهل الكتابين ليسوا تابعين قبلة بعضهم البعض رغم وحدة الشرعة التوراتية بينهم، فقد تعني «وسطا» كلّ هذه الأوساط، متمحورة الوسط المعصوم الرسالي المتمثل في الائمة الاثنى عشر (عليهم السلام) أجمعين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 134 في تفسير العياشي عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر (عليهم السلام) يقول: نحن نمط الحجاز، فقلت: و ما نمط الحجاز؟ قال: أوسط الأنماط، ان اللّه يقول:

وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً و ثم قال: إلينا

(2)

نور الثقلين 1: 134 عن اصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: نحن الامة الوسطى و نحن شهداء اللّه على خلقه و حججه في ارضه، و رواه مثله بريد العجلي عن الباقر (عليه السلام).

و

فيه عن المجمع روى الحاكم ابو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفضيل باسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن علي (عليه السلام): ان اللّه تعالى إيّانا فأعنى بقوله: لتكونوا شهداء على الناس فرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) شاهد علينا و نحن شهداء اللّه على خلقه و حججه في أرضه و نحن الذين قال اللّه تعالى: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 187

ثم ذلك الجعل يعم حقلي التكوين و التشريع، فكينونة هذه الأمة الأئمة و من دونهم من العدول، هي مجعولة بجعل رباني بما سعوا، كما و شرعتهم بما طبقوها فيما سعوا: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» تمثلا بالحقلين، جمعا بين الجعلين، فكما «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» بكلا الجعلين ثم جعل القدس قبلة مؤقتة ابتلاء للمسلمين و إزالة للفوارق الطائفية «وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ ...» أهل القبلة الواجبة لهم دعوة إبراهيم (عليه السلام).

و وسط الرأي في الأمة الوسط، بعيدا عن كلّ الانحيازات إلّا في حوزة الوسط و حيازتها، إنها هي الوسط بكل معاني الوسط مهما اختلفت درجاتها و صلاتها:

«أُمَّةً وَسَطاً» كمجعولة إلهية- في التصور و العقيدة، بعيدا عن غلو التجرد الروحي، و حمأة الركسة المادية، معطية لكلّ من الروح و الجسد حقه دون أي إفراط أو تفريط.

و وسطا في المشاعر و الإدراكات، دون تجمّد على حاضرها لتغلق عليها كل منافذ المعرفة تجريبيا أماهيه، و لا اتّباع أعمى لكل ناعق، بل هي منطلقة على ضوء الهدي القرآني و السنة المحمدية، قابلة كل ما يوافق هديها المعصوم و عقلها المقسوم و صراطها المرسوم.

«أُمَّةً وَسَطاً» في تنسيق الحياة، فلا تطلقها- فقط- للضمائر و المشاعر، و لا تدعمها- فقط- للتشريع و التأديب، و إنما ترفع ضمائرها بالتوجيه و التهذيب، فلا تكل الناس الى سوط السلطان و لا- فقط- الى وحي الوجدان.

«أُمَّةً وَسَطاً» في العلاقات الحيوية، لا تؤصّل الفرد فالمجتمع كهامش له‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 188

خادم، و لا تلغي شخصية الفرد تأصيلا للمجتمع، بل هما عندها أصلان، كلّ يخدم الآخر، ترجيحا لكفة ميزان المجتمع لأنه مجموعة أفراد.

«أُمَّةً وَسَطاً» في كل وسط و في جميع الأوساط، خارجة عن حدي الإفراط و التفريط، فوسطا في النهاية تتمحورها كل الأمم حيث تسدد البشرية بسلطتها المهدوية في آخر الزمن.

فلا تعني وسطا وسطا بين الأمم في الواقع الزمني للأمم، حتى يتعلق به متعلق ممن ينكر خاتمية الأمة الإسلامية، انها الوسط بين الأمم، فقد تأتي أمم رسالية بعدها.

فان «كذلك» و كذلك‏ «لِتَكُونُوا شُهَداءَ ...» تنفيان ذلك، حيث الوسطية بين الرسول و الناس هي غير الوسطية بين الأمم، فتلك الوسطية تقتضي الخاتمية لهذه الأمة، حيث الوسطية الزمنية ليست فخرا و لا مستلزمة لكونهم وسطا بين الرسول و الناس، فإنما يعني من «وسطا» هنا ما يناسب تحويل القبلة كشرعة معتدلة، أو يناسب الشهادة على الناس وسطا بين الرسول و بين الناس.

فما من شرعة حولت فيها القبلة كما حولت في شرعة الإسلام، و لا أمة وسط بين الرسول و الناس، هم شهداء على الناس كما الرسول شهيد عليهم، اللهم إلّا شرعة الإسلام بأمتها.

فتلك الشرعة البعيدة عن كافة الانحيازات و الامتيازات القبلية و العنصرية، هي الوحيدة بين كل شرائع الدين.

كما أن تلك الأمة الشهيدة على الناس هي الوحيدة بين كل الأمم الرسالية على مدار الزمن الرسالي، و النظر إلى الآيات السابقة يوسع تلك الوسطية، فإنها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 189

تلتزم بصبغة اللّه دون الصبغة اليهودية او النصرانية، و تلتزم يهدى اللّه تصديقا بكل رسالات اللّه و كل ما أنزل اللّه دون التجمد على طائفية كتابية: «وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (135).

و كما هو وسط في القبلة، لا خصوص الكعبة و لا خصوص القدس، بل هما معا مهما كانت الكعبة هي الأصيلة الدائبة، و كما كانت قبلة لكافة الموحدين أحياء و أمواتا طول الزمن الرسالي.

وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى‏ عَقِبَيْهِ ... 143

«وَ ما جَعَلْنَا ...» فيها بيان الحكمة الحكيمة لجعل القبلة الابتلائية السابقة، بلمحة أنها كانت مؤقتة لمصلحة وقتية، و كأن اللّه يعتذر فيها الى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من جعل تلك القبلة، و علّه لم يسمّها تخفيضا لشأنها أمام الكعبة المباركة، و لمحة في لمحات أن لم يبتدء الإسلام بها عند بزوغه، و إلّا كان الحق الصحيح و الفصيح ان يعبر عن القدس كقبلة و إن في مرة يتيمة، و لا نجد في القرآن كله بيت عبادة و متجه للصلوة إلّا الكعبة المشرفة، تارة ك «أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ»- و طبعا ليس للسكن، فإنما للطواف حوله و الصلاة تجاهه- و أخرى‏ «مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» و من مثابته: المقبل، إقبالا إليه حجا له، و استقبالا للصلاة إليه، و ثالثة يؤمر الخليل بتطهيره‏ «لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ» و هذه الثالثة المعبرة عن الصلاة تعم الصلاة فيه أم في المسجد الحرام، ثم في المعمورة كلها، و من ثم الكون كله، أن يستقبلوا البيت الطاهر عن قذارات خبيثة، و عن الرجس من الأوثان.

و لا موقع ل «لنعلم» إلا في ظرف التحول عن الكعبة الى القدس دون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 190

العكس فإنّه مرغوب لكل من أسلم، و الكبيرة إلّا على الذين هدى اللّه ليست إلا القدس المتحول إليها من الكعبة، فهذه من اللمحات اللمعات كصراحة أن القدس هي ثاني القبلتين.

و «نعلم» هنا هي من العلم العلامة، كما تشهد له وحدة المفعول و للعلم مفعولان اثنان‏ «1» ف‏ «الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها» و هي القدس، جعلناها قبلة بديلة عن القبلة الأصيلة، ردحا مؤقتا في بداية العهد المدني‏ «ما جَعَلْنَا ... إِلَّا لِنَعْلَمَ ...» علامة واقعية ظاهرة باهرة ل «مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ» () لى اللّه عليه و آله و سلم) حقا «مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى‏ عَقِبَيْهِ» جاهليا.

فلقد كانت العرب تعظّم البيت الحرام عربيا جاهليا، و لمّا آمن منهم من آمن و كانت قبلتهم إسلاميا هي قبلة مجدهم القومي، و لمّا يخلصوا و يتخلصوا عن آصرة القومية، أراد اللّه منهم أن يتجردوا في قبلتهم- كما في كل شي‏ء- إسلاميا، تخليصا حثيثا من كل تعلقة بغير المنهج الإسلامي، فابتلاهم في الفترة الأولى المدنية- و هم بين اليهود- أن يتحولوا إلى القدس‏ «لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ» كرسول لا كعربي، اتباعا مجردا من كل إيحاء غير إسلامي‏ «مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى‏ عَقِبَيْهِ» صراحا أم نفاقا عارما من هؤلاء الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم، أو لمّا، فإن فيها رواسب من الجاهلية الجهلاء، ليسوا ليستقبلوا قبلة اليهود، تاركين بيت مجدهم القومي القديم! فإنه الآن على أشراف تأسيس دولة إسلامية، لا تصلح لها إلا أعواد و أعضاد و أعماد صالحة، خالصة عن كل نزعة غير إسلامية، فليبتلوا بذلك البلاء العظيم، ليعرف الغثّ من السمين و الخائن من الأمين‏ «وَ إِنْ كانَتْ» «الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها» «لكبيرة» ثقيلة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في آيات عشر او تزيد نجد هذه الصيغة مصوغة من العلم لا العلم، و في الكل نجد مفعولا واحد لا يناسب العلم المتطلبة مفعولين، فلا حاجة الى تعليلات عليلة لها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 191

«إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ» بما اهتدوا بهدى اللّه، بعيدين عن كل هوى إلّا هوى اللّه و هدى اللّه، و «إن ناسا ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة هاهنا و مرة هاهنا» «1».

و هكذا تتجرد القلوب متخلصة من كل رواسب الجاهلية و وشائجها، و من كل سماتها القديمة و وصماتها، و من كل رغائبها الدفينة، متعرية من كل رداء لبست في الجاهلية و لمّا تخلعها مهما ادعت خلعها، فتنفرد هذه القلوب لشعار الإسلام و شعوره تاركة كلّ شعور و شعار لغير الإسلام.

إن العرب كانت تعتبر- و لا تزال- أن الكعبة المباركة هي بيت العرب المقدس، و اللّه يريد لها منهم ان تكون بيت اللّه المقدس «مثابة للناس و قياما للناس- سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ» دون تميّز لقوم، و لا تمييز بين عربي و أعجمي.

و مهما كان الانخلاع- و ان مؤقتا- عن‏ «أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» الذي رفع قواعده الخليل و عظّمه الجليل- مهما كان «كبيرة» لكنها على من لم يهدي اللّه‏ «وَ إِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ».

ثم وردّا على غيلة السفهاء من الناس- القائلة-: إذا فصلوات الذين صلّوا إلى الكعبة طيلة العهد المكي باطلة- إذا كانت القبلة هي القدس- أم و صلوات الذين صلوا إلى القدس باطلة حين حولت القبلة عنه إلى الكعبة المباركة، و كما «قال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة كيف بصلاتنا نحو بيت المقدس» فأنزل اللّه‏ وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ‏. 143

هنا تسمى الصلاة نحو القبلة الشرعية- كعبة أو قدسا- إيمانا، لأنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 146- اخرج ابن جرير عن ابن جريح قال: بلغني ان ناسا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 192

قاعدة الإيمان و عمود الدين، و أنها كانت بنزعة الإيمان، فالذين صلوا نحو القدس تركا لبيت مجدهم القديم لم يصلوا نحوه إلّا إيمانا باللّه و احتراما لأمر اللّه، بل و صلاتهم أقرب إلى اللّه زلفى ممن صلوا من قبل و من بعد إلى المسجد الحرام، فكيف يضيع اللّه إيمانهم و هو الذي أمرهم باستقبالهم نحو القدس‏ «لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى‏ عَقِبَيْهِ» فهل إن علامة اتباع الرسول ضائعة عند اللّه؟! ... هنا «إِلَّا لِنَعْلَمَ» هي ثاني التأشيرات بعد «ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ» تأييدا لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة، حيث العلامة هذه تحصل في بداية الفترة المدنية، دون حاجة الى هذه الطائلة المكية المزعومة بلا طائلة: أربعة عشر سنة، فلو أنهم أمروا في العهد المكي باتجاه القدس- و لم تكن فيه يهود ليزدادوا ابتلاء بهم- لكان ذلك رادعا عن إسلامهم، و هم قوم لدّ ليسوا ليؤمنوا بكل الجواذب و التبشيرات، فكيف كان لهم ان يؤمنوا و هم يفاجئون في بزوغ الدعوة بترك القبلة المكية، و ما هو الداعي لتكون القبلة المكية هي القدس إلّا صدا عن دخولهم في دين اللّه بداية الدعوة؟ ثم و لم ينقل و لا مرة يتيمة أن جماعة من العرب امتنعوا عن الإسلام لأن قبلته متخلفة عن الكعبة المباركة، و لا أنه كان يصلي إلى القدس في مكة متحولا عن الكعبة! ... و لو كانت القبلة في العهد المكي هي القدس لشملت قصتها الكتب و تواترت في الألسن، و نقلت اعتراضات متواترة من عرب الحجاز على هذه القبلة!.

ثم و إن هوى أهل مكة كان في الكعبة فأراد اللّه ان يبين متبع محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ممن خالفه باتباع القبلة التي كرهها و محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يأمر بها «1» لا يشبه حديث الحق، فإن مجال مخالفة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 114 في كتاب الاحتجاج‏ قيل يا ابن رسول اللّه فلم امر بالقبلة الاولى؟ فقال:

لما قال عز و جل‏ وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها و هي بيت المقدس‏ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 193

الهوى في شرعة الحق- و بهذه الصورة القاسية- ليس في غضون الدعوة التي تتطلب لينة و جاذبية لهؤلاء القوم اللّدّ!، و البداية بقبلة القدس هي من أعضل المشاكل صدا عن دخولهم في دين اللّه!.

نعم قد يروى شطر قليل من العهدين لقبلة القدس أن صلينا مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهرا و صرفت القبلة الى الكعبة بعد دخوله الى المدينة بشهرين ... «1» و هو وسط بين الأمرين، و فيه محنة لأهلي البلدين في العهدين.

هذا- و أما القبلة المدنية في بداية الهجرة فالجوّ اليهودي فيها كان يزيد ابتلاء لتحول القبلة إلى القدس، فبرزوا بارزين من الناجحين في ذلك الامتحان العظيم كأعضاد للدولة الجديدة.

ثم لا معنى ل «لنعلم» في تحول القبلة، إلا في تحولها عن الكعبة الى القدس، حيث اتباع من اتبع الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ليس علامة الإيمان إلا هنا، و أما اتباعه في التحول الى الكعبة بعد القدس فهو رغبة المسلمين أجمع، و حتى أهل الكتاب الذين اسلموا فضلا عن أهل الحرم!.

قَدْ نَرى‏ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الرسول ممن ينقلب على عقبيه الا لنعلم ذلك منه وجودا بعد ان علمناه سيوجد، و ذلك ان هوى ... و لما كان هوى اهل المدينة في بيت المقدس أمرهم بمخالفتها و التوجه الى الكعبة ليبين من يوافق محمدا فيما كرهه فهو يصدقه و يوافقه ... فعرف ان الله يتعبد بخلاف ما يريده المرء ليبتلي طاعته في مخالفة هواه ...

أقول: تفسير «لنعلم» يشبه تفسير المتفلسفين، ثم و سائر مواضيع الحديث يشبه التقاطات ملفقة بين حق و باطل.

(1). الدر المنثور 1: 146- اخرج ابن ماجة عن البراء قال صلينا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 194

144.

لقد بلغت محنة الامتحان في قبلة القدس لحدّ يتقلب وجه الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في السماء، نظرة الأمر بتحول القبلة الممتحن بها إلى القبلة الأصيلة التي يرضاها، فمهما يرضى كلما يرضاها اللّه من قبلة، و لكن الكعبة المباركة هي أوّل بيت وضع للناس مباركا و هدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم، و هي مثابة للناس و قيام، فهذه جهة من رضاه بها، و أخرى هي انتهاء أمد الابتلاء بقبلة القدس، و ثالثة ان اليهود يحتجون عليه و على المسلمين بهذه القبلة، إذا ف «ترضاها» لا تعني إلّا مرضات اللّه، إذ «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ» (76: 30) كما و لا تعني سخطه لقبلة القدس، فإنما هو سخط لاستمرارية الحجة اليهودية على المسلمين، زعزعة في إيمانهم، و زحزحة عن إيقانهم و كما قال اللّه: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ... ثم «التقلب» دون «التقليب» تلمح أنه ما كان يقلّب وجهه، و إنما يتقلب وجهه أتوماتيكيّا في السماء كما كانت تقتضيه الحالة الرسالية الأخيرة، الناظرة للقبلة الأصيلة ... ثم‏ «قَدْ نَرى‏ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ» هي ثالثة التأشيرات لكون القبلة المكية هي الكعبة المباركة، إذ كان الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يحبها منذ عرف نفسه و منذ أرسل، فهل كان يتقلب وجهه في السماء طيلة العهد المكي إضافة الى ردح من المدني: أربعة عشر سنة؟ و صيغته الصالحة «تقلبات وجهك» تدليلا على التكرار و الاستمرار، دون‏ «تَقَلُّبَ وَجْهِكَ» اللّامح إلى مرة يتيمة جديدة جادّة، عرف الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فيها أن الامتحان حاصل، و أمر التحويل الى المسجد الحرام على الأشراف، و لكنه لم يتفوه بدعائه و استدعائه لذلك التحول، فإنما إشارة الانتظار بتقلب وجهه في سماء الوحي نظرة نزول رسول الوحي حاملا تحويل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 195

القبلة ... «قَدْ نَرى‏ ... فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها» هي الكعبة المباركة التي أنا أرضاها، بعد الفترة الابتلائية المدنية لقبلة القدس‏ «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

كل ذلك يشي بتلك الرغبة القوية الرقيبة الظروف المؤاتية لتحول القبلة بعد ما كثر حجاج اليهود و لجاجهم، إذ وجدوا في اتجاه المسلمين الى قبلتهم في تلك الفترة الخطيرة، وسيلة للتمويه و التضليل و البلبلة و التجديل، فأخيرا- و لما أحسن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بخاتمة البلية، أصبح يقلب وجهه في السماء، دون أن يصرح بدعاء «1» حرمة لأمر ربه على إمره، و تحرجا من اقتراح مبكّر ليس في وقته، فأجابه ربه فور تقلب وجهه‏ «فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها ...» «2» و لقد أمر بتلك التولية و هو يصلي في المسجد المسمى لذلك ب «القبلتين» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 114 في تهذيب الأحكام الطاطري عن محمد بن أبي حمزة عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سألته عن قوله عز و جل‏ وَ ما جَعَلْنَا ... أمره به؟ قال: نعم ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان يقلب وجهه الى السماء فعلم اللّه عز و جلّ ما في نفسه فقال: «قَدْ نَرى‏ ...».

(2) فالروايات القائلة انه دعى مقترحا بوسيط ملك الوحي ترجع الى رواتها، كما

يروى عن الامام العسكري (عليه السلام) ... و جعل قوم من مردة اليهود يقولون: و اللّه ما ندري محمد كيف يصلي حتى صار يتوجه الى قبلتنا و يأخذ في صلوته بهدينا و نسكنا و اشتد ذلك على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لما اتصل به عنهم و كره قبلتهم و أحب الكعبة فجاء جبرئيل فقال له رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يا جبرئيل لوددت لو صرفني اللّه عن بيت المقدس الى الكعبة فقد تأذيت بما يتصل بي من قبل اليهود من قبلهم، فقال جبرئيل (عليه السلام) فاسأل ربك ان يحولك إليها فانه لا يردك عن طلبتك و لا يخيبك من بغيتك، فلما استتم دعائه صعد جبرئيل ثم عاد من ساعته فقال اقرء يا محمد «قَدْ نَرى‏ ...».

و

في المجمع عن القمي عن الصادق (عليه السلام): ... ثم وجهه اللّه الى مكة و ذلك ان اليهود كانوا يعيّرون على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقولون: أنت تابع لنا تصلي الى قبلتنا فاغتم رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من ذلك غما شديدا و خرج في جوف الليل ينظر إلى آفاق السماء ينتظر من اللّه في ذلك أمرا فلما أصبح و حضر وقت صلاة الظهر كان في مسجد بني سالم و قد صلى من الظهر ركعتين فنزل جبرئيل (عليه السلام) فأخذ بعضديه و حوّله الى الكعبة و انزل عليه‏ «قَدْ نَرى‏ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ ...» فكان قد صلى ركعتين الى بيت المقدس و ركعتين الى الكعبة فقالت اليهود و السفهاء «ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كانُوا عَلَيْها».

(3) و

في نور الثقلين 1: 114 عن أحدهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 196

«فَوَلِّ وَجْهَكَ» عن القبلة المؤقتة الابتلائية «شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» كأمر يختصه تشريفا لسماحته و تعظيما لساحته، ثم أمر يعم المسلمين كافة: «وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» فما هو الشطر القبلة هنا، و هل هو قبلة- فقط- للنائين، أم و للقريبين إلى المسجد الحرام، أم و الكائنين فيه أمام الكعبة المباركة؟.

الشطر- لغويا- هو نصف الشي‏ء و وسطه، و هو نحو الشي‏ء «1» وجهته، و هو بعده، و يجمعهما جانب الشي‏ء إما بجنبه داخليا و هو نصفه، أم خارجيا و هو نحوه بعيدا عنه. فهل هو بعد: البعض؟ و لم تأت في اللغة كبعض! و المعنى- إذا- بعض المسجد الحرام، فتراه أيّ بعض هو؟ أهو أي بعض منه؟ و تعبيره الصحيح‏ «الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» دون شطره، أم شطرا من المسجد الحرام، فان‏ «شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» يعني شطرا خاصا منه!، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في حديث القبلة قال: ان بني عبد الأشهل أتوهم و هم في الصلاة و قد صلوا ركعتين الى بيت المقدس فقيل لهم ان نبيكم قد صرف إلى الكعبة فتحول النساء مكان الرجال و الرجال مكان النساء، و صلوا الركعتين الباقيتين الى الكعبة فصلوا صلاة واحدة الى قبلتين فلذلك سمي مسجدهم مسجد القبلتين.

(1).

عن تفسير النعماني باسناده عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) في الآية قال: معنى شطره نحوه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 197

الشطر العام هو طبيعة الحال لمستقبله، إذ لا يمكن لأي أحد أن يستقبل كل المسجد الحرام!.

أم هو شطر خاص و لا أخص من الكعبة؟ فلما ذا- إذا- شطر المسجد الحرام دون «الكعبة» و هي أصل القبلة! ثم و عين الكعبة لا يمكن أن تكون هي القبلة للنائي!.

أم هو نصف المسجد الحرام؟ فهل هو أيّ نصف منه؟ فلما ذا- إذا- نصفه لا نفسه حيث تعني أي نصف منه ثم و تعبيره الصحيح «شطرا من المسجد الحرام» ثم و كيف يولي وجهه نصفه؟ و لا يولّى إلّا جزءه قدر الوجه لو أمكن! ثم لا يتمكن البعيد أن يولي وجهه لا نصفه و لا بعضه! ... أم هو منتصفه «الكعبة» و هو غير النصف! ثم صالح التعبير عنه «الكعبة» دون منتصف المسجد الحرام، ثم و نفس الكعبة لا يمكن أن تكون قبلة النائين!.

أم هو نحوه و جانبه؟ و ذلك هو الصحيح، و تعبيره ذلك الفصيح! فليس بإمكان النائي أن يولي وجهه إلّا نحوه حيث يسع بين المشرق و المغرب و كما في الأثر المستفيض «بين المشرق و المغرب قبلة».

و «حَيْثُ ما كُنْتُمْ» يعني خارج الحرم، أم- و بأحرى- خارج مكة، و السند «وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ» يعني من مكة، و ليس‏ «حَيْثُ ما كُنْتُمْ ...»

تكرارا، حيث الأول خطاب لخصوص الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قد يظنّ ان حكمه يخصه، و الثاني يعم عامة المسلمين، ثم «فول» لا تدل على ان القبلة هي‏ «شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» أينما كانوا و «حَيْثُ ما كُنْتُمْ» تصريحة لشمولية الجهات، ثم الوجه- و هو ما يواجه أو يواجه- هو بأقل تقديره ثلث الدائرة، فالوجه المولّى و شطر المسجد الحرام المولى إليه، هما يصدّقان «بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 198

المشرق و المغرب قبلة» و الكل مصدّق ب‏ «لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ».

ثم الوجه هنا لا يخص خصوص الوجه، بل و كل مقاديم البدن، فلتوجّه كلها نحو المسجد الحرام، فان للوجه وجوها حسب المولّى إياه، فوجه القرائة هو البصر، و وجه الوضوء هو كل الوجه، و وجه الاتجاه لجهة سفرا أو صلاة هو كل وجوه البدن، اللهم إلّا اليد فإنها لا وجه لها، أم لا وجه لتوجيه وجهها المسجد الحرام.

و ليست هذه التوسعة إلّا رعاية للسعة في الاتجاه نحو الكعبة المباركة، فالمتمكن لاستقبال عين الكعبة يستقبلها، ثم المتمكن لاستقبال المسجد الحرام يستقبله، و من ثم استقبال شطر المسجد الحرام، المحدّد بما بين المشرق و المغرب باتجاه الجنوب من كل أنحاء الكرة الأرضية، كما و أن الكرة الأرضية ككل هي‏ «شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» لسكان سائر الكرات!.

و هذه طبيعة الحال في زاوية الاتجاه الى قبلة و سواها، فكلما ابتعد مكان الاتجاه عنها انفرجت زاويتها لحدّ يصدق أن «ما بين المشرق و المغرب قبلة» و هي الزاوية المنفرجة حسب انفراج المستقبل بعدا عن القبلة.

ف‏ «شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» و هو ناحيته وجهته، ليس له حدّ خاص، بل هو حسب بعد الجهة يتشطر أكثر، كما في قربها تنقلب منفرجة الزاوية الى قائمة و الى حادة، و كل ذلك حسب امكانية الاتجاه كالعادة المستمرة، مهما هندست واجهة القبلة في عصر العلم بما يقرب شطر المسجد الحرام، إلّا أن رعاية الجهة المهندسة ثابتة شرط ألّا يكون عسر أو حرج.

و من لطيف أمر السعة في القبلة إضافة سعة الوجه للمستقبل الى سعة المواجهة للقبلة، فالوجه هو ثلث الدائرة، و شطر المسجد الحرام هو الجهة التي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 199

فيها المسجد الحرام، فالاتجاه بجزء من الوجه في زاوية قدرها (60) درجة، نحو المسجد الحرام كلما صدق عليه زاوية الاتجاه، ذلك هو فرض النائي، و النتيجة كما في المستفيضة «ما بين المشرق و المغرب قبلة» يعني جهة الجنوب و هي قرابة تسعين درجة، خارجا عن نقطة الشرق و الغرب، ما صدق أنه جهة الجنوب.

وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144).

«أَنَّهُ الْحَقُّ» علّه‏ «شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» كقبلة، و بأحرى الكعبة المباركة كقلب القبلة، أم و هو الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لسابق ذكره، إذا فقبلته حقّ ضمن رسالته، أم هما معنيان على البدل و الأصل هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، و تراهم كيف يعلمون أنه الحق من ربهم؟ قد تعني أن السنة الكتابية هي النسخ ابتلاء و تدريبا، فكما أن سائر كتابات السماء فيها نسخ ما قل أو كثر، فليكن كذلك القرآن!، أم إن معرفة كتابات الوحي تحمل على تصديق القرآن كواحد منها لأقل تقدير، فليصدّق- من ضمنه- البيت كقبلة!.

أم و لأن في هذه الكتابات تأشيرات أم تصريحات بالكعبة المباركة كقبلة إسلامية أم و أممية إلّا شطرات في تاريخ الرسالات.

و منها ما في (أشعياء 56: 8) حسب الأصل العبراني: «كي بيتي بيت تفيلا ييقارء لخال هاعميم» «بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الشعوب».

مع العلم ان «بيتي» صيغة خاصة للكعبة المباركة، و لم تستعمل بهذا الإختصاص إلّا فيها.

وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 200

قِبْلَتَهُمْ وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145).

«الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» تعم كافة اهل الكتاب في الرسالات الكتابية على مدار الزمن، فالانحيازات الكتابية- ككلّ- من جهة- إلّا من آمن- و العنصرية الإسرائيلية بوجه خاص، ثم الطائفية الكتابية في الرسالة الإسرائيلية بوجع عام، هما من الموانع لأن يتبعوا قبلتك- إلّا قليلا منهم- و ان أتيتهم بكل آية بينة، ثم‏ «وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ» سنادا إلى حجة الوحي الصارم، و قبلة القدس المؤقتة لم تكن متبوعة لك كقبلة يهودية، و انما «لنعلم ...» و ليعلم أهل الكتاب انك لست جامدا على قبلة عنصرية أم طائفية ف‏ «ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ» تنفي هذه التبعية بأمر اللّه- فضلا عن سواه- من الحال حتى آخر زمن التكليف، فهي عبارة أخرى عن انها- بعد- لا تنسخ، قطعا لآمال أهل الكتاب، و صدا عما يخلد بخلد الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من التحول الى قبلة القدس تقريبا لأهلها الى الإسلام.

ذلك! و كما نفت- عما سلف من قبلة القدس- إتباعه لها لمجرد هوى أهلها، فانه اتباع لأمر اللّه في مصلحة وقتية، ثم هنا مقابلة بين حق القبلة و باطلها، فهم‏ «ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ» سلبا باطلا «وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ» سلبا حقا.

ثم و كيف بالإمكان اتباع قبلتهم و هي بين القدس و المشرق، فاتباع كلّ رفض للآخر، فليترك اتباع الأهواء المختلفة- المستحيل تحقيقها- إلى اتباع هدى اللّه.

ثم‏ «وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ» فالبعض اليهود مستقبلون القدس على طول الخط دون تحول الى شرق المسيحي، و البعض المسيحي مستقبلون الشرق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 201

دون تحول الى القدس، أ فأنت تهوى- بعد- ان تتبع أهواءهم في اتباع قبلتهم لفترة أخرى حتى يتبعوا قبلتك؟.

فحتى و لو اتبع بعضهم قبلة بعض، و أصبحت القبلة الكتابية واحدة، ف‏ «ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ» إذ قضي أمر التحويل تمييزا لأهل الحق عن غير أهله.

ثم اليهود و النصارى على وحدتهم في تكذيبك هم مختلفون في قبلتهم، فكيف يرجون أن تتبع قبلتهم؟!.

«وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» في أيّ من الطقوس الكتابية «إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» بحق الشرعة الإلهية، بعد ما كنت من العادلين في استقبال القبلتين.

هنا «و لئن ...» تلمح أن الرسول كان يودّ- بعنوان ثان- التحول الى قبلة القدس فترة أخرى رغبة في تميّل اليهود إلى الإسلام، إذا ف‏ «قِبْلَةً تَرْضاها» لا تعني انه لا يرضى القدس، و إنما هو لو خلّي و نفسه كان يرجّح الكعبة المباركة، و هو- كضابطة رسالية- يحب ما أحبه اللّه ثم‏ «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» هنا هم العارفون بما في الكتاب من حق هذه الرسالة الأخيرة، ثم‏ «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» لا و عوامهم المشتبهون باتباعهم إلّا الصامدون في تقليدهم الأعمى، و لا كل علماء الكتاب، فالذي يجحد بالحق و هو على علم به بأدلته، ليس ليتحول عن نكرانه له بأدلته، فهو من الذين‏ «زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» امتناعا لاتباع هذه القبلة باختيار.

و هنا «مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» تشديد على العلماء في مسئولية الحفاظ على ما يعلمونه حقا، و تنديد بهم إن تركوها كأنهم لا يعلمون، فالإقدام على أمر جهلا هو أقل مسئولية من الإقدام عليه بتخلف علما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 202

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (146).

إيتاء الكتاب هنا هو الإيتاء معرفيا، دون مجرد الانتساب انه كتابي و لا يعلم الكتاب إلّا أماني.

و «يعرفونه» بعد «آتَيْناهُمُ الْكِتابَ» دليل أن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) معروف لديهم في الكتاب كمعرفة الأبناء- و هي قمة المعرفة المعروفة- حيث الضمير راجع اليه دون القرآن، فان تعبيره الصحيح- إذا- كما يعرفون كتابهم، كما و نجد نفس الآية في الأنعام بنفس المعنى و نفس السند:

«الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» (20).

و لماذا «أبناءهم» دون «آباءهم- أو- أمهاتهم»؟ لأن كلا من الأبوين يعرف ما ولده دونما استثناء، و قد لا يعرف الولد من ولّده، إذ ولد بعد موته أم مات في صغره، إذا فأعرف التعريف بهذا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في معرفة أهل الكتاب هو «كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ».

و يا له من معرفة نظرية بمواصفة كتابية، تشبه معرفة حسية في قمتها، و هم له منكرون، مؤوّلين اسمه المذكور في كتبهم تارة بغير اسمه؛ و صفا أو فعلا، و مسقطين له عن الترجمات أخرى، و ناظرين محمدا غيره ثالثة دون حجة عليه إلّا أنه غير إسرائيلي، و قد جاء بما لا تهوى أنفسهم، و هو مذكور باسمه و رسمه و مولده و نسبه و حسبه و لكن لا حياة لمن تنادي.

و جوابا عن سؤال: مهما بلغت البشارات الكتابية بحق الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) واضحة، لم تأت بمعرفة له كما يعرف الأبناء، فان هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 203

حسية لا ريب فيها، و تلك بالاسم و المواصفة و قد تعترضها ريبة؟

نقول: «يعرفونه» دون «عرفوه» مما يدل على معرفة لا حقة بعد ظهوره بآيات صدقة فإنها كافية لتصديقه رسولا مهما لم تكن هناك معرفة سابقة، و حين تجتمعان لأهل الكتاب في مثلث: البشارات الكتابية- مماثلة الوحي الكتابي في قرآنه- بينات رسالته، فهم- إذا- يعرفونه كما يعرفون أبناءهم دون أية ريبة و شبهة «وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ» الناصع اللّامع‏ «وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» أنه الحق و أنهم كاتموه.

و قد جاء في الأصل العبراني من كتاب هوشع الآية (7): «بائوا يمي هفقوداه بائوا يمي هشلون يدعو ييسرائل إويل هنابي مشوكاع إيش هاروح على رب عونحا و رباه مسطماه»-:

«تأتي أيام التمييز، تأتي أيام الجزاء سيعلم إسرائيل أن النبي السفيه و رجل الروح مجنون لكثرة إثمك و شدة الحنق»- أجل‏ «وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ»! و قد جاءت في ترجمة أخرى عنها: «بنو إسرائيل يعلمون و يعرفون ان النبي الأمي المصروع صاحب روح الهامي و صاحب الوحي» و قد قال ربي حييم و يطال في كتابه «عصحييم» إن القصد من النبي الأمي هنا هو محمد بن عبد اللّه الذي بعث في زمن عبد اللّه السلام.

و يا لعبد اللّه السلام من سلام حين يجيب السائل عن هذه الآية: «لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني إذ رأيته مع الصبيان و أنا أشد معرفة بمحمد مني بابني ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 147- اخرج الثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس قال: لما قدم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد اللّه بن سلام قد انزل اللّه على نبيه‏ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ‏ فكيف يا عبد اللّه هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 204

أجل و هم‏

«يعرفون محمدا و الولاية في التوراة و الإنجيل كما يعرفون أبناءهم في منازلهم» «1».

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147).

و ليس ذلك الخطاب- كأمثاله- يعني ان الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- و عوذا باللّه- كان من الممترين في الحق من ربه، فإنما ذلك له تثبيت، و للممترين من أهل الكتاب تتبيب، و لكلّ دعاية ضالة تمويت و تفويت.

«الحق» كله «من ربك» الحق الرسالي بالقرآن الحكيم الذي هو كل الحق، المحلّق على كل حق، إنه «من ربك» لا سواه‏ «فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المعرفة؟ فقال عبد اللّه بن سلام يا عمر: ... فقال عمر كيف ذلك؟ قال: انه رسول اللّه حق من اللّه و قد نعته اللّه في كتابنا و لا ادري ما تصنع النساء، فقال له عمر: وفقك اللّه يا ابن سلام.

و فيه اخرج الطبراني عن سلمان الفارسي قال: خرجت أبتغي الدين فوقعت في الرهبان بقايا اهل الكتاب قال اللّه تعالى: يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ‏ فكانوا يقولون: هذا زمان نبي قد أطل يخرج من ارض العرب له علامات من ذلك شامة مدورة بين كتفيه خاتم النبوة.

(1).

نور الثقلين 1: 138 في اصول الكافي عن الأصبغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه يقول: فاما أصحاب المشأمة فهم اليهود و النصارى يقول اللّه عز و جل‏ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ ... و ان فريق منهم ليكتمون الحق و هم يعلمون. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ‏ أنك الرسول إليهم‏ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ‏

و

فيه في تفسير القمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: نزلت هذه الآية في اليهود و النصارى يقول اللّه تبارك و تعالى‏ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ‏ يعني رسول اللّه‏ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ‏ لأن اللّه عز و جل قد انزل عليهم في التوراة و الإنجيل و الزبور صفة محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و صفة أصحابه و مبعثه و مهاجرته و هو قوله تعالى‏ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ‏ فهذه صفة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في التوراة و الإنجيل و صفة أصحابه، فلما بعثه اللّه عز و جل عرفه أهل الكتاب كما قال جل جلاله‏ فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 205

فيه، و ذلك إيحاء صارم الى من وراءه من المسلمين تثبيتا، و الى الناكرين من أهل الكتاب تتبيبا، ثم و متعلّق الامتراء ليس يختص بأصل رسالته، أم و قبلته، بل و أنهم يكتمون الحق و هم يعلمون، إذ كانوا يرتابون فيه كأنهم لا يعلمون، أم هم شاكون‏ «فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» أنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم، و أنهم يكتمون حقك و هم يعلمون.

وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (148).

هنا محتملات حسب عديد الاحتمالات أفضلها جمعها ما لم تطارد أدب اللفظ و المعنى: «و لكلّ» من الناس: ملحدين و مشركين و كتابيين و مسلمين- أم «لكلّ» من الثلاث الآخرين، او الآخرين، أم المسلمين.

«وجهة» قلبية أو قالبية، فالثانية هي القبلة لدعاء و صلاة، و الأولى هي لكل الحالات و الصّلات.

«هو» اللّه «موليها» أياها، أم «هو» صاحب الوجهة مولي نفسه أياها، و هذه ستة عشر وجها في الوجهة المولاة، تضرب في استباق الخيرات مادة و مدة و عدة و عدة فهي (64) احتمالا، و الأصل في معارك الوجهات و الاتجاهات هو «فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ» في كل المجالات، فمهما كانت وجهة الملحدين الماديين هي المادة قلبا و قالبا، و وجهة المشركين- كذلك- هي الآلهة المختلفة المختلقة، و وجهة الكتابين قبلة هي القدس و المشرق، و روحية هي مختلف اتجاهاتهم في شرعة اللّه، و وجهة المسلمين كقبلة قدسا لفترة و كعبة على طول الخط، و في كلّ جهات حسب مختلف الواجهات في المعمورة و سواها، و الوجهة الروحية حسب مختلف المذاهب و الاجتهادات «هو» اللّه «موليها» تكوينا و تشريعا، و «هو» صاحبها «موليها» اختيارا دونما اضطرار ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 206

«فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ» و «سابِقُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ...» (57: 21) في ذلك المسرح الواسع الحافل بمختلف الوجهات و الواجهات، و «الخيرات» هي التي يولّيها اللّه إياكم دون سواه، فاجعلوا الحياة ميدان سباق في الخيرات كلها، في كل وجهة و اتجاهة قلبية و قالبية، استباقا في موادها و مددها و عددها و عددها، فإن استباق الخيرات و المسارعة فيها هي بعدها كأصل أصيل في الحياة، فرضا أو نديا: «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» (3: 114)- «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ. وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى‏ رَبِّهِمْ راجِعُونَ. أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ. وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها ...» (23: 62).

إن استباق الخيرات و المسارعة فيها أصل حيوي تحلق على كافة النشاطات الصالحة للصالحين، يتسابقون في الخيرات ما استطاعوا، و يسارعون فيها ما استطاعوا، و من أفضل الخيرات الصلاة، و استباقها يعم ظاهرها و باطنها و قبلتها كما هو مولّيها، و زمانها و مكانها كما أمر اللّه، مجردة عن كافة الصلات إلّا باللّه، و عن كافة النزعات إلّا نزعة اللّه، و عن كافة الوجوه إلّا وجه اللّه.

ذلك! و من ثم يصرف اللّه المسلمين عن الانشغال بما يبثّه أهل الكتاب و سواهم من دسائس و فتن في أقاويل و أفاعيل، يصرفهم إلى استباق الخيرات حيث مصير الكل إلى اللّه:

«أَيْنَما تَكُونُوا» مكانا و مكانة و مكنة و فعلية و فاعلية، و في أية اتجاهه خيرة أو شريرة.

«يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً» مع بعضكم البعض ليوم الجمع، و «جميعا» مع كل أعمالكم و اتجاهاتكم ليوم الحساب، و لا يعزب عنه منكم و من أعمالكم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 207

شي‏ء «إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» و من مجالات خاصة ل‏ «يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً» حشر أصحاب ألوية القائم المهدي من آل محمد (عليهم السلام) «1» و هو من تأويل الآية، فإن تنزيلها هو الحشر العام ليوم القيام، و من تأويلها هو الحشر الخاص، و لا ينبئك مثل خبير.

وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149).

«حَيْثُ خَرَجْتَ» هو- لأقل تقدير- خروجه عن مكة «كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ ...» (8: 5) «مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ» (47: 13)، و لأكثر تقدير هو خروجه عن الحرم، فقد يصدق‏

الخبر: «البيت قبلة لأهل المسجد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 138 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى سهل بن زياد عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني قال‏ قلت لمحمد بن علي بن موسى (عليه السلام) إنّي لأرجو ان تكون القائم من اهل أبيت محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)- الى قوله في وصفه و انه غيره- يجتمع اليه أصحابه عدة اهل بدر ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا من أقاضي الأرض و ذلك قول اللّه عز و جل: أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً ...

و

فيه باسناده الى أبي خالد الكابلي عن سيد العابدين علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: المفقودون عن فرشهم ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا عدة اهل بدر فيصبحون بمكة و هو قول اللّه عز و جل: أَيْنَما تَكُونُوا ....

و

باسناده الى محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) لقد نزلت هذه الآية في المفتقدين من اصحاب القائم (عليه السلام) ليفقدون عن فرشهم ليلا فيصبحون بمكة و بعضهم يسير في السحاب يعرف اسمه و اسم أبيه و حليته و نسبه، قال فقلت جعلت فداك أيهم أعظم ايمانا؟ قال: الذي يسير في السحاب نهارا.

و

فيه تفسير القمي قال ابو جعفر (عليه السلام) مثله و هو قول امير المؤمنين (عليه السلام) هم المفقودون عن فرشهم و ذلك قول اللّه ...

و

في المجمع قال الرضا (عليه السلام) في الآية: و ذلك و اللّه ان لو قام قائمنا يجمع اللّه اليه جميع شيعتنا من جميع البلدان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 208

و المسجد قبلة لأهل الحرم و الحرم قبلة للناس جميعا» «1»

فان الحرم هو شطر المسجد الحرام للخارج عنه، و الضابطة امكانية استقبال القبلة دون عسر و لا حرج.

وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150).

«فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» تتكرر في مسرح التحويل ثلاث مرات، ثم‏ «وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» مرتين، فلما ذا هذا التكرار و الصيغة نفس الصيغة دونما زائدة؟ علّه‏ «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ» و في كل مرة من الثلاث فائدة زائدة تثبيتا للقبلة الجديدة، ففي الأولى‏ «إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ» إخراجا لذلك التحويل عن الباطل.

و في الثانية «وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» تثبيتا لحقه كأنه هو الحق لا سواه، فالقبلة المكية أصيلة، و قبلة القدس ابتلائية فرعية.

و في الثالثة «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ...» ثم و في هذا التكرار بمختلف التلحيقات تأكيد أكيد لتداوم هذه القبلة، و كما في تكرار «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» عدّه مرات، تلحيقا بها لكل مقطع من مقاطع البيان لذكر نعم الرحمان، ثم و فيها رابعة التأشيرات أن القبلة المكية هي الكعبة المباركة دون القدس، حيث الابتلاء يقدّر بقدر الضرورة، و لا سيما إذا كان فيه حجة على المبتلين، فالضرورات تقدّر بقدرها، و ما هي الضرورة الابتلائية أن يكون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وسائل الشيعة أبواب القبلة ب 3 ح 1 و 3.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 209

القدس هو القبلة منذ بزوغ الإسلام إلى أشهر في المدينة، خلقا لجوّ الحجة على المؤمنين من قبل المشركين‏ «1» و الكتابيين، و صدا عن دخول العرب- الهائمين الى الكعبة المباركة- في هذا الدين؟! فابتلائية قبلة القدس- بما تخلّف حجة على المسلمين- و على رسول الإسلام أيضا إذ هم عارفون من كتبهم ان قبلة هذا الرسول هي الكعبة المباركة، فلما صلى- لفترة- الى القدس أخذوا يحتجون عليه انه ليس هو الرسول الموعود!- هذه الابتلائية غير صالحة إلّا لقضاء الابتلاء، و ظرفه الصالح هو بداية العهد المدني، بلورة لصالح المؤمنين عن طالحهم، و ما إضافة العهد المكي إلى أشهر الابتلاء المدني، إلّا زيادة لحجة اليهود، إضافة الى حجة العرب في رفضهم لهذا الدين.

و «الناس» هنا كما الناس في‏ «سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ» هم السفهاء من الناس، مشركين و كتابيين، فان كلّا كان يحتج على الرسول و المسلمين «ما ولاهم ...».

و هنا «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» استثناء لجماعة خصوص منهم استمرارا لحجتهم على المسلمين‏ «فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي» فان حجتهم داحضة عند ربهم، و ذابلة بعد تحوّل القبلة إلى الكعبة المباركة. ثم و في ذلك التحويل إضافة الى سلبية حجتهم إيجابية إتمام النعمة و الاهتداء.

«وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» فقبلة الكعبة إتمام للنعمة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 148- اخرج ابن جرير من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس و عن مرة عن ابن مسعود و ناس من الصحابة قالوا لما صرف النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) نحو الكعبة بعد صلاته الى بيت المقدس قال المشركون من اهل مكة تحير على محمد دينه فتوجه بقبلته إليكم و علم انكم أهدى منه سبيلا و يوشك أن يدخل في دينكم فانزل اللّه‏ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 210

و اهتداء كما قال اللّه‏ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ‏.

و قد تحمل «لأتم و تهتدون» بشارة لفتح مكة كما تحملها آية الفتح: «إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ...».

و من أهم النعم التامة الاعتصام بحبل اللّه جميعا: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً.

ثم و من أهمها في مظاهر العبودية الاتجاه الى قبلة واحدة هي أوّل بيت وضع للناس، مثابة و أمنا و هدى و قياما «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ...».

كلام فيه ختام حول القبلة

القبلة هي هيئة خاصة للمقابلة، فهي تعم المستقبل اليه، فان لكلّ هيئة خاصة للمقابلة، فشطر المسجد الحرام نص أم ظاهر كالنص في أن قبلة النائي عن مكة المعظمة هي ناحية المسجد الحرام‏ «وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ» تحلق على ذلك الاستقبال أولا لسكنة المعمورة كلها، ثم سكان سائر المعمورات، إلّا ان شطر المسجد الحرام لهم هو الكرة الأرضية ككل، و لا يخص شطره، الناحية القاطعة له إلى الكعبة المباركة- فقط- سطح الأرضية، بل شطره في العمود الذي يربط الكون كله بسماواته و أرضيه، كما الكعبة المباركة ممتدة من ناحيتها فوق و تحت الى أعماق السماوات.

ثم الداخل في مكة المكرمة، هل يستقبل- كما الخارج- شطر المسجد الحرام أم عينه؟ طبعا عينه ما أمكن حيث الشطر قبلة النائين كضابطة، و إلّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 211

فالأقرب الى العين فالأقرب، دون شطره كضابطة «1» ... و الداخل في المسجد الحرام يستقبل الكعبة المباركة من جوانبها، و ندب الصلاة جماعة أو فرضها يقتضي صحة صلاة الجماعة الدائرية حول البيت بإمام واحد، و لو كانت محظورة لورد فيها نهي، و هل الداخل في البيت يصلي كالعادة إلى أيّ من جوانبها؟ قد يقال: لا، لأنه هو القبلة من خارجه دون جوفه، و

قد ورد في الصحيح: «لا تصل المكتوبة في جوف الكعبة فان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لم يدخلها في حج و لا عمرة و لكنه دخلها في الفتح و صلى فيها ركعتين بين ميري العمودين و معه اسامة ابن زيد» «2»

و في آخر

«لما دخل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في صحيحة زرارة عن أبي جعفر (عليهما السلام): يجزي التحري ابدا إذا لم يعلم اين وجه القبلة. (الوسائل أبواب القبلة ب 6 ح 1).

و

عن تفسير النعماني باسناده عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) في قوله تعالى: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ‏ قال: معنى شطره نحوه إن كان مرئيا و بالدلائل و الأعلام ان كان محجوبا، فلو علمت القبلة وجب استقبالها و التولي و التوجه إليها، و لو لم يكن الدليل عليها موجودا حتى تستوي الجهات كلها فله ان يصلي باجتهاده حيث أحب و اختار حتى يكون على يقين من الدلالات المنصوبة و العلامات المبثوثة، فإن مال عن هذه الوجوه مع ما ذكرناه حتى يجعل الشرق غربا و الغرب شرقا زال معنى اجتهاده و فسد حال اعتقاده. (الوسائل أبواب القبلة ب 6 ح 4).

(2)

الوسائل أبواب القبلة ب 17 ح 3 و 1 صحيحتان فالصحيحة الاولى عن معاوية عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) و الثانية عن محمد بن مسلم عن أحدهما قال: لا تصل المكتوبة في الكعبة، و أورده مثله في صحيح البخاري حدثنا مسدّد قال حدثنا يحيى عن سيف قال سمعت مجاهدا قال: أتي ابن عمر فقيل له: هذا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) دخل الكعبة، فقال ابن عمر: فأقبلت و النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قد خرج و أجد بلالا قائما بين البابين فسألت بلالا فقلت: أصلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في الكعبة؟ قال: نعم ركعتين بين الساريتين اللتين على يساره إذا دخلت ثم خرج فصلّى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 212

النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) البيت دعا في نواحيه كلها و لم يصل حتى خرج منه فلما خرج ركع ركعتين في قبل الكعبة و قال: هذه القبلة» «1».

و لكن النهي عن الصلاة فيها هو أعم من التحريم و التنزيه، و تحريمه أيضا أعم من أن جوفها ليست قبلة، مع العلم أنها أصل القبلة، و قد يعني النهي رعاية حرمة البيت، و رعاية الجماعة القائمة حول البيت، و كما تدل عليه‏

الموثقة: «إذا حضرت المكتوبة و أنا في الكعبة أ فأصلي فيها؟ قال: صل» «2»

إلّا أن «هذه القبلة» تعارض نصا «قال صل» فالأحوط إن لم يكن الأقوى ترك الفريضة في جوفها، و ان كان الأشبه صحة الصلاة فيها فان «هذه القبلة» لا تنفي كون جوفها ايضا قبلة كما ظاهرها، كذلك و الصلاة على سطح الكعبة، حيث العمود الأسطواني من مكان البيت قبلة في طرفيه إلى أعنان السماء، و الاستلقاء على السطح استلغاء لكون الأسطوانة قبلة، و تشكيك أو الغاء لصحة صلوات الساكنين أو الكائنين في محلات أرفع من البيت!.

و ترى إذا فقد العلم او و الظن بشطر المسجد الحرام، فهل يصلي الى أربع جهات لمرسلة يتيمة «3» لا توافق الكتاب و لا السنة؟ مع العلم انه ليست عليه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). موثقة يونس بن يعقوب قال قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) إذا حضرت الصلاة المكتوبة ...

(2) صحيح البخاري حدثنا إسحاق بن نصر قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا ابن جريح عن عطاء قال سمعت ابن عباس قال لما دخل ...

(3)

هي مرسلة قريش عن بعض أصحابنا عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت: جعلت فداك إن هؤلاء المخالفين علينا يقولون: إذا أطبقت السماء علينا او اظلمت فلم نعرف السماء كنا و أنتم سواء في الاجتهاد؟ فقال: ليس كما يقولون، إذا كان ذلك فليصل لأربع وجوه.

و عن الفقيه «و قد روي فيمن لا يهتدي الى القبلة في مفازة انه يصلي الى اربع جوانب» أقول:

و أظنها هي نفس مرسلة خراش.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 213

إلّا صلاة واحدة حتى مع تقصيره في اجتهاد القبلة فضلا عن قصوره! و حتى إذا أريد بذلك درك القبلة فصلوات ثلاث هي الكافية، فان بين المشرق و المغرب قبلة!.

أم يصلي لجهة واحدة، لذلك، و لصحيحة الفاضلين‏

عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): «يجزي المتحير أبدا اين ما توجه إذا لم يعلم وجه القبلة» «1»

و «المتحير» أعم من القاصر و المقصر.

ثم و لا ريب في إجزاء صلاة واحدة أم أقل من الأربع في تضيّق الوقت مع الاحتمال الأوّل، و ترى حين ينحرف عن القبلة قاصرا يمينا أو شمالا أم بينهما ثم تتبين هل يعيد أم تجزيه؟ الظاهر «قد مضت صلاته و ما بين المشرق و المغرب قبلة» «2».

و إذا زاد الانحراف كأن يستدبرها أمّا شابه أعادها في الوقت دون خارجه‏ «3» حيث الميسور في الوقت لم يتجاوز ما أداه فلا إعاده خارجه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هي صحيحة زرارة و محمد بن مسلم المروية في الفقيه عن أبي جعفر (عليهما السلام) انه قال: ...

(2) تدل عليه‏

صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له: الرجل يقوم في الصلاة ثم ينظر بعد ما فرغ فيرى انه قد انحرف عن القبلة يمينا او شمالا؟ فقال: «قد مضت صلاته و ما بين المشرق و المغرب قبلة»

و موثقة عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) رجل صلى لغير القبلة فيعلم و هو في الصلاة قبل ان يفرغ من صلاته؟ قال: ان كان متوجها فيما بين المشرق و المغرب فليحول وجهه الى القبلة ساعة يعلم، و ان كان متوجها الى دبر القبلة فليقطع الصلاة ثم يحول وجهه الى القبلة ثم يفتح الصلاة (الوسائل أبواب القبلة ب 10 ح 1.

(3) تدل عليه‏

صحيحة عبد الرحمن بن أبي عبد اللّه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: «إذا صليت و أنت على غير القبلة و استبان لك انك صليت و أنت على غير القبلة و أنت في وقت فأعد و ان فاتك الوقت فلا تعد»

و صحيحة سليمان بن خالد قال قلت لابي عبد اللّه (عليه السلام) الرجل يكون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 214

و المستدبر فيها و الوقت باق لم يأت بما عليه مهما أخطأ.

و على أية حال فواجب القبلة- عينا أو شطرا أما بين المشرق و المغرب- هو المستطاع، لا يجوز البعيد عنها ما أمكن القريب لها، و إذا كنت على راحلة متحولة عن القبلة إلى جهات، فلتتحول ما أمكنك، إلّا في عسر أو حرج فجهة واحدة، لا سيما بين المشرق و المغرب فانه قبلة المقدور على أية حال.

و من اللائح اللامع من الكتاب و السنة عدم وجوب الاجتهاد للقبلة إلّا حسب الميسور المتعود بين عامة الناس، دون الدراسات الهندسية و النجومية أمّا هي، التي لا تتيسر إلّا لجماعة خصوص، إلّا إذا شاعت نتائج هذه الدراسات بمتناول سائر الجموع، فهي- إذا- تصبح من الميسور، فهي- إذا- واجب كل الجموع، اللّهم إلّا من يهتدي على شياعها.

و لقد بذلت مساعي عدة لتعيين القبلة لساكني المعمورة، بعد ما كان المسلمون يعتمدون على الظن و الحسبان باي نحو كان، فاستنهض الحاجية العامة في ذلك الحقل جمعا من العلماء الرياضيين تقريبا للقبلة إلى التحقيق‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في قفر من الأرض في يوم غيم فيصلي لغير القبلة ثم يضحي فيعلم انه صلى لغير القبلة كيف يصنع؟ قال: «ان كان في وقت فليعد صلاته و ان كن الوقت قد مضى فحسب اجتهاده» (الوسائل أبواب القبلة ب 11 ح 5 و 6)

أقول: و إطلاقهما مقيد بالاخبار رقم (126). او يقال: بين المشرق و المغرب قبلة فلا انحراف- إذا- عن القبلة في غير الاستدبار كما تدل عليه‏

صحيحة زرارة عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: لا صلاة إلا الى القبلة، قال قلت: اين حد القبلة؟ قال: بين المشرق و المغرب قبلة كله، قال قلت: فمن صلى لغير القبلة او في يوم غيم في غير الوقت، قال: يعيد.

(1). فقد استفادوا من الجداول الموضوعة في الزيجات لبيان عرض البلاد و طولها، و استخرجوا انحراف مكة عن نقطة الجنوب في البلد، اي انحراف الخط الموصول بين البلد و مكة عن الخط الموصول بين البلد و نقطة الجنوب (خط نصف النهار) بحساب الجيوب و المثلثات، ثم عينّوا ذلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 215

ثم و تسريعا و تسهيلا لذلك عملوا الآلة المغناطيسية المعروفة بالحك‏ «1» و لأنها لم تخل من الشبهة و النقصان، قام المغفور له السردار الكابلي باستخراج الانحراف القبلي بأصول حديثة، و حصل- من ضمنها- على استقامة كاملة للمحراب الخاص في مسجد النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالمدينة المنورة «2» ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

في كل بلدة من بلاد الإسلام بالدائرة الهندية المعروفة المعينة لخط نصف النهار، ثم درجات الانحراف و خط القبلة.

(1). هذه الآلة بعقربتها تعين جهة الشمال و الجنوب فتنوب عن الدائرة الهندية في تعيين نقطة الجنوب، و بالعلم بدرجة الخراف البلد يمكن للمستعمل ان يشخص جهة القبلة

(2) و لأن هذه الآلة تبين فيها الاشتباه من الجهتين جميعا- طولا و عرضا-: فان المتأخرين من الرياضيين عثروا على ان المتقدمين اشتبه عليهم الأمر في تشخيص الطول، و اختل بذلك حساب الانحراف فتشخيص جهة الكعبة، و ذلك ان طريقهم الى تشخيص عرض البلاد- و هو ضبط ارتفاع القطب الشمالي- كان اقرب الى التحقيق، بخلاف الطريق الى تشخيص الطول، و هو ضبط المسافة بين النقطتين المشتركتين في حادثة سماوية مشتركة كالخسوف بمقدار سير الشمس حسا عندهم، و هو التقدير بالساعة، فقد كان هذا بالوسائل القديمة عسيرا و على غير دقة، لكن توفر الوسائل و قرب الروابط اليوم سهّل الأمر كل التسهيل فلم تزل الحاجة قائمة على ساق، حتى قام الشيخ الفاضل البارع الشهير بالسردار الكابلي- رحمه اللّه- في هذه الأواخر بهذا الشأن فاستخرج الانحراف القبلي بالأصول الحديثة و عمل فيه رسالته المعروفة بتحفة الأجلة في معرفة القبلة و هي رسالة ظريفة بيّن فيها طريق عمل استخراج القبلة بالبيان الرياضي، و وضع فيها جداول لتعيين قبلة البلاد.

و من ألطف ما وفق له في و سعيه- شكر اللّه سعيه- ما اظهر به كرامة باهرة للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في محرابه المحفوظ في مسجد النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالمدينة 25 275- و ذلك ان المدينة على ما حاسبه القدماء كانت ذات عرض 25 درجة و طول 75 درجة و 20 دقيقة، و كانت لا توافقه قبلة محراب النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في مسجده، و لذلك كان العلماء لا يزالون باحثين في امر قبلة المحراب، و ربما ذكروا في الخرافة وجوها لا تصدقها حقيقة الأمر، لكنه- رحمه اللّه- أوضح ان المدينة على عرض 24 درجة 57 دقيقة و طول 39 درجة 59 دقيقة، و انحراف درجة 45 دقيقة تقريبا، و انطبق ذلك قبلة المحراب أحسن الانطباق و بدت بذلك كرامة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 216

استخرجت بعده قبلة أكثر بقاع الأرض‏ «1» و أخيرا فيما يقرب من ألف بقعة من بقاع الأرض أدق منها «2» شكر اللّه مساعيهم.

و ترى ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ولّى وجهه- عند تحول القبلة- شطر المسجد الحرام، دون عينه أو عين الكعبة، و جبريل (عليه السلام) هو الذي ولاه بأمر اللّه!.

إنه- بطبيعة الحال- ولّى وجهه الشطر الخاص الذي يوافي المسجد الحرام و الكعبة، لكن المسلمون لهم أمر عام «و حيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره» و أين شطر من شطر؟ شطر يحوله اللّه إياه، و شطر يتحول اليه من سواه، كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

باهرة للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في قبلته التي وجه وجهه إليها و هو في الصلاة، و ذكر ان جبرئيل أخذ بيده و حول وجهه إلى الكعبة، صدق اللّه و رسوله.

(1). استخرجه المهندس الفاضل الزعيم عبد الرزاق البغائري رحمه اللّه و نشر فيها رسالة في معرفة القبلة، و هي جداول يذكر فيها الف و خمسمائة بقعة من بقاع الأرض و بذلك تمت النعمة في تشخيص القبلة.

و لان الجهة الثانية و هي الجهة المغناطيسية غير دقيقة، فإنهم وجدوا ان القطبين المغناطيسيين في الكرة الأرضية غير منطبقين على القطبين الجغرافيين منها، فان القطب المغناطيسي الشمالي مثلا، على انه متغير بمرور الزمان، بينه و بين القطب الجغرافيائي الشمالي ما يقرب من ألف ميل، و على هذا فالحدّ لا يشخص القطب الجنوبي الجغرافي بعينه، بل ربما بلغ التفاوت إلى ما لا يتسامح فيه، لذلك:

(2) قد انهض هذا، المهندس الرياضي الفاضل الزعيم حسين علي رزم‏آرا في سنة 1332 هجرته شمسية على حل هذه المعضلة و استخراج مقدار التفاوت بين القطبين الجغرافي و المغناطيسي بحسب النقاط المختلفة، و تشخيص انحراف القبلة من القطب المغناطيسي فيما يقرب من الف بقعة من بقاع الأرض، و اختراع حدّ يتضمن التقريب القريب من التحقيق في تشخيص القبلة، و هو اليوم دائر معمول- شكر اللّه سعيد (الميزان لاستاذنا العلامة الطباطبائي قدس اللّه روحه (ج 1: 335- 337).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 217

ثبت بحساب العرض و الطول الجغرافي أن محرابه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في المدينة مواجه للقبلة بصورة دقيقة!.

كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151).

«و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة ..

و لأتم نعمتي عليكم و لعلكم تهتدون»- «كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا» من ولد باني القبلة، فإن هذه الرسالة السامية أصل لتمام النعمة و كما الهداية، كذلك فلتكن قبلتها أهدى قبلة، و أنعم نعمة على الأمة الأخيرة- إذا: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ (152).

و ذكر اللّه ثلاثة، رأس الزاوية فيها هو الذكر الخفي بالقلب و بكلّ مراحل الروح، ثم الجلي بالأعمال، ثم الجلى بالأقوال، إذا فالذكر أحوالي و أعمالي و أقوالي: «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ» (6: 204). و لكلّ درجات حتى تصل الى القمة العاصمة عن كل عصيان و نسيان و خطأ و هي تختص بالمخلصين المعصومين، و أفضل الذكر هو الجمع بين المراحل الثلاث، ثم أفضله الأوليان، و من ثم الأولى، و أعدله ما تساوى فيه الخفي و الجلي، اللهم إلا ذودا عن رئاء الناس، ثم و

«أفضل الذكر لا إله إلا اللّه» «1».

و الذكر- أيا كان- قد يقابل الغفلة: «وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا» (18: 28) و أخرى يقابل النسيان: «وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ» (18: 24) و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 154- اخرج الخرائطي عن جابر بن عبد اللّه سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: أفضل الذكر لا اله الا اللّه و أفضل الشكر الحمد للّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 218

يشتركان في غائب العلم فالغفلة عنه و النسيان، إذا فأصل الذكر هو للقلب و أصحابه عقلا و صدرا و لبا و فؤادا، ثم يتجلى في القالب أعمالا و أقوالا.

«... أما إني لا أقول: سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر، و إن كان هذا من ذاك، و لكن ذكر اللّه في كل موطن، إذا هجمت على طاعته أو معصيته» «1».

و العصيان أيا كان إنما هو من حصائل الغفلة و النسيان و كما

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «من أطاع اللّه فقد ذكر اللّه و إن قلّت صلاته و صيامه و تلاوته للقرآن، و من عصى اللّه فقد نسي اللّه و إن كثرت صلاته و صيامه و تلاوته للقرآن» «2».

و

في حديث قدسي: «إذا علمت أن الغالب على عبدي الإشتغال بي نقلت شهوته في مسألتي و مناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك و أراد أن يسهو حلت بينه و بين أن يسهو، أولئك أوليائي حقا، أولئك الأبطال حقا، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة ذويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال» «3».

و

قد خرج رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على أصحابه فقال:

ارتعوا في رياض الجنة، قالوا: يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في المعاني عن الحسين البزاز قال قال لي ابو عبد اللّه (عليه السلام): ألا أحدثك بأشدّ ما فرض اللّه على خلقه؟ قلت: بلى- قال: «انصاف الناس من نفسك و مواساتك لأخيك و ذكر الله في كل موطن أما إني ...».

(2) الدر المنثور 1: 149- اخرج سعيد بن منصور و ابن المنذر و البيهقي في شعب الايمان عن خالد بن أبي عمر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ...

(3) في عدة الداعي عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال قال سبحانه: إذا علمت ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 219

رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، أغدوا و روحوا و اذكروا، و من كان يحب أن يعلم منزلته عند اللّه فلينظر كيف منزلة اللّه عنده، فإن اللّه تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبد اللّه من نفسه، و اعلموا أن خير أعمالكم عند مليككم و أزكاها و أرفعها في درجاتكم و خير ما طلعت عليه الشمس ذكر اللّه تعالى فانه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني .. و قال تعالى: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» بنعمتي، اذكروني بالطاعة و العبادة أذكركم بالنعم و الإحسان و الراحة و الرضوان‏ «1».

ثم الذكر في «فاذكروني» غيره في «أذكركم» فان اللّه لا يغفل و لا ينسى، فإنما هو أثر الذكر، ان يرحم عبده في مواقفه و منها مغفرته، دفعا عن العصيان حين اقترابه، ام رفعا للعصيان بعد اقترافه، و كما

يروى عن رسول الذكر (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) تفسيرا لآية الذكر: «اذكروني يا معاشر العباد بطاعتي أذكركم بمغفرتي» «2»

ف «طاعتي» تعم فعل الواجب و ترك الحرام، و «مغفرتي» تعم الدفع و الرفع، و الأوّل للأولين في ذكر اللّه و طاعته، و الثاني لمن بعدهم الآخرين، ثم العصيان حالة الغفلة و النسيان، هو أدنى من العصيان حالة الذكر فإنه طغيان «فحق على اللّه ان يذكر صاحبه بمقت» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عدة الداعي قال: و روي ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قد خرج على أصحابه فقال: ...

(2) الدر المنثور 1: 148- أخرج ابو الشيخ و الديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» يقول: ...

(3)

و فيه أخرج ابن لال و الديلمي و ابن عساكر عن أبي هند الداري عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) مثله بزيادة: فمن ذكرني و هو مطيع فحق عليّ ان اذكره بمغفرتي و من ذكرني و هو لي عاص فحق علي ان اذكره بمقت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 220

ثم و نسيان ذكر اللّه كفر به و كفران، و ذكره شكر و شكران،

فقد قال موسى يا رب أخبرني كيف أشكرك؟ قال: «تذكرني و لا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني و إذا نسيتني فقد كفرتني» «1»

«كفرتني» تعني سترتني عن نفسك سترا لنفسك عني بعدا معرفيا، و هي مختلف عن «كفرت بي» فهذا كفر و ذاك كفران.

«فاذكروني» الظاهر في ذكر اللّه الدافع الى طاعته تقوى قد تشمل ذكره- أيضا- حال معصيته طغوى، فهي هنا أمر تعجيز و تهديد، كما الأوّل أمر تحجيز و تمديد، و كما

يروى‏ «أوحي اللّه إلى داود قل للظلمة لا يذكروني فإن حقا عليّ أذكر من ذكرني و إن ذكري إياهم أن ألعنهم» «2».

إذا «وَ لا تَكْفُرُونِ» كما تعني الكفران بالنسيان، كذلك تعني الكفر بالذكر حالة الطغيان في العصيان، و لأن «أذكركم» هي كجزاء ل «فاذكروني» فلتكن أوسع من شرطها كما قال اللّه‏ مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها فكذلك اللّه في مسرح الذكر حيث يقول:

«أنا عند ظن عبدي بي و أنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي و إن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم و إن تقرّب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا و إن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا و ان أتاني يمشي أتيته هرولة» «3»

و يقول:

«لا يذكرني أحد في نفسه إلّا ذكرته في ملاء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 148- اخرج ابن أبي الدنيا و ابن أبي حاتم و البيهقي في شعب الايمان عن زيد بن اسلم ان موسى (عليه السلام) قال: ...

(2) المصدر أخرج ابن أبي شيبة في المصنف و احمد في الزهد و البيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس ...

(3) المصدر أخرج احمد و البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال اللّه: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 221

من ملائكتي و لا يذكرني في ملاء إلا ذكرته في الرفيق الأعلى» «1»

ف‏

«أحب الأعمال الى اللّه أن تموت و لسانك رطب من ذكر اللّه» «2»

ف‏

«ليس يتحسر أهل الجنة إلّا على ساعة مرت بهم لم يذكر اللّه تعالى فيها» «3».

«وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ» و أوّل معرفة النعمة أنها من اللّه، ف‏

«ما أنعم اللّه على عبده من نعمة فعلم أنها من عند اللّه إلا كتب له شكرها قبل أن يحمده ...» «4».

ثم النظر الصالح في مسرح الحياة لمرضات اللّه تعالى، ف‏

«من نظر في الدين إلى من فوقه و في الدنيا الى من تحته كتبه اللّه صابرا شاكرا، و من نظر في الدين إلى من تحته و نظر في الدنيا إلى من فوقه لم يكتبه اللّه صابرا و لا شاكرا» «5».

ثم أن يصرف كل ما أنعمه اللّه في مرضاته، و بالتالي كأرفع الشكر ان يعترف بعجزه عن شكر ربه كما

قال موسى (عليه السلام) يوم الطور: يا رب إن أنا صليت فمن قبلك و إن أنا تصدقت فمن قبلك و إن أنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج الطبراني عن معاذ بن أنس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال اللّه عز و جل ذكره: ...

(2) المصدر عن مالك بن يخامر ان معاذ بن جبل قال ان آخر كلام فارقت عليه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان قلت اي الأعمال أحب الى اللّه؟ قال: ان تموت ...

(3) المصدر أخرج الطبراني و البيهقي عن معاذ بن جبل قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ...

(4)

الدر المنثور 1: 153 عن عائشة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: «و ما علم اللّه من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له ذلك قبل ان يستغفره ان الرجل ليشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد اللّه فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له».

(5) المصدر اخرج البيهقي عن انس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 222

بلغت رسالاتك فمن قبلك فكيف أشكرك؟ قال: «يا موسى الآن شكرتني» «1».

ثم و ترك كل مرتبة من الشكر كفّر حسبها بمعنى الكفران، اللّهم إلا ذكرا لنعمته و كفرا بالمنعم فمكفر باللّه. و كما الذكر درجات كذلك الشكر درجات، و النسيان و الكفران و الكفر- أيضا- دركات: ففي الشكر تبدأ بالاعتراف بفضل اللّه و ان كل النعم هي من اللّه، و تنتهي بالتجرد لشكره في كل حقول المعرفة و العمل و الاعتراف بالعجز عن شكره، في كل حركة بدن، و كل لفظة لسان، و في كل خفقة قلب، و في كل خطرة جنان، و بين المبدء و المنتهى متوسطات.

[سورة البقرة (2): الآيات 153 الى 167]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ (154) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (156) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)

إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ (158) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى‏ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ (159) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (161) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (162)

وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (166) وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر اخرج الخرائطي عن أبي عمر الشيباني قال قال موسى ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 224

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153).

الصبر كاستقامة سلبية حفاظا على كيان الإيمان هو الناحية السلبية من كلمة التوحيد، كما الصلاة قوامة إيجابية- تداوم التكامل لحاصل الإيمان- هو الناحية الإيجابية لكلمة التوحيد، فالصبر ككلّ يعني الشطر الأوّل لهذه الكلمة، و الصلاة ككل للشطر الثاني، و «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» تأكيد للمرحلة الأولى فإنها أهم من الثانية، و هذه المعية الربانية للصابرين كافلة لصالح المرحلتين.

هنا ترجّح ميزانية الصبر حيث المسرح يستقبل حكم الجهاد بملاقات الأهوال و مقارعة الأبطال فالاهتمام بالصبر فيه أهم، و هناك في أخرى‏ «وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ» (7: 45) ترجّح ميزانية الصلاة لأنها كأصل و ضابطة خير موضوع و هي عمود الدين، و نظرا إلى احتمال ثان «إنها» تعني الاستعانة بكلا الصبر و الصلاة، فهما- إذا- ردف بعض و لصق بعض في حظيرة الإيمان، مهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 225

اختلفت مجالاته في تأثير أهم لأحدهما صبرا او صلاة، و قد فصلنا القول فيهما على ضوء آية الخاشعين، و أن من الصبر ممدوح مأمور به، و منه مقبوح منهي عنه كالصبر على الظلم و الضيم.

و الاستعانة بالصبر و الصلاة في كل المجالات لها دور عظيم عميم لإدارة الشؤون الحيوية الإيمانية، فردية و جماعية في كل الحقول، و لا سيما في حقل الجهاد، فانه للمسلمين حياد و مهاد و سداد، فعلى الأنفس المؤمنة أن تكون مشدودة الأعصاب، شديدة الاعتصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل و المخارج، و للداخل و الدخيل و الخارج، و الزاد الأوّل في كل ذلك هو الصبر، صبرا عن المعاصي و على الطاعات، و على جهاد المشاقين اللّه، و الكائدين بشرعة اللّه، و صبرا على بطء النصر، و على بعد الشقة و على كل مشقة في هذه السبيل الشاقة الطويلة، و على انتفاش الباطل و قلة الناصر، و على التواء النفوس و ضلال القلوب و ثقلة العناد و مضاضة الأغراض، و من «استقبل البلايا بالرحب و صبر على سكينة و وقار فهو من الخاص و نصيبه» ما قال اللّه عز و جل:

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ‏ «1» و حين يقل الصبر أو يكلّ فالصلاة، و إنها المعنى الذي لا ينصب، و الزاد الذي لا ينفد، تجدّد الطاقة الكليلة، و تزوّد القلوب العليلة، فيمتد- إذا- حبل الصبر دونما انقطاع، ف‏ «اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ»، و من الصبر في المقال بعد الصبر في الحال و الفعال:

وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ (154).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 141 عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام): ... و فيه عن تفسير العياشي عن الفضيل عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: يا فضيل! بلغ من لقيت من موالينا عنا السلام و قل لهم إني أقول: إني لا أغني عنكم من اللّه شيئا إلا بورع فاحفظوا ألسنتكم و كفوا أيديكم عليكم بالصبر و الصلاة ان اللّه مع الصابرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 226

هذه من الآيات الدالات على الحياة البرزخية، تختص هنا بمن يقتل في سبيل اللّه لمناسبة المسرح و الموقف، ف «أموات» هنا يعني موت الفوت الذي ليس فيه و لا بعده حياة، فهو الموت المطلق، لا مطلق الموت الذي قد تصاحبه حياة تعنيها «بل أحياء» فهم أحياء بعد موتهم‏ «وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ» حسيّا أنهم أحياء، فاشعروا معرفيا بما يعرّفكم اللّه أنهم «أحياء».

و إنها ليست- فقط- حياة الذكر بعد الموت، فما هي الفائدة للميت دون حياة أن تكون له حياة الذكر و هو لا يشعرها، ثم الثانية النظيرة لها، الشارحة لحياتها أكثر منها «عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ‏ ... وَ يَسْتَبْشِرُونَ‏ ... أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (3: 169) تصريحات لا حول عنها لواقع الحياة بعد الموت دون حياة التخيّلات، و سوف نأتي على تفصيل القول عند تفسيرها.

إنهم يعيشون بعد موتهم‏

«في الجنة على صور أبدانهم» «1»

«في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون و يشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا» «2»

، و في صيغة ثالثة

«إن الأرواح في صفة الأجساد» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في المجمع عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن أرواح المؤمنين؟

فقال: في الجنة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان.

(2)

المصدر عن المجمع عن يونس بن ظبيان قال‏ كنت عند أبي عبد اللّه (عليه السلام) جالسا فقال: ما يقول الناس في أرواح المؤمنين؟ قلت: يقولون: في حواصل طير خضر في قناديل تحت العرش، فقال ابو عبد اللّه (عليه السلام): سبحان اللّه! المؤمن أكرم على اللّه من ان يجعل روحه في حوصلة طائر أخضر، يا يونس! المؤمن إذا قبضه اللّه تعالى صير روحه في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ...».

(3)

في الكافي عن الصادق (عليه السلام): ... في شجر من الجنة تعارف و تساءل فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول دعوها فانها قد أقفلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان و ما فعل فلان،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 227

و ما أقبحها فرية على رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) انهم‏

«في صورة طير بيض تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش» «1».

فلو أنها- فقط- حياة الذكر، فكيف «لا يشعرون؟» و حتى الماديين الناكرين للحشر يمشون وراء حياة الذكر، رغم انها لهم خيال على خيال، فان حياة الذكر إنما يشعرها و يعمل على تحصيلها من له حياة بعد الموت حتى يلتذ بحياة الذكر فيها.

و ان حب حياة الذكر- الفطري- هو من الأدلة الفطرية على استمرارية الحياة بعد الموت، و هو من الحجج الدامغة على ناكري الحياة بعد الموت، إذا لو لم تكن بعد الموت حياة، فأي دافع لمن يبطل حياته لبقاء آخرين، و أن يحرم نفسه لذّاتها ليتمتع آخرون، حيث العاقل- أيا كان- لا يعطي إلا استعطاء بديل ما يعطي، إما هنا أم في الحياة الأخرى، و ليست حياة الذكر لها دور إلّا لمن يحيى بعد موته حتى يشعر تلك الحياة، و إذ لا حياة فلا شعور للذكر حتى يجهد في تحصيله!.

و قيلة القائل: ان الخطاب في «لا تقولوا» موجه الى المؤمنين الذين يعتقدون في الحياة بعد الموت كأصل ثالث من الدين، فكيف ينهاهم عن قالتهم هذه و هم مؤمنون؟ فلتكن «بل أحياء» حياة الذكر!.

إنها مردودة عليهم، بان الحياة البرزخية لم تكن باهرة لهم كحياة القيامة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فان قالت لهم: تركته حيا ارتجوه، و ان قالت لهم: قد هلك قالوا: قد هوى هوى.

(1).

الدر المنثور 1: 155 قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في صورة ...، و فيه عن كعب بن مالك ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ان أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة او شجر الجنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 228

و هذه هي الثالثة من أصول الدين، و أما البرزخية التي يشك فيها حتى الآن جماعة من المسلمين، منهم قائل هذه القيلة- فلم تكن بذلك الظهور، فلتذكر لهم بمثل هذه الذكريات التي تحملها الآيات البرزخية الباهضة، الناهضة لما فوق العشرين!.

ثم و حياة الذكر أيضا- إضافة إلى أنها لائحة حتى للماديين- هي كذلك تتطلب حياة بعد الموت تدرك فيها كلذّة من ملاذها! و إذا لا تدرك إذ لا حياة بين الدنيا و الآخرة فكيف يرغّب القرآن المؤمنين إلى حياة تخيلية لا واقع لها؟!.

فالقول إن‏ «بَلْ أَحْياءٌ» قد تعني الحياة الأخرى، يرده ان الإعتقاد فيها هو من اوّليات العقائد الإسلامية التي ابتدأ الإسلام بها، ثم العبارة الصالحة لخصوصها «بل هم يحيون» دون «أحياء» الدالة على استمرارية الحياة دون فوت، فلنستعن باللّه صبرا- فيما نستعين- بالصبر على أمثال هذه الأقاويل، و الرد عليها بنصوص من القرآن كهذه و أضرابها.

و هنا احتمالات أخرى لا تحملها هذه الآية و أضرابها الصريحة في الحياة البرزخية «1» ... و ترى الآية- بعد- مختصة بحياة الشهداء، نافية لحياة غيرهم من السعداء و الأشقياء؟ كلّا! فان هذه الحياة الخاصة رزقا عند ربهم، هي للنبيين أخص، و ليسوا كلهم و لا جلّهم من الشهداء، كما و في غيرهم من هو أفضل من بعض الشهداء، فلما ذا تختص هذه الكرامة- فقط- بالشهداء! ثم و إثبات الحياة البرزخية للشهداء، ليس لينفيها عن غير الشهداء، لا سيما و أن المجال هنا مجال الترغيب للقتال في سبيل اللّه، و جبر خواطر أهليهم أن افتقدوهم، فلكل مجال قال، كما لكل قال مجال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كالقول انها حياة الهدى، الظاهرة في الأخرى، ام استمرارية الحياة الدنيا بنفس هذا البدن ام حياة روحانية محضة دون اي جسم، ام حياة أرواحهم في أجساد اخرى غير أجسادهم، امّا ذامت تقولات زور لا سند لها إلا تطفلات! ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 229

و من ثم فعشرات من الآيات الدالة على الحياة البرزخية لكافة المكلفين، مؤمنين و كافرين، إنها تدلنا دلالة قاطعة لا محيد عنها على شمولية الحياة البرزخية دونما استثناء! و سوف نوافيكم بقول فصل حول الحياة البرزخية على أضواءها في محالها حسب دلالاتها و أدلتها.

ثم و في رجعة ثانية الى الآية «وَ لا تَقُولُوا» نهي عن قولة الممات للشهداء، و طبعا في حقل «مات وفات» ثم لا حياة بعد ما مات أبدا، و لا يقوله مسلم، أم لا حياة في البرزخ بين حياتي الأولى و الأخرى كما كان يظنه المسلمون فيمن سواهم و لمّا يبين لهم برزخ الحياة، فهذا من البيان: «لا تقولوا- هم- أموات» «بل» قولوا «أحياء» و ان لم تشعروا تلك الحياة، و قد يشعركم إياها حالة النوم: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها ...»

(39: 42) «هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ...» (6: 60).

انهم قتلوا في ظاهر الجسد الدنيوي، و ما يشعركم أنهم- كذلك- قتلوا في الروح و في جسد آخر هما غير محسوسان، فحين يخبرنا ربنا «بَلْ أَحْياءٌ» نصدقه كما نصدق الحياة المحسوسة و أحرى، حيث الوحي أحرى بالتصديق من الحسن و أقوى.

أجل! «أحياء» أحيا من قسم كثير من الأحياء في البرزخ، و لذلك لا يغسلون كما يغسل الموتى، و يكفّنون في ثيابهم التي استشهدوا فيها، فالغسل تطهير للجسد الميت و هم لا يحكم عليهم- بقتلهم- حكم الميت، فثيابهم بعد قتلهم هي ثيابهم قبله! رمزا الى حياة لهم قوية فائقة.

و قد وردت في شأن الشهداء آيات و روايات، فزاهم يقرنون بالنبيين و الصديقين قبل الصالحين: «وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69) و من الشهداء هم القتلى في سبيل اللّه، لا سواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 230

و

في حديث الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا و له ما على الأرض من شي‏ء إلا الشهيد و يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» «1».

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155).

في «لنبلونكم» تأكيدات ثلاث في تحقيق ذلك البلاء، ثالثتها جمعية الصفات الربانية المستفادة من صيغة المتكلم مع الغير، فلا بد في مسرح الإيمان من مصرع البلاء بشتى الألوان، نفسيا: «من الخوف» و بدنيا: «و الجوع» و ماليا: «وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ» و نفسيا لكم و من هو مثلكم: «و الأنفس» و كضابطة تشمل كل نفس و نفيس من غال و رخيص: «و الثمرات».

ف «الثمرات» تعم ثمرات العقول و العلوم و القلوب، و من الثالثة الأولاد الصالحون الذين هم من أغلى ثمرات الحياة، مهما شملت ثمرات الزرع و الضرع، حيث الثمرات النفسية أنفس و أغلى من ثمرات الجسم.

«وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ» على هذه البلايا المحلقة على المؤمنين فيما لهم من حيويات روحية و مادية: «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ» (29: 1- 3).

أجل و

«ان اللّه يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات و حبس البركات و إغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب و يتذكر متذكر» «2»

، ثم و «كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» (7: 163) كما يبتليهم و هم صالحون، مخلصون و مخلصون: «وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ» (2: 124).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2). عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 231

و كضابطة عامة: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (21: 35) «وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (7: 168).

لا فحسب- بل و الشرعة الإلهية بتتابعها في مختلف طقوسها بأدوارها بلاء: «وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (5: 48) «وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» (6: 165).

بل و الموت و الحياة كلّ بلاء: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (67: 2).

ثم‏

«إن أشد الناس بلاء النبيون ثم الوصيون ثم الأمثل فالأمثل، و إنما يبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه و صحّ عمله اشتد بلاءه و ذلك أن اللّه عز و جل لم يجعل الدنيا ثوابا لمؤمن و لا عقوبة لكافر، و من سخف دينه و ضعف عمله فقد قل بلاءه، و البلاء أسرع إلى المؤمن المتقي من المطر إلى قرار الأرض» «1».

و حينما نرى أصحاب الغايات الدنيوية الدانية يتحملون مختلف ألوان البلاء من أجل الحصول عليها، فبأحرى لأصحاب الغايات الأخروية أن يتحملوا خلفياتها و أعباءها.

كما و لا يدرك الآخرون قيمة الإيمان إلّا حين يرون ابتلاء أهله و صبرهم على شديد بلاءه، و عندئذ قد ينقلب المعارضون لعقيدة الإيمان باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها.

فالشدائد تشجيش مكنونات القوى، و مذخورات الطاقات، فاتحة في القلوب منافذ و مسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، ف «عند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال».

«وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ» على البلايا و الرزايا

«فمن سترها و لم يشك إلى الخلق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 143 في العلل باسناده الى سماعة بن مهران عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان في كتاب علي (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 232

و لم يجزع بهتك ستر فهو من العام و نصيبه»

مما قال اللّه‏ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ‏ «1».

و إن أبلى البلاء للمؤمنين هو في الغيبة الكبرى لصاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، و هو أصدق مصاديق آية البلاء «2».

و من هم الصابرون- ككل- حتى نعرفهم بأجمعهم في صيغة مختصرة؟:

الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ‏ 156.

«مصيبة» هي صفة ل «رمية» و أصلها «رمية مصيبة» فتشمل كل رمية من أيّ رام تصيب الإنسان، في نفسه او ماله، أمّا له على أية حال، و هي تأتي لخير قليلا و لشر كثيرا، و من مصيبة الخير إقبال الدنيا على المؤمن بماله و مناله و رئاسته، فإنها بلاء يصيب على المبتلى بها ان يتخلص عن أوزارها و أوضارها، و لكن‏ «إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ» قد تختصها بمصيبة الشر، أو يقال إن الحياة العادية بين اقبال الدنيا و ادبارها هي قليلة البلاء أو خفيفتها، فإنما المهم‏ «نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً ...» فالعوان بينهما خارج عن تلك البلية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) في كلام طويل: ...

(2)

نور الثقلين 1: 142 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة باسناده الى محمد بن مسلم قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ان لقيام القائم (عليه السلام) علامات يكون من اللّه عز و جل للمؤمنين، قلت: و ما هي جعلني اللّه فداك؟ قال: ذلك قول اللّه عز و جل‏ وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ‏ يعني المؤمنين قبل خروج القائم (عليه السلام) بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ‏ قال: لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْ‏ءٍ مِنَ الْخَوْفِ‏ من ملوك بني فلان في آخر سلطانهم‏ وَ الْجُوعِ‏ بغلاء أسعارهم، وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ‏ قال: كساد التجارات و قلة الفضل و نقص من‏ الْأَنْفُسِ‏ قال: موت ذريع و نقص من‏ الثَّمَراتِ‏ لقلة ريع، يزرع‏ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ‏ عند ذلك بتعجيل الفرج، ثم قال يا محمد! هذا تأويله، ان اللّه عز و جل يقول‏ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 233

و المصيبة- و هي- في الأكثر- التي توجع الإنسان قل أو كثر- قد تكون بما قدمت أيدي المصاب: «فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» (4: 62)- «فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا» (16: 34)- و أخرى بما كسبت أيدي الناس ظلما: «فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا» (3: 146)، حيث تجب فيها الدفاع حسب المستطاع: «وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» (42: 39)، و يجمعهما «فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» أنفسكم أو سواكم: «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» (42: 30).

و المصيبة ان كانت حسنة فمن اللّه و ان كانت سيئة فمن نفسك و كل من عند اللّه، حيث يأذن له تكوينيا مهما كانت غير مأذونة تشريعيا: «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» «قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا» (5: 49)، و هي تعم كتابة الجزاء هنا، و كتابة تمشية الإختيار ممن يظلم بما يصيب سواه، و كتابة الامتحان لمن يرتقي بما يصاب صابرا عليه ف‏ «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ» (57: 23)، و على أية حال‏ «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» صدورا باذنه أيا كان: «وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً. ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ...» (4: 79).

فإذا كانت المصيبة السيئة من عند اللّه بما كسبت أيديكم أم بما كسبت أيدي الناس أم و ابتلاء من اللّه، فقضية الإيمان باللّه أن تقول عندها «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» مهما وجبت عليك الدفاع و الإنتصار، فإنها لا تطارد كلمة الاسترجاع.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 234

و

قد قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «من استرجع عند المصيبة جبر اللّه مصيبته و أحسن عقباه و جعل له خلفا صالحا يرضاه»

و

«ما من نعمة و ان تقادم عهدها فيجدّد لها العبد الحمد إلا جدّد اللّه له ثوابها، و ما من مصيبته و إن تقادم عهدها فيجدد لها العبد الاسترجاع إلا جدد اللّه له ثوابها»-

و

«إذا مات ولد العبد قال اللّه لملائكته قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم- فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟

فيقولون: حمد و استرجع، فيقول اللّه: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة و سموه بيت الحمد»-

و

«ان للموت فزعا فإذا أتى أحدكم وفاة أخيه فليقل: إنا للّه و إنا إليه راجعون و إنا إلى ربنا لمنقلبون ...»

و ليس فحسب مصيبة الموت التي يحق لها الاسترجاع، بل و

«إذا انقطع شسع أحدكم فليسترجع فإنها من المصائب»-

و قد

طفى سراج النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» فقيل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أ مصيبة هي؟ قال:

نعم و كل ما يؤذي المؤمن فهو مصيبته له و أجر

و على الجملة

«قسم اللّه العقل على ثلاثة أجزاء فمن كنّ فيه فهو العاقل و من لم يكنّ فيه فلا عقل له، حسن المعرفة باللّه و حسن الطاعة للّه و حسن الصبر للّه» «1».

هذا! ثم و «قالوا» هنا تلك المهمة الكبرى التي يبشر اللّه فيها، ليست‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 156- 159- أخرج كلّا جماعة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)، و منها ما أخرجه الديلمي عن عائشة قالت‏ أقبل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قد لدغته شوكة في إبهامه فجعل يسترجع منها و يمسحها فلما سمعت استرجاعه دنوت منه فنظرت فإذا أثر حقير فضحكت فقلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بأبي أنت و أمي أكل هذا الاسترجاع من اجل هذه الشوكة؟ فتبسم ثم ضرب على منكبي فقال: يا عائشة إن اللّه عز و جل إذا أراد أن يجعل الصغير كبيرا جعله و إذا أراد ان يجعل الكبير صغيرا جعله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 235

هي- فقط- لفظة القول، كما الصبر- أيضا- ليس من هذه المقولة، فإنما «قالوا» باللسان إخبارا عن حالة واقعة في الجنان، فألسنتهم قائلة و أعمالهم- عند المصيبة- عما في القلب: «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ».

أم «قالوا» بلسان قالهم و حالهم و أعمالهم، فهم- إذا- بكل كيانهم استرجاع لربهم عند مصائبهم. «إنا للّه» ككلّ- في ذواتنا و صفاتنا و أفعالنا و إدراكاتنا، فكلّ مالنا و منا و إلينا، مماليك للّه دون أية حرية طليقة عن مشيئة اللّه، فحين تصيبنا مصيبته لسنا نتضايق أبدا و لا نتساءل، لأنها ليست إلّا بإذن اللّه، ثم‏ «وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» كيفما كنا و أين و أنّى.

ترى ما ذلك الرجوع؟ أ رجوع إليه عما كنا عنده؟ «وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ» دون انفصال علمه و قدرته و إرادته!.

أم رجوع إلى عالمه الأخير في الدار الآخرة؟ و لم نكن فيها حتى نرجع إليها! ثم الرجوع إليها ليس- بالتمام- رجوعا إليه حتى و إن كنا من قبل فيها!.

قد يعني‏ «إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» رجوعنا الى ما كنا في «إنا للّه» و لكن أين؟

فهل رجوعا الى ما نحن الآن من «إنا للّه» و هو تحصيل للحاصل؟!.

علّه رجوع الى «إنا للّه» قبل الإختيار و التكليف إذ كنا أجنّة في بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا حتى نعلم شيئا فكنا «للّه» لا لأنفسنا، إذ لم نكن نسطع على شي‏ء من أمرنا، فكذلك نرجع إليه بنفس الحالة، حيث الحياة البرزخية ثم الأخرى، لا خيرة للأحياء فيها: «اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (30: 11). «وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (41: 21). ف «إنا للّه» اعتراف باختيار ما اختار اللّه لنا يوم الدنيا، و كما كنا مسيّرين فسوف نرجع إليه كما بدأنا.

أم‏ «وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» عن كلا المرحلتين من «إنا للّه» حيث الرجوع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 236

و ان اقتضى البدء، فالأولى بدءه، ثم الثانية تنتهي اليه مصيرا للمسير، فقولنا: إنا للّه، اقرار على أنفسنا بالملك و إنا اليه راجعون، إقرار بأهلك‏ «1» ... فإذا نحن في البدء «للّه» اختيارا و دون اختيار، ثم في المصير ليس لنا اختيار، فأحرى لنا ان نختار في عالم التكليف و الإختيار ما هو يختار، تصبّرا على المصاب، و قولا بالصواب: «إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ»- «وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (2: 245).

فعلى م تأسف و تجزع أيها الإنسان عند المصاب و لا يملك إلّا رب الأرباب، ثم و إليه المصير! فلا حول لك و لا طول في المصاب الذي ليس لك فيه ذهاب و لا إياب، اللهم إلا الذي يأتيك جزاء ليس لك عنه محيد.

ذلك! و لكن الصبر على المصاب حيث أصاب، لا يعني الصبر على كل ظلم و ضيم، فان واجب الدفاع عنده يحرّض على كلّ محاولة مستطاعة لدفع الظلم، فإنما الصبر على ما وقع منه دون جزع او تساءل على اللّه، ثم العمل الجادّ على دفع الإصابة المشرفة، و إزالة البقية من الواقعة.

أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ‏ 157.

و علّ هذه الثلاث- و أنعم بها و أبشر- هي المبشرّ بها في‏ «وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ»:

ف‏ «صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ» هي رحمات عدة، يرفعهم اللّه بها إلى المشاركة في نصيب نبيّه حيث يصلي عليه هو و ملائكته، فهي صلوات زيادة على عامة الصلوات في‏ «هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً» (33: 43)، ثم «و رحمة» خاصة مع هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 144 عن اصول الكافي و نهج البلاغة عن الامام علي (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 237

الصلوات الرحمات‏ «وَ أُولئِكَ هُمُ» و كأنه لا سواهم «المهتدون»، فهنالك صلوات تعم المؤمنين، ثم خاصة تخص الشهداء منهم و الصابرين، و من ثم أخص تخص النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أهله المعصومين (عليهم السلام)، و كما أمرنا ان نصلي عليهم لمّا نصلي عليه.

و قد تعني «صلوات» هنا لقرنها ب «رحمة» انعطافات ربانية عليهم تخلّف رحمة عظيمة تلمح لها التنكير في «رحمة» و قد يدل عليه «يصلي عليكم ليخرجكم» حيث الإخراج من الظلمات إلى النور هو الرحمة، إذ ف‏ «يُصَلِّي عَلَيْكُمْ» انعطاف لذلك الإخراج عن ورطة الإحراج، و كما أن «صلوات» تخلّف «رحمة» كذلك الرحمة تخلف الهداية، ثلاثة ردف بعض، كلّ تنتج الأخرى، مهما كانت كل صلاة من اللّه و رحمة و هداية، إلّا أن الاختلاف هو في الدرجة.

إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ‏ 158.

آية وحيدة في شعيرة الصفا و المروة و: «التطوف بهما»، و هو فريضة في الحج و العمرة، و ركن فيهما، فترى كيف يعبّر عنه ب «لا جناح» سلبا لحرمته، ثم‏ «تَطَوَّعَ خَيْراً» إيجابا لندبه، و الفريضة هي فوق الوجوب المتعوّد؟!.

«لا جناح»- بالنسبة لهذه الشعيرة الفريضة- تلمح أنه كان يخلد بخلد المسلمين يومذاك جناح في التطوّف بهما، و كما تدل عليه أسباب نزول عدة:

«أن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا و المروة شي‏ء صنعه المشركون» فانزل اللّه: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ ... «1»،

و لأن أصناما كانت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الكافي عن الصادق (عليه السلام) في حديث ... و ان المسلمين ... و في الدر المنثور عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 238

على الصفا و المروة أو بينهما فكيف نسعى بينهما؟ «1» فنزلت آية اللّاجناح سلبا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

انس انه سئل عن الصفا و المروة- قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل اللّه الآية، و فيه عن عمرو بن حبيش قال سألت ابن عمر عن قوله: ان الصفا ...

فقال: انطلق الى ابن عباس فاسأله فانه أعلم من بقي بما أنزل على محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فأتيته فسألته فقال: انه كان عندهما أصنام فلما أسلموا أمسكوا عن الطواف بينها حتى نزلت الآية.

و فيه عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام لقد سمعت رجالا من اهل العلم يقولون لما انزل اللّه الطواف بالبيت و لم ينزل الطواف بين الصفا و المروة

قيل للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ان كنا نطوف في الجاهلية بين الصفا و المروة و ان اللّه قد ذكر الطواف بالبيت و لم يذكر الطواف بين الصفا و المروة فهل علينا من حرج ان لا نطوف بهما فانزل اللّه: إِنَّ الصَّفا ...

قال ابو بكر فأسمع هذه الآية في الفريقين كلاهما فيمن طاف و فيمن لم يطف.

(1).

في الدر المنثور 1: 160 عن عامر الشعبي قال: وثن بالصفا يدعى إساف و وثن بالمروة يدعى نائلة فكان اهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت يسعون بينهما و يمسحون الوثنين فلما قدم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان الصفا و المروة انما كان يطاف بهما من اجل الوثنين و ليس الطواف بهما من شعائر اللّه فانزل اللّه الآية ...

و

فيه عن عائشة ان عروة قال لها: أ رايت قول اللّه تعالى: ان الصفا و المروة ... فما أرى على أحد جناحا ان لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أوّلتها كانت فلا جناح عليه الّا يطوف بهما و لكنها انما نزلت ان الأنصار قبل ان يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها و كان من أهل لها يتحرج ان يطوف بالصفا و المروة فسألوا عن ذلك رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقالوا يا رسول اللّه إن كنا نتحرج ان نطوف بالصفا و المروة في الجاهلية فأنزل اللّه: ان الصفا و المروة ... قالت عائشة ثم قد سن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الطواف بهما فليس لأحد ان يدع الطواف بهما.

و

في تفسير البرهان 1: 170 عن تفسير العياشي في خبر حماد بن عثمان قال ابو عبد اللّه (عليه السلام): انه كان على الصفا و المروة أصنام فلما ان حج الناس لم يدروا كيف يصنعون فأنزل اللّه هذه الآية فكان الناس يسعون و الأصنام على حالها فلما حج النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) رمى بها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 239

لذلك الجناح المزعون، ثم‏ «مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ» تثبت فرض السعي فإنها- ككلّ- مفروضة على المسلمين في مجالاتها: «وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (22: 32) و من تعظيمها تطبيقها بعد تعظيمها معرفيا و عقيديا و قوليا، و من أعظمها إذاعتها بين الجماهير، إذا فترك تعظيمها هو من طغوى القلوب أم خلاف تقواها، و التقوى بصورة عامة و لا سيما «تَقْوَى الْقُلُوبِ» المستطاعة واجبة على أصحاب القلوب: ف‏ «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ» (3: 102)- «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» (64: 16) «1».

و قد تقتضي طبيعة الحال نزول آية اللّاجناح عند أوّل فرض لعمرة أو حج، و هو عمرة القضاء- سابع الهجرة-،

ان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) شرط عليهم- فيها- أن يرفعوا الأصنام من الصفا و المروة فسئل عن رجل ترك السعي حتى انقضت الأيام و أعيدت الأصنام فجاءوا إليه فقالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): إن فلانا لم يسع بين الصفا و المروة و قد أعيدت الأصنام فأنزل اللّه‏ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما

أي:

«و عليهما الأصنام» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في فرض السعى أحاديث عدة منها ما

في الدر المنثور 1: 160- اخرج الشافعي و ابن سعد و احمد و ابن المنذر و ابن قانع و البيهقي عن خبيثة بنت أبي بحران قالت: رأيت رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يطوف بين الصفا و المروة و الناس بين يديه و هو وراءهم و هو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره و هو يقول: و اسعوا فان اللّه عز و جل كتب عليكم السعي‏

، و

فيه اخرج الطبراني عن ابن عباس قال‏ سئل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: ان اللّه كتب عليكم السعي فاسعوا.

(2)

نور الثقلين 1: 148 عن الكافي‏ سئل ابو عبد اللّه (عليه السلام) عن السعي بين الصفا و المروة فريضة ام سنة؟ فقال: فريضة، قلت: او ليس قال اللّه عز و جل‏ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما؟ قال: كان ذلك في عمرة القضاء ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 240

و من ثم حجة الوداع حين حج رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و المسلمون أجمع من استطاع إليه سبيلا كما يروى عن الإمام الصادق (عليه السلام).

ام انها نزلت قبلهما حيث كان يتفلّت بعض المسلمين لأداء حج أو عمرة فرادى و في خفية قبل عمرة القضاء و حجة الوداع، ممن كانوا- بعد- في مكة المكرمة، أم يقصدونها دونها، و علّها نزلت مرات، أم تليت على المسلمين مرة بعد أخرى و لا سيما في حجة الوداع و كانت أحرى بها، و لأن الطواف بهما- بعد- بسوء السابقة لهما لوجود الأصنام، كان تكلّفا للموحدين الجدد، الباغضين الأصنام، لذلك يلحق اللاجناح هنا ب‏ «وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ» حيث التطوع هو تكلف في الطوع لكراهية قلبية أماهيه سواء أ كان في ندب لعدم فرضه، فالآتي به يتكلف زيادة على واجب التكليف، كما في تطوع الصوم على الذين يطيقونه: «وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (2: 184) فالصوم لمن يطيقه هو من تطوع الخير لصعوبته في نفسه، كما ان قسما من المندوب من تطوع الخير صعوبة نفسية لأنه زيادة على الفرض.

ام هو تطوع في فرض كما هنا إذ كانوا يتحرجون من الطواف بهما ظنا أنه سنة جاهلية، و علما أنهما كانا محل الأصنام و مطافها، فهنا اللّه يشكر الطائفين بهما، علما بهذه الكراهية، و علما بأنه من الشعائر التي لا تترك بحال، و علما بان في ذلك صلاح الجماعة المسلمة.

و هذه ضابطة سارية المفعول في كل الحقول أن تطوّع الخير خير عند اللّه، و على ضوءها الحديث «أفضل الأعمال أحمزها».

فقد يكون تكلف الطوع- فقط- بدنيّا كصوم المطيق له، لإزالته الطاقة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 241

البدنية، أم- فقط- نفسيا، كالآتي بالمندوب او المفروض، مستهل التطبيق، و لكنه مستصعب في وجه الحكمة.

أم هو متكلّف فيه نفسيا و بدنيا كالتطوف بالصفا و المروة، فاجتياز تلك المسافة البعيدة مرات سبع، بزحام بالغ، و حرّ حارق، و صدام في الجمع حانق، ذلك تكلف بدني! ثم هو تكلف نفسي في بعدين اثنين ثانيهما خفاء وجه الحكمة في ذلك الفرض الركن، إضافة الى أوّلها، تحرجا عن موقف الأصنام و سنة كأنها جاهلية.

فليس التطوع- إذا- ليدل على ندب المتطوع فيه كما لا يدل على فرضه، فقد يكون ندبا و لا تطوع فيه كالسواك و النكاح أمّا شابه، أو يكون فرضا فيه تكلف كفرض الحج بكل مناسكه، فالتطوع في صيغة واحدة هو تكلف الطوع، سواء أ كان في فرض أو ندب، و لقد كانت الدعوة الجادة الجديدة الحادة ضد الشرك و طقوسه، هزت أرواحهم هزا، و تغلغلت فيها إلى الأعماق، فأحدثت انقلابا نفسيا حتى لينظرون بجفوة و تحرّز الى ماضيهم الجاهلي، حيث انفصلوا عنه انفصالا تاما طاما كلّ كيانهم، فلم يعد منهم في شي‏ء، و لم تعد دوامته في شي‏ء، فكيف يطوفون بالصفاء و المروة و هو من طقوس الجاهلية- بزعمهم- و هو موقف الأصنام في الواقع الماضي، و مدفنها بعد الماضي!.

هذا- و لكن شرعة الحق تريد الإبقاء على بعض تلك الشعائر لأنها من شعائر اللّه، مهما اتخذتها الجاهلية الجهلاء من شعائرها، و استغلتها لحرمة الأصنام إذ كانوا يلمسونها في طواف البيت و السعي، نزعا لها عن أصلها الجاهلي، و عودا بها الى أصلها الإلهي، فليست الشعيرة الجاهلية المتّخذة لتمحو الشعيرة الإلهية الأصيلة قبلها ف: «إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ ...»!.

و ترى ما هي شعائر اللّه بوجه عام؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 242

لقد جاءت شعائر اللّه في ثلاث أخرى، كما «الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ» (22: 36) بل و الحج بمناسكه ككل من شعائر اللّه:

«وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (22: 32) إذ هي تأتي بعد آية الحج بمناسك له: و أذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق. ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم اللّه في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها و أطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم و ليوفوا نذورهم و ليّطّوفوا بالبيت العتيق. ذلك و من يعظم حرمات اللّه فهو خير له عند ربه و أحلت لكم بهيمة الأنعام إلّا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور. حنفاء للّه غير مشركين به و من يشرك باللّه فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق. ذلك و من يعظم شعائر اللّه ... (32). فالحج ككل هي شعائر اللّه: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلائِدَ وَ لَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ ...» (5: 2). فلان تعظيم شعائر اللّه هو من تقوى القلوب، و هي مفروضة قدر المستطاع، ثم إحلالها- و منه تركها- منهي عنه هنا، إذا نتأكد أن التطوّف بالصفا و المروة هو من تقوى القلوب الواجبة، لا يجوز إحلاله، و إنما «لا جناح» سلب لجناح مزعوم.

ثم الشعائر- لغويا- هي جمع الشعيرة، و هي ما تشعر و تعلن بدقة على كونها محسوسة باهرة ظاهرة، كما الشعار هو ما يشعر به الإنسان نفسه أي يعلم، فالمشاعر و الشعائر هي المعالم الظاهرة المتظاهرة الإلهية التي تعلم و تعلن للناس حقائق جمة بدقة و همامة، فقد يكون شعار بلا شعور، أم شعور بلا شعار، و لكن شعائر اللّه تجمع إلى الشعار الشعور، و الى الشعور الشعار، فهي مذياعات صوتية و صورية إلهية للإسلام تعريفا به ككلّ، و تشريفا له ككلّ، في مناسك هي في الأكثرية الساحقة أو المطلقة أعمال أم تروك بلا ألفاظ إلّا قلة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 243

قليلة هي التلبيات و الصلاة، إذا فليست الأعمال الجوانحية من شعائر اللّه، و لا كل الواجبات أو الفرائض الجوارحية هي من شعائر اللّه، و إنما هي مذياعات الشرعة الإلهية بطقوسها الجماعية المعلنة، التي تدل بدقة و لطافة على حقائق رقائق في شرعة الحق.

و كما ان‏ «الشَّهْرُ الْحَرامُ» في المائدة مصداق محوري للشعائر لأنه مسرح زمني لشعائر الحج، كذلك‏ «إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ» هما مسرح مكاني لشعيرة السعي، فليس الزمان و المكان أيا كان شعيرة إلهية إلّا بما يحل فيهما من شعائر اللّه.

و لأن كونهما من شعائر اللّه يتفرع عليه هنا «فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» نعرف كضابطة سارية ان الشعائر الإلهية لا يصد عنها أي صاد، فإنها ماضية على أية حال، قاضية على أي جناح مزعوم حين يفسح لها مجال.

و الجناح بمعنى الميل، ميلا عنه و هو الأكثر استعمالا كما هنا ميلا بفاعله عن الحق، أم ميلا إليه و هو الأقل استعمالا و علّه أيضا ميل الى الباطل، أم هي معرّبة عن «كناه» الفارسية، و على أية حال فهي عصيان، و السعي فريضة في حج البيت و عمرته‏ «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ» سواء أ كان حج التمتع أو القران أو الإفراد، أو العمرة مفردة و سواها، فرضا و سواه، فإنهما يفرضان بالإحرام، و الطواف هو الدوران حول الشي‏ء إذا كان له حول كالكعبة المباركة، و هو- ككل- السير الذي ينتهي آخره إلى أوّله، فهو يعم السعي و الطواف، فالواجب فيه- ككل- الانتهاء الى حيث بدء.

و واجب البدءة في السعي هو من الصفا، و كما ينتهي السير إليها ثم الى المروة، ف‏

«ابدأ بما بدء اللّه به» «1»

كضابطة عامة هنا و في غيره.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حديث مستفيض عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و أئمة اهل بيته (عليهم السلام) في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 244

و السعي من أهم المناسك و أحبّها إلى اللّه، بل و

«ليس للّه منسك أحب إليه من السعي و ذلك أنه يذل فيه الجبارين» «1»

بل و

«جعل السعي بين الصفا و المروة مذلّة للجبارين» «2»

هذا- و لكنه لا يؤتى به إلّا ضمن حج أو عمرة كما قال اللّه‏ «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ ...» فالإتيان به دونهما جناح و بدعة، و اما الطواف بالبيت فجائز في غيرهما لثابت السنة و عدم الحظر عنه في آيته، و هنا «فلا جناح» قد يعتبره في غير حج أو عمرة جناحا!.

ترى و متى فرضت فريضة السعي بين الصفا و المروة، و ما هي الصفا و ما هي المروة؟ قد يكون‏

سمي الصفا صفا لأن المصطفى آدم هبط عليه فقطع الجبل اسم من اسم آدم (عليه السلام) يقول اللّه عز و جل: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً ...» و قد هبطت حواء على المروة، و إنما سميت المروة مروة لأن المرأة هبطت عليها فقطع للجبل اسم من اسم المرأة «3».

كما و

ان الصفيّة هاجر قامت على الصفا- حين عطش إسماعيل- فقالت:

هل بالوادي من أنيس؟ فلم يجبها أحد فمضت حتى انتهت إلى المروة فقالت:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

مجالات عدة، منها ما

في الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال في حديث طويل: ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ابدء بما بدأ اللّه به فأتى الصفا فبدأ بها.

و في الدر المنثور 1: 160- اخرج مسلم و الترمذي و ابن جرير و البيهقي في سننه عن جابر قال: لما دنا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من الصفا في حجته قال: ان الصفا و المروة من شعائر اللّه، ابدءوا بما بدأ اللّه به فبدأ بالصفا فرقى عليه.

و

عن الصادق (عليه السلام) ما من بقعة أحب إلى اللّه من السعي لأنه يذل فيها كل جبار عنيد.

(1). نور الثقلين 1: 147 في الكافي عدة من أصحابنا عن سهل رفعه قال: ليس للّه ...

(2) فيه عنه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: جعل السعي ...

(3) نور الثقلين 1: 145 في علل الشرايع باسناده الى عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 245

هل بالوادي من أنيس؟ فلم تجب، ثم رجعت إلى الصفا فقالت كذلك حتى صنعت ذلك سبعا فأجرى اللّه ذلك سنة ...» «1»

و

«لأن الشيطان ترايا لإبراهيم (عليه السلام) في الوادي فسعى و هو منازل الشياطين» «2»

: منازل الشياطين- تحت الأرضية- الأوثان، التي دفنت في الصفا و المروة، و الشياطين فوق الأرضية الملاحقين الطائفين بالبيت، فقد نطأ الأوثان بسعينا عليها، و نفرّ عن الشياطين الذين يلاحقوننا بعد الطواف، ليستلبوا عنا الروحية التوحيدية المخلّفة عنه، فليس هو العدو كيفما كان، فقد يعدو الساعي و قد يركض، فكم من عاد غير ساع، أو ساع غير عاد، إنما هو الجد الهادف في العمل الجادّ، و الهرولة فيه هي سعي في سعي، كذلك و الشياطين الداخليين، حيث السعي بهرولته تسقطهم عن قلبك، كما استقطتهم عن قالبك، إذا فثالوث الشيطنات تسقط بسعيك لو سعيت فيه كما أمرت.

و السعي هو الجد الهادف، تفتيشا دائبا عما يهمه، ام فرارا عما ينعمه، و الساعي في السعي بين الصفا و المروة يفر عن الشيطنات الثلاث، و ليجد ضالة التوحيد عقبى، و ضالة العيشة دنيا، كما و نلاحقهم سعيا وراءهم.

فآدم (عليه السلام) يسعى من الصفا الى المروة- بعد طواف البيت- إنشادا لضالته: المرأة، فقد ضل عنها و ضلت عنه في الطواف، انقطاعا كاملا إلى اللّه، و هنا ينشدها بأمر اللّه، فإن كلّا من الأمرين هو في مجالته و حالته من أمر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن العلل باسناده إلى معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إن ابراهيم (عليه السلام) لما خلف إسماعيل بمكة عطش الصبي و كان فيما بين الصفا و المروة شجر فخرجت امه حتى قامت على الصفا ...

(2)

المصدر عن العلل باسناده الى حماد عن الحلبي قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) لم جعل السعي بين الصفا و المروة؟ قال: لان الشيطان ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 246

اللّه، رمزا للجمع بين الدين و الدنيا، الدين كأصل و الدنيا كهامش لا تضربه بل و قد تؤيده، و هذا درس أوّل في السعي من آدم.

و درس ثان من الصفية هاجر حيث حلّت محل الصفي على الصفا تفتّش عن ماء و أنيس لإسماعيلها العطشان الوحيد، فلا يؤيسها رمضاء الهواء و فاقد الماء، او الاتكالية الفوضى- الفاضية- على اللّه دون سعي، بل تسعى سعيها مرات سبع، متكلة على اللّه بسعيها، فتفور فائرة الماء من آرتزية زمزم.

فليسع الساعون للحصول على بغية الحياة الرامز إليها الماء، دون أن يصدّهم صادّ، متكلين على اللّه بسعيهم‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

و درس ثالث من السعي ان نطأ مخابئ الأوثان «إساف و نائلة» أمّا شابه، و ذلك من شعائر التوحيد السلبية بعد إيجابية الطواف، فلأنّ السلب في كلمة التوحيد أطول من الإيجاب و أعضل، فليكن الإيجاب بين سلبين- فإنه أسهل-:

أوّلهما سلبيات الإحرام أما شابه، و ثانيهما سلبيات السعي، البادئة بوطئ الأوثان الدفينة تحت الأرض، ثم الظاهرة عليها، و من ثم الدفينة في النفس، فان حركات السعي، و لا سيما الهرولة كما الآبال، تسقط عنك ما علّقته بنفسك ما هو أجنبي عنها من إنيات و أنانيات.

و كل ذلك- كما الطواف- في سبعة أشواط، سلبا لأبواب الجحيم السبع، التي هي من شيطنات سبع، المنقسمة من أصولها الثلاثة:

«الشيطان- البقر- النمر» وحدويات ثلاث، و إثينيات ثلاث، و جمعية واحدة هي كلّ الثلاث.

أو ليس الصفا و المروة- بعد- من شعائر اللّه، حيث يشعرنا برموز كهذه، و هو من إذاعات إلهية بارزة لدحر الشياطين و الشيطنات، و إثبات حق الحياة، و السعي في كلا النفي و الإثبات في حيوية التوحيد الحق؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 247

ثم بعد كل ذلك‏ «وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ» ربنا يشكرنا أن تطوعنا خيرا و هو خير لنا لا له: «فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ» (2: 184)!، لأن تطوع الخير هو خير الخير، تكلفا نفسيا و بدنيا في السعي أما شابهه مما يتكلف فيه ... و من صلات آية الصفا بما سبقها من آيات، أن السعي هو من الشعائر الإبراهيمية، ثم ل‏ «بَشِّرِ الصَّابِرِينَ» موضع من صبره على إسماعيله الرضيع حيث وضعه و أمّه بواد غير ذي زرع، و صبر هاجر عليه حتى سعت لتجد له أنيسا أو ماء، ثم و موضع من الصبر على تطوع السعي، نفسيا و بدنيا «فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ»! و لنقف حائرين مختجلين أمام ذلك التعبير العبير «فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ» و كأنه أهديت إليه بهدية يشكر لها، و المهدي في كل مجالات الهدايا هو اللّه!.

و إذا كان الرب يشكر عبده على واجب عبوديته الصالحة له دون ربه، فما ذا على العبد في شكره لربه و هو غريق في خضمّ نعمه!.

مسائل فقهية أخرى في السعي‏

: 1 السعي ركن في الحج بأقسامه الثلاثة و في العمرة مفردة و تمتعا، يبطل كلّ من الحج و العمرة بتركه عمدا، فان تركه ناسيا يعيده حيثما ذكر ان أمكن، و إلّا فيطاف عنه‏ «1»، و هو بعد الطواف، ثم بعده التقصير- فقط- في عمرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الكافي 4: 436 و التهذيب 1: 489 صحيحة معاوية بن عمار عن الصادق (عليه السلام): «من ترك السعي متعمدا فعليه الحج من قابل»

و اما الناسي‏

ففي الحسن عن معاوية بن عمار عن الصادق (عليه السلام) قال‏ قلت له: رجل نسي السعي بين الصفا و المروة؟

قال: يعيد ذلك، قلت: «فانه خرج؟ قال: يرجع فيعيد السعي» (التهذيب 1: 489 و الاستبصار 3: 238)

و في صحيح ابن مسلم عن أحدهما (عليهما السلام) سألته عن رجل نسي ان يطوف بين الصفا و المروة حتى رجع الى أهله؟ قال: يطاف عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 248

التمتع، و في المفردة بين الحلق و التقصير، و في الحج ليس بعده حلق و لا تقصير.

2 واجب السعي هو الأشواط السبعة، ابتداء من الصفا، و اختتاما الى المروة بنيّة السعي للحج أو العمرة.

3 واجب الأشواط أن تكون بين الجبلين حيث النص‏ «أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما» دون «عليهما- أو- فوقهما» و كما

في الأثر الصحيح‏ «السعي بين الصفا و المروة فريضة»

فلو انحرف عن الحد بين الجبلين أجبره.

4 يبطل السعي بالزيادة عمدا كما

«الطواف المفروض إذا زدت عليه مثل الصلاة إذا زدت عليها فعليك الإعادة و كذلك السعي» «1»

و سائر التفاصيل الخارجة عن مدلول آية السعي راجعة الى فقه المناسك‏ «2».

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى‏ مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159).

الكتمان هو الستر على ما يجب إفشاءه أم هو فاش، سئل عنه أم لم يسأل، فانما هو هنا الأمر المنزل لكافة المكلفين، فانه لغويا: ستر الحديث، و هو يعم الحديث الفاشي المستور بعد الظهور او الذي لا يظهر، و هو بصيغة أخرى: ترك إظهار الشي‏ء مع الحاجة إليه و حصول الداعي إلى إظهاره، و هذا أخف مراحل الكتمان، ثم‏ «ما أَنْزَلْنا» يعم نازل الوحي من كتاب و سنة، و «البينات» هي الحج الباهرة، سواء أ كانت بينات التوحيد او الرسالة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التهذيب 1: 489 و الاستبصار 3: 217 و 439 عبد اللّه بن محمد عن أبي الحسن (عليه السلام).

(2) راجع كتابنا (اسرار- مناسك- ادلة الحج) باللغة الفارسية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 249

و المعاد، ام بينات لمادة الرسالة، فهي على أية حال بينات للهدى فانها مادة الرسالة، حيث الشرعة مركبة- ككل- من بينات و هدى، و الثانية ناتجة عن الأولى، فقد تكتم البينات كإخفاء لآيات الهدى تكوينية أو تشريعية، أم تكتم الهدى الناتجة عن تلكم البينات كتمانا لدلالتها على هداها، تأويلا لها إلى غير معناها.

ثم‏ «مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ» لها مرحلتان، من بينات و هدى بينت لناس أم لكل الناس ثم تكتم بتدجيل و تجديف، و تلك هي الدركة السفلى من الكتمان.

و من بينات و هدى بينت لغرض أن تبيّن للناس، فانها ليست- ككل- مبيّنة دون وسيط لكل الناس، لأنّ منهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أماني فكيف بيّنت لهم؟ و منهم دارسون لا يقرؤن الكتاب فكيف بينت لهم؟ و منهم من يتلون الكتاب و لا يعرفون كل بيناته و هداه، و هم كلهم من ضمن الناس الذين يقول اللّه عنهم‏ «مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ»، فسواء بين لناس دون وسيط، أم بين بوسيط يحمّل تبيينه لسائر الناس، و كما تقسّم الأرزاق قسمين ثانيهما ان يرزق المرزوق بما ينفق عليه المنفقون بإذن اللّه تكوينا و تشريعا، فانه أيضا من رزق اللّه، فقد تشمل الآية الكتمانين، كما تشمل الكاتمين كتابيا و مسلما، كتمانا لأصول من الدين أم فروع منه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 149 في احتجاج الطبرسي عن أبي محمد العسكري (عليهما السلام) حديث طويل و فيه: قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) من خير خلق اللّه بعد أئمة الهدى و مصابيح الدجى؟ قال: العلماء إذا صلحوا، قيل: فمن شر خلق اللّه بعد إبليس و فرعون و ثمود و بعد المسمّين بأسمائكم و بعد المتلقبين بألقابكم و الآخذين لأمكنتكم و المتأمرين في ممالككم؟ قال:

العلماء إذا فسدوا، هم المظهرون للأباطيل ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 250

فاللّه يبين ما أنزل من البينات و الهدى للرسول بيانا للناس، و الرسول يبينه لمن يأهل تعلما لكلّ ما أنزل و هم أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، و هم يعلّمون العلماء على مراتبهم، ثم يعلمون سائر الناس، لأن النازل من اللّه ليس- فقط- للرسول او الائمة أو العلماء، إنما «مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ»:

«وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (16: 44) و «هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» (3: 138).

ف‏

شر خلق اللّه العلماء إذا فسدوا و هم المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق و فيهم قال اللّه‏ «أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» «1».

و كما يحرم على علماء الكتاب كتمان ما أنزل اللّه، كذلك يحرم على الجهال كتمان أنفسهم عن تعلّم ما أنزل اللّه، و الحق الأوّل هو على العلماء، فان من الجهال من يجهل انه يجهل، أم يعلم جهله و لكنه لا يجد سبيلا الى التعلم، فعلم الدين كالماء يجب إرساله الى كل مكان لينتج نتاجه أيّا كان و في أيّ كان.

و ليس يجب تعليم الدين- فقط- لمن يسأل، بل و من لا يسأل أم لا يعرف كيف يسأل، بل هما أحرى ممن يسأل، و الكتمان يشمل موارد السؤال و سواها، ف‏

«من سئل من علم عنده فكتمه ألجمه اللّه بلجام من نار يوم القيامة»

، و

«من كتم علما مما ينفع اللّه به الناس في أمر الدين ألجمه اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 162 عن أبي هريرة ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال:

و

في تفسير البرهان 1: 170 العياشي عن زيد الشحام قال: سئل ابو عبد اللّه (عليه السلام) عن عذاب القبر قال: ان أبا جعفر حدثنا ان رجلا أتى سلمان الفارسي فقال: حدثني فسكت عنه ثم عاد فسكت فأدبر الرجل و هو يقول و يتلو هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ... فقال له: أقبل- إنا لو وجدنا أمينا لحدثناه و لكن أعد لمنكر و نكير إذا أتياك في القبر فسألاك عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فإن شككت او التويت ضرباك على رأسك بمطرقة معهما تصير منه رمادا، فقلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 251

بلجام من نار» «1»

، و

«مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدّث به كمثل الذي يكنز الكنز فلا ينفق منه» «2».

و قد تعني‏ «ما أَنْزَلْنا»- فيما عنت-: فطرت اللّه التي فطر الناس عليها، و العقل، فإنهما مما أنزل اللّه من البينات و الهدى، مشمولة ل‏ «الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏».

فمن الناس من يكتم فطرته و عقليته، صدا على نفسه منافذ الهدى، و آخرون يصدون على آخرين، و ثالثة تجمع في الكتمان بين بينات نفسه و هداها، و ما للآخرين فطريا و عقليا، ثم يكتم البينات الأخرى و هداها، فهو في ثالوث اللعنة العصيان!.

إذا ف‏ «ما أَنْزَلْنا» تشمل المنزل تكوينا و تشريعا، انفسيا كالفطرة و العقلية الإنسانية و آفاقيا ككل البينات الكونية و الشرعية، و الفرق بين البينات و هي الآيات الربانية الباهرة- و الهدى، ان الثانية هي نتيجة الأولى فالآيات البينات هي دالات على الهدى في كل حقول الدلالات، فمن يكتم البينات عن دلالاتها، أو الهدى بعد واقعها بتلك البينات‏ «أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» فكلّ ذلك كتمان مهما اختلفت دركاته حسب مختلف درجات البينات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

له: ثم مه؟ قال: تعود ثم تعذب، قلت: و ما منكر و نكير؟ قال: هما قعيدا القبر، قلت:

أ ملكان يعذبان الناس في قبورهم؟ قال: نعم.

(1).

المصدر عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ... و فيه أخرج ابن ماجة عن جابر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) إذا لعن آخر هذه الأمة أولها فمن كتم حديثا فقد كتم ما انزل اللّه.

(2) المصدر أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 252

و الهدى، و مختلف دركات الكتمان قبل البيان و بعد البيان و صدا عن التبيان، ف «أولئك» الكاتمون‏ «يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ» إبعادا عن رحمته يوم الدنيا و يوم الدين‏ «وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» استبعادا لهم من اللّه عن رحمتيه، و قد يشمل «اللّاعنون»- إلى جنب الملائكة و الجنة و الناس- الدوابّ‏ «1».

و طبعا هم «اللّاعنون» بحق، فان هناك لاعنين بغير حق، و غير لاعنين الكاتمين، ف «اللّاعنون» هنا هم الذين يلعنون مع اللّه و بحكم اللّه و كما يلعن اللّه، فلأن اللعنة الناتجة عن كتمان ما أنزل اللّه تشمل المحرومين عنه، و تخلق جوّ البعد عن رحمة اللّه، فكأن الكاتمين تحولوا بذلك الكتمان الى ملعنة ينصب عليها اللعن من مصادره، و يتوجه إليها بعد اللّه من كل لاعن!.

ثم «و يلعنهم» ليس- فقط- إخبارا عن واسع اللعن، بل و هو إنشاء أمرا لمن يأتمر أن يلعن الكاتمين، في مثلث الجنان و القال و الفعال، خلقا لجوّ اللعنة عليهم حتى يحيدوا عن غيهم أن يذبلوا بعيّهم، فإنهم ألعن الناس و أظلم الناس، قلوبهم آثمة و في بطونهم نار، فما أنزل اللّه للناس هو شهادة للّه عند العالمين به: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ» (3: 140) و هو من إثم القلب الذي هو قلب الإثم: «وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ» (2: 283) و قد أخذ اللّه ميثاق العلماء على التبيين‏ «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ» (3: 187) «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» (2: 174)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 162- أخرج ابن ماجة و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة مع النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: ان الكافر يضرب ضربتين بين عينيه فيسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعن كل دابة سمعت صوته فذلك قول اللّه‏ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ‏.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 253

«الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ يَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً» (4: 37).

و بيان ما أنزل اللّه واجب كفائي ليس على أعيان العلماء ككلّ، و يكفيه برهانا أن ليس بعد بيان من فيه الكفاية أيّ خفاء فلا كتمان، و لكنما الكفاية قلّما تتفق أم لا تكون إمّا لعدم قيام من فيهم الكفاية، أم عدم الكفاية في العلماء الحضور، فيجب التعلم قدر الكفاية حتى يمكن التعليم ممن فيه الكفاية، فما دام في العالم جهّال فالعلماء الساكتون- غير المعذورين- لا يعذرون، و كذا الذين بإمكانهم التعلّم حتى يعلموا و لا يتعلمون.

ثم البيان في كل عصر و مصر يتطور حسب الحاجة و الإمكان، دون جمود على سنّة خاصة متعوّدة، فلكل حال مقال، و لكل مجال حال، كما الأدواء تختلف حسب مختلف الحال.

فمن المجاهيل من هم بحاجة إلى كلتا البينات و الهدى، و منهم من تنقصه البينات و هو منجذب إلى الهدى، و منهم من تنقصه الهدى دون البينات، ف‏ «ادْعُ إِلى‏ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (16: 125).

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160).

هنا استثناء عن اللعنة الناتجة عن الكتمان بتوبة عنه، و لا فقط قلبية بينه و بين ربه، بل «و أصلحوا» ما أفسدوا بكتمانهم «و بيّنوا» ما كتموا، و منه كتمانهم كتمانهم، إذ كانوا كاتمين أنهم كانوا كاتمين، فكل من فسد و أفسد بكتمانهم لا بد و أن يصلحوه معرفيا و عمليا، فمن كان حيا فأصلحه و بين له فله، و من مات على فساد الكتمان فعليه، و توبة اللّه عليه تختص بما أصلح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 254

و بين دون سواه، قاصرا عنهما بموته أم مقصرا بتكاسله، فانه على أية حال مقصر في كتمانه و لا عفو كليا إلّا إصلاحه.

فحين يتوب و يستطيع الإصلاح عما كتم و البيان لحدّ يرجع المضلّل عما ضل بكتمانه، «فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ» و حين لا يتوب إطلاقا ف‏ «أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» في الأولى و الأخرى، و حين يتوب و لا يصلح او يبين على مكنته مقصرا، أم لا يتمكن لصمود المضلّل على ضلاله أم موته، فهو عوان بينهما، فالتوبة درجات كما الكتمان دركات و «كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ»، و لأن قبول التوبة رحمة من اللّه و حنان، فهي غير مفروضة على اللّه إلا كما كتب على نفسه، فهنا يسقط السؤال انه حين لا يقدر على إصلاح ما أفسد و لا البيان فما هو ذنبه في قصور، حيث الجواب انه معاقب على ما قصر اللهم إلا فيما جبر، فهو بالنسبة لما لم يجبر من كتمانه مستحق اللعنة قصر ام قصّر مهما بان البون بينهما.

و إذا لم يستطع هو على الإصلاح بنفسه و البيان فليحاول فيهما بعلماء ربانيين بامكانهم ما هو عنه قاصر، حيث إن واجب الإصلاح لا يختص بنفسه دون وسيط.

فهؤلاء المصلحون الذين بيّنوا بعد ما أفسدوا بما كتموا، يفتح لهم القرآن هذه المنافذ المضيئة الثلاث، ذريعة الخلاص، يفتحها لهم فتنسم لهم نسمة الأمل على ضوء جادّ العمل، في إعلان صارخ لكل التائبين المصلحين: «وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

فأما المصرون على كتمانهم فلا يزدادون إلّا لعنات على لعنات:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ‏ 161.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 255

«الَّذِينَ كَفَرُوا» ايّا كان كفرهم، و لا سيما كفر الجحود باللّه أم برسالات اللّه، أم و كفر الكتمان لما أنزل اللّه من البينات و الهدى‏ «وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ» دون توبة و إصلاح‏ «أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ» إبعادا عن رحمته «و الملائكة» إمساكا عن إنزالها بإذن اللّه، و استمساكا باللّه في ذلك الإبعاد «وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» قد تعني جمع الناس الى الملائكة، ثم جمعهم في لعنتهم الى اللّه استدعاء منه، مهما خرج ناس عن كونهم لا عنين كالملعونين أنفسهم و أضرابهم، أم و هم أنفسهم يلعنون أنفسهم بما حرموها عن رحمة اللّه، كلعنة تكوينية الى تشريعية لمكلفي المؤمنين‏ «مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ»، و هل‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا» هنا تعم المرتدين عن إيمان؟ طبعا نعم، مهما كان منهم الذين لم يؤمنوا و أمامهم دلائل صدق الإيمان، و كذلك الذين كفروا لا عن إيمان و لا عن دلائل الإيمان الحاضر، و إنما لم يفتشوا عن صالح الإيمان، فقد تشمل‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا» ثالوثه مهما كانوا دركات كما الإيمان درجات و هل إن الموت هنا- فقط- هو حتف الأنف، فإن جن على كفره ثم مات بعد ردح لم يمت كافرا حيث المجنون لا مؤمن و لا كافر؟.

القصد من الموت هو انقطاع التكليف دونه، أن لم يكن يفيق في حياة التكليف عن جنّة كفره، و ليست النجاة عن وصمة الكفر إلّا بالتوبة الصالحة و هذا لم يتب حتى جن و مات على جنته، فقد مات و هو كافر، ام مات عن حياة التكليف على حاله، ام و لأقل تقدير لم يتب، و المستثنى من اللعنة هو التائب المصلح المبين!.

صحيح ان المجنون لا هو مؤمن و لا كافر، و لكن الذي كفر ثم جن و مات على جنونه لم يمت و هو مؤمن فما هو السبب لتكفير عن كفره، بل مات و هو كافر حيث استمر كفره الى جنونه و هو مرحلة من موته، مهما لم يكن مكلفا حال جنونه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 256

و هل إن أضرابهم من الكفار- أيضا- يلعنونهم كما المؤمنون؟ و هم يستحسنون كفرهم! إنهم يلعنونهم هنا إبعادا زائدا عن رحمة اللّه بما يستحسنون: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» (29: 25) كما و كل كافر يلعن الكفار و الظالمين زعما منه أنه مؤمن جهلا مقصرا.

و قد تلمح آيتنا أن التوبة عن الكفر قبل الموت- أيّا كان- مقبولة بشروطها، و القول الفصل حول أحكام الكفر و الارتداد و التوبة راجع الى محله الأليق كآل عمران: «كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ. خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ» (86- 91).

خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ‏ 162.

و الخلود- كما لمحنا له في مختلف المجالات- هو البقاء مدة طويلة، و «لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ» و ما أشبه لا تدل على لا نهائية العذاب، بل هو دليل عدم تخفيفه ما داموا و دام العذاب قدر الاستحقاق، و أما إذا فنوا بفناء النار فليس ذلك تخفيفا في أيّ من الأعراف إلّا إذا فنت النار قبل ذوقهم ما يستحقون من العذاب، أم خرجوا عن النار قبل كمال العذاب الذي يستحقون، فإنهما تخفيف عن مدة العذاب، ام خفف عنهم العذاب عدّة لا مدّة، ام خفف فيهما، فكل ذلك تخفيف، و أما إذا ذاق مستحق العذاب كما و كيفا ثم فنى بفناء النار، أم أخرج قبل فناءها باستحقاق، فما ذلك بتخفيف في العذاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 257

فأسطورة اللّانهائية في العذاب كشريطة تدار بين من لا يحسبون لحق اللّه و خلقه حسابا و لا يرجون للّه و قارا أم هم غافلون، إنه ظلم عظيم أن يقابل العصيان المحدود بأثر محدود من عاص محدود، بعذاب غير محدود ف‏ «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»؟!.

و ضمير التأنيث في «فيها» راجع إلى اللعنة، فهم- إذا- خالدون- ما هم أحياء في النار- في لعنة مثلثة الزوايا، فهي تجنح إليهم و هم في النار بما خلّفوا من سنة الكفر و الكتمان، كما و يعذّبون بهذه اللعنات في أمد الخلود أبديا و سواه.

ثم‏ «وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ» في خلود العذاب غير المخفّف عنهم، حين يستنظرون، بل يقال لهم‏ «اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ».

ذلك لأنهم أغلقوا على أنفسهم كل منافذ الرحمة يوم الدين، فقد حملوا معهم لعنة مطبقة من كل لاعن لا ملجأ منها و لا صدر حنون، و تلك اللعنة هي أم العذاب و أساسه، و النار هي مؤله و مساسه، لعنة متسيطرة ما دام في حياة التكليف جنة أو ناس، حيث إن كفر الكتمان خلّف لعنة طول خط الحياة، على المؤمنين خلقا لجوّ اللّاإيمان، مما شكّل عليهم مصائب لتطبيق الإيمان، فأشكل عليهم حياة الإيمان، و على سواهم من قاصرين إذ ابتعدوا عن الإيمان، و على المقصرين إذ أوثق رباط كفرهم ضد كتلة الإيمان.

وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ 163 إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ‏ 164.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 258

هنا وحدة الألوهية مزودة بآيات سبع‏ «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» حقّ العقل، و هي: «1 خلق السماوات و الأرض- عبارة أخرى عن خالقيته- ككل- لكل كائن- 2 و اختلاف الليل و النهار- 3 و الفلك ...- 4 و ما أنزل الله- 5 و بت فيها ...- 6 و تصريف الرياح- 7 و السحاب المسخر».

و

«إن اللّه تبارك و تعالى أكمل للناس الحجج بالعقول و نصر النبيين بالبيان و دلهم على ربوبيته بالأدلة فقال: و إلهكم اله واحد ...» «1».

فإن‏

«وجود الأفاعيل دلت على أن صانعا صنعها» «2»

و هذه الأفاعيل السبعة دالة بإتقان على خالق و مدبر واحد «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ» حيث الرحمة الرحمانية العامة و الرحيمية الخاصة هنا و هناك نجدها بانتظام دون تفاوت و اصطدام: «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ ...»؟!.

آيتنا تلك هي من أوسع الآيات التوحيدية دلالة على توحيده تعالى من جوانب شتى، و في أسباب النزول أنها نزلت بديلة عما اقترحته قريش عليه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «ان يجعل لنا الصفا ذهبا ...» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 149 في اصول الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال قال لي ابو الحسن موسى بن جعفر (عليهما السلام) يا هشام ...

(2)

المصدر عن كتاب التوحيد قال هشام‏ فكان من سؤال الزنديق أن قال: فما الدليل عليه؟ قال ابو عبد اللّه (عليه السلام): وجود الأفاعيل ... ألا ترى انك إذا نظرت الى بناء مشيد مبني علمت أن له بانيا و ان كنت لم تر الباني و لم تشاهده.

(3)

الدر المنثور 1: 163- أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن ابن عباس قال‏ قالت قريش للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أدع اللّه ان يجعل لنا الصفا ذهبا نتقوى به على عدونا فأوحى اللّه إليه إني معطيهم فاجعل لهم الصفا ذهبا و لكن ان كفروا بعد ذلك عذبتهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين فقال رب دعني و قومي فأدعوهم يوما بيوم فأنزل اللّه هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 259

الآية الأولى من السبع: 1 «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» و ترى أنه «خلقه السماوات ...»؟ و الناكر لربوبيته ناكر لخلقه واحدا أو كثيرا، مهما اعترف المشركون أنه خالق!.

فكأن «خلق» هنا بمعنى «مخلوق»: إن في مخلوقية السماوات و الأرض، أو أنه «خلق» دون فاعل مصرح، يصرح به الكون المخلوق، و على أية حال فحدوث الكون بسماواته و أرضه دليل أن له محدثا، و أصول الدلالة على حدوث الكون ككلّ هي: التركّب- التغيّر- الزمان و الحركة، فإنها أدلة قاطعة لا مرد لها على حدوث الكون بمادته الأولية الأم، إذا فله محدث.

و لأن الخلق على شتات أجزاءه و خواصه منسجم كهيكل واحد ذي أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض، ف‏ «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ» فذلك دليل وحدة الخالق، فان من لزامات تعدد الخالق عديد الصنع المتفاوت، إضافة إلى استحالة التعدد في الكمال المطلق اللّامحدود، حيث العدد بحاجة إلى مايز بين أصحاب العدد مزيجا بجهة الاشتراك و ذلك تركّب و عجز و نقص في كيان الخالق.

2 «وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» و لنأخذ مثالا ماثلا بين أيدينا ليل نهار، الليل و النهار الأرضيين، و الاختلاف افتعال من اخلف ان يتكلف الإتيان خلف الآخر، او الخلف ان يختلف عن الآخر تخلفا عن مسيره أو مصيره،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه عن أبي الضحى قال: لما نزلت: و إلهكم إله واحد عجب المشركون و قالوا إن محمدا يقول:

و إلهكم إله واحد فليأتنا بآية ان كان من الصادقين فأنزل اللّه ...

و

فيه عن عطاء قال: نزل على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بالمدينة: و إلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرحمن الرحيم- فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل اللّه: إِنَّ فِي خَلْقِ ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 260

فالاختلاف- إذا- منه رحمة و منه زحمة، و الأوّل هو المعني من اختلاف الليل و النهار، أن يأتي كل خلف صاحبه وفق نظام التدبير من الخلاق العظيم.

فالليل و النهار كلّ مختلف صاحبه، و ليس مختلفا عن صاحبه متخلفا عن مسيره، و لا مختلفا «في» مع صاحبه، و ذلك الاختلاف يأتي في أبعاد هي- إضافة الى اختلاف كلّ صاحبه في الظهور- اختلاف في البعد الزماني و المكاني، فاننا نجد في كرتنا الأرضية على كل حال ليلا و نهارا مع بعض في أفقين متقابلين اختلافا مكانيا، و نجد كلّا من الليل و النهار تختلف ساعاته، فأقصر الأيام هو نصف ساعة كما في السويسرا، و أطولها ستة أشهر كما في القطبين، و بينهما عوان من 12- الى- 20- الى 24 ساعة، فالحركة اليومية الأرضية على محورها ترسم لها الليل و النهار بمواجهة نصف الكرة أو يزيد مع الشمس، اكتسابا من نورها و حرارتها فيسمى النهار، و استتار الشمس عن النصف الآخر أم يقل، فتدخل تحت الظل المخروطي و تبقى مظلمة فتسمى الليل، اختلاف دائب لكلّ من الفرقدين وراء بعضهما البعض حول الأرض.

و عامل ثان هو ميل سطح الدائرة الإستوائية او المعدل عن سطح المدار الأرضي في الحركة الانتقالية شمالا و جنوبا، و قضيته ميل الشمس من المعدّل شمالا أو جنوبا راسما للفصول، و هو سبب استواء الليل و النهار في خط الإستواء في القطبين.

أما القطبان أنفسهما فلهما في كل سنة شمسية تامة يوم واحد و ليلة واحدة كل منهما نصف سنة، و الليل في قطب الشمال نهار في قطب الجنوب و بالعكس.

فالسنة في المنطقتين القطبيتين نصفها ليل و نصفها نهار على التساوي، ثم بينهما و خط الإستواء يختلف كلّ من الليل و النهار عن الآخرين من 12 ساعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 261

الى 24، ف 12 عند خط الإستواء، و 24 عند الدائرة القطبية، ثم تأخذ في الزيادة في الدائرة القطبية من 12 ساعة الى 24 و إلى شهر فشهرين إلى ستة أشهر، و أعجب باختلاف زمنيّ بين نصف ساعة و ستة أشهر!.

كما و السنة كلها حاضرة الفصول الأربعة في مختلف أيامها، فالصيف في الشمال كمصر و أوروبّا شتاء عند أهل الجنوب ك «ناتال».

و كل ساعات الليل و النهار كائنة حاضرة في كل الساعات حسب مختلف الآفاق في كرتنا الأرضية، فالصباح عندنا مساء عند آخرين و ليل عند ثالث و فجر عند رابع و هكذا سائر الأوقات، قضية الكروية لأرضنا، و اختلاف أنحاء الأرض قربا و بعدا.

اختلافات ثلاث منضّدة منتظمة، فأصل حدوث كلّ بعد الآخر دليل على محدثهما، و نضد المحدث دون تفاوت و تهافت دليل وحدة المحدث، سبحان الخلاق العظيم.

ذلك! و إن توالي الإشراق و العتمة- فذلك الفجر و ذلك الغروب- يعتز له المشاعر الحيّة، و القلوب النابهة، مهما فقد الإنسان وهلتها و روعتها مع التكرار، و لكن القلب المؤمن تتجدد في حسّه هذه المشاهد، و يظل دائبا في ذكر اللّه بهذه الآيات المكرورة.

3 «وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ» فان جريانها هو برياح مسخّرة بين الأرض و السماء، ام و بطاقات أخرى كشف عنها العلم و كلّ ذلك من نعم الرحمن‏ «وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ» (55: 24). و لو أن هناك آلهة دون اللّه لكانت هناك رياح متضاربة متطاحنة كلّ تحمل إلى جانب، لكن‏ «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 262

مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» (10: 22).

فجري الفلك في البحر آية، و اتجاه القلب في أعماق الفطرة الى ربوبية وحيدة في خضم البحر الملتطم- شئت أم أبيت- آية «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»: «وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً» (17: 68).

4 «وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» ففي ضم ميت الماء بميت الأرض بما فيها من ميت الحبوب، نرى في مثلث الميتات حياة، سبحان الخلاق العظيم.

5 «وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» و مهما كان ضمير التأنيث في «فيها» راجعا إلى الأرض مبدئيا كظاهر التعبير لتقدم الأرض، و لكنه راجع- أيضا- إلى السماوات لسبق ذكرها، و لأن‏ «مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ» (42: 29).

فخلق الدواب و بثّها دون تهافت و تفاوت آية لقوم يعقلون أنهما من إله واحد.

6 «وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ ...» و «الرياح» جمعا هي في سائر القرآن رياح الرحمة، و الريح- إلّا الموصوفة بالطيبة- هي ريح العذاب، و ما هبت ريح قط إلّا جثا النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) على ركبتيه و

قال: «اللّهم اجعلها رحمة و لا تجعلها عذابا، اللّهم اجعلها رياحا و لا تجعلها ريحا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 165- اخرج الشافعي و ابو الشيخ و البيهقي في المعرفة عن ابن عباس قال: ... قال ابن عباس: و اللّه ان تفسير ذلك في كتاب اللّه: أرسلنا عليهم ريحا صرصرا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 263

فهناك أرياح خبيثة يعبّر عنها بصيغة الإفراد «رِيحٍ فِيها صِرٌّ» (3: 127) «رِيحٌ عاصِفٌ» (10: 22) «ريح قاصف» (17: 69) «الرِّيحَ الْعَقِيمَ» (51: 42) «بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ» (69: 6) «رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا» (30: 51) اللّهم إلّا «بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ» (10: 24) لو لا وصفها لكانت خبيثة، فهذه ستة.

ثم رياح بصيغة الجمع كلها طيبة كما هنا «وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ» و «هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» (7: 57) «وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ» (15: 22) «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً» (35: 9) و هذه أربعة.

و تلك- إذا- عشرة كاملة من الرياح بين خبيثة و طيبة، كلها- فيما أراد اللّه- طيبة، ف‏

«الريح من روح اللّه تأتي بالرحمة و تأتي بالعذاب فلا تسبّوها و سئلوا اللّه من خيرها و عوذوا باللّه من شرها» «1».

و لو أن هناك مصرّفين للريح و الرياح لتفاوت التدبير و التقدير، و «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ».

و من عجائب الرياح انها تحصل و تفعل ما تفعل بين الأرض و/ 16000 ذراعا فوقها، و الأغلب في تحصّلها أن الأشعة الضوئية الواقعة من الشمس على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فأرسلنا عليهم الريح العقيم ... أرسلنا الرياح لواقح، و أرسلنا الرياح مبشرات.

أقول: و هكذا نجد في القرآن كما في آيات الرياح العشر.

(1). المصدر- أخرج الشافعي و ابن أبي شيبة و احمد و ابو داود و النسائي و ابن ماجة و البيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: أخذت لنا الريح بطريق مكة و عمر حاج فاشتدت فقال عمر لمن حوله ما بلغكم في الريح؟ فقلت: سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ... و

فيه عن ابن عباس ان رجلا لعن الريح فقال له النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لا تلعن الريح فانها مأمورة و انه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 264

الهواء تتبدل حرارة، فتعرضها خفة قضية الحرارة، فلا يستطيع الهواء على حمل ما يعلوها أو يجاورها من بارد الهواء الثقيل، فيتساقط على الحار الخفيف، فيجري الخفيف- إذا- إلى خلاف سمت الدفع، و هذه هي الأغلب في ظاهرة الرياح.

7 «وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» و السحاب هو المسحوب من أبخرة الأرض، حيث تركم و تمطر «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ» و قد يعبّر عنه بالمزن و المعصر، و لكن الغمام ما ليس فيه ماء و يحسبه الناظر سحابا.

ففي خلق السحاب بين السماء و الأرض، و إرسالها بصورة منظمة دون فوضى أم تهافت دليل أن صاحبها الساحب لها المطر بها إله واحد، سبحان الخلاق العظيم.

فترى هذه السبع مؤتلفة متآلفة غير متخالفة و أن فيها «لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» عقل فطرة و فكرة، و عقل إحساس و علم لو كانوا يعقلون.

فلو أن الإنسان ألقى إلى عقله عقليته، و ألغى عنه بلادة الغفلة و كرور الألفة، فاستقبل مشاهد الكون بإحساسات متجددة جادّة، و نظرات مستطلعة مستعلية على نزوات، كالرائد الذي يهبط إلى الكون أوّل مرة، فتلفت عينه كل ومضة، و سمعه كلّ نأمة، و حسّه كلّ حركة، و تهز كيانه تلك الأعاجيب التي تتوالى كدائرة الشريطات على الأسماع و الأبصار فالقلوب، سبحان اللّه مقلب القلوب.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ‏ 165.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 265

الأنداد هم الأمثال الأضداد، أمثال في الألوهية بعضا أو كلا فأضداد في شؤون الألوهية كلّا أو بعضا، و «يتخذ» هنا، لا سيما بعد «إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ» لمحة صارحة أن لا أنداد للّه ذاتيا أو متخذة من عند اللّه، و إنما «مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً» كما و ان تنوين التنكير تهوين لمكانة هؤلاء الأنداد.

و قد يخرج من الأنداد الأولياء المعبودون من دون اللّه إذ هم ليسوا بأضداد للّه، مهما اتخذوا أندادا.

و هنا تنديد شديد بمن يتخذون من دون اللّه أندادا يحبونهم كحب اللّه «فما ذا تعني كحب الله؟» هل هو كحبهم اللّه؟ و نراهم يحبون أندادهم أكثر مما يحبون اللّه، بل و قد لا يحبون اللّه! أم هو كحب المؤمنين اللّه؟ «وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» تلمح بأشدها أن هؤلاء الأنداد يحبون اللّه كما يحبون أندادهم! أم كحب يليق باللّه و هو توحيد الحب إلهيّا، و قد تعني‏ «كَحُبِّ اللَّهِ» ككلّ المحتملات الثلاث، أنهم يحبون أندادهم كحبهم اللّه، أو كحب المؤمنين اللّه، أو كحب يليق باللّه، و كل هؤلاء على دركاتهم تشملهم‏ «يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ».

ثم‏ «وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» تعني انهم أشد حبا له منهم للّه أو لآلهتهم، لأنهم يوحدون حبهم للّه و هؤلاء يقتسمونه بين أندادهم، و قد يحبون معهم اللّه، مهما كان الأشد لا يشمل الملحدين الذين لا يحبون اللّه حتى يكون حب المؤمنين أشد منهم، أو يحبونهم كحبهم للّه في أصل الحب إلهيا حيث يحبونهم كآلهة كما المؤمنون يحبون اللّه لأنه اللّه، مهما اختلفت درجات الحب عندهم تسوية بين اللّه و الأنداد، أم ترجيحا لها عليه، و لكن‏ «الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» إذ لا يشركون في حبهم باللّه أحدا كما لا يشركون باللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 266

فكما يجب توحيد اللّه في كافة ميّزات الألوهية و الربوبية، كذلك توحيده في حبه، ألّا يساوى و لا يسامى في الحب بسواه، لا كإله و ان في ذرة مثقال، و لا كمحبوب سواه اللّهم إلّا حبا في اللّه فانه قضية حب اللّه: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...» (3: 31).

و الحب الأشد من حبهم- للمؤمنين- ذو بعدين اثنين: أشد من حبهم للّه، و أشد من حبهم لأندادهم، فان ذلك حب موحّد خالص دون أيّ شريك و هذا حب فيه شركاء أو شريك، فقضية الإيمان الموحّد هي الحب الأشد الموحّد للّه، لحدّ لا يبقي مجالا لحب غير اللّه كإله و لا سواه.

و حين يندّد بمؤمنين ساقطين يحبون غير اللّه أحب من اللّه، فليس القصد منه هو الحبّ الإيماني، بل حبا عمليا أنهم يعاملون غير اللّه كأحب من اللّه، غفلة أو تغافلا عن حب اللّه: «قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» (9: 24).

فإنهم لا يحبون هؤلاء- إذ يحبونهم- كأنداد للّه فانه إشراك باللّه، بل كأحباء اعتياديين قضية العواطف و المصلحيات البشرية الحاضرة، التي قد يغيب معها حب اللّه المتفوق عليها، و ذلك فسق في الحب و ليس كفرا فيه.

و حب من سوى اللّه بين ممنوع و ممنوح، فالأوّل هو حب الأنداد و هو إشراك باللّه، و بعده حب أهل اللّه كما تحب اللّه- على سواه- دون إشراك لهم باللّه و لا تأليه، و هو يتلو الإشراك باللّه، و من ثم حب من لا يحبه اللّه لا كإله و لا كأهل اللّه، و هو تخلّف عن شرعة الحب في اللّه.

و الثاني هو حب اللّه و الحب في اللّه، ثم التسوية في حب أهل اللّه على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 267

اختلاف درجاتهم ضلال، كأن تحب سلمان كما تحب الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في درجة واحدة، إفراطا بحق سلمان و تفريطا بحق الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و كما الذين‏

«اتخذوهم أئمة من دون الإمام الذي جعله اللّه للناس اماما» «1»

قد اتخذوا لهم أندادا يحبونهم كما هم، فكفر الحب و إلحاده أن تحب غير اللّه و لا تحب اللّه، و إشراكه تأليها أن تحب من دون اللّه أندادا كحب اللّه، و فسقه- دون تأكيد- أن تسوي في الحب بين اللّه و أهل اللّه، أم أن تحبهم أقل منه استقلالا بجنبه، و إيمان الحب أن توحد حبك للّه كإله مهما تحب سواه، و أعلى منه ألّا تحب سواه إلّا في اللّه، و قمته أن تصبح بكل كيانك حبا للّه.

إن دوافع الحب الموحد الأصيل للّه حاضرة حاصرة، و هي في حب غير اللّه كما اللّه غائبة خاسرة حاسرة، فبصيغة واحدة حب غير اللّه لا في اللّه إشراك في شرعة الحب باللّه مهما اختلفت دركاته، فمطلق الكمال- أيا كان- محبوب فطريا و عقليا، فضلا عن الكمال المطلق و هو اللّه تعالى شأنه فكيف نحب من سواه كما نحبه؟.

و مطلق المنعم- أيا كان- محبوب كذلك، فضلا عن المنعم المطلق و هو اللّه تعالى شأنه، و مطلق العلم و القدرة أما شابه من كمال محبوب، فضلا عن العالم القدير اللّانهائي في كل كمال مرغوب و هو اللّه تعالى شأنه.

و قد خرف و هرف و انحرف من تقوّل ألّا يمكن حب اللّه، اللّهم إلّا حبا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 151 في اصول الكافي بسند عن جابر قال: سألت أبا جعفر (عليهما السلام) عن هذه الآية قال: «هم و الله فلان و فلان اتخذوهم ... هم و الله يا جابر أئمة الظلمة و أشياعهم»

أقول: هذا من باب الجري و التأويل الى مصداق ادنى، فان حرمة التسوية بين غير المتساوين جارية على كل حال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 268

لنعمه و إكرامه و من عباد اللّه من يحبونه لأنه اللّه، لا طمعا في جنته و لا خوفا من ناره.

و الحب هو أول تعلق فطري بين المنعم و منعمه، و له درجات حسب درجات النعمة و المنعم و المعرفة به‏ «وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» هم درجات في ذلك الأشد لحد الشغف، ألّا يبقى في قلبه و في كلّ كيانه الّا حب اللّه أمّن يحب اللّه طول حب اللّه و طوله، بحوله تعالى و قوله، و إنهم تجسّد لحب اللّه و كأنهم هم حب اللّه، لا كون لهم و لا كيان إلا حب اللّه و طاعته، و أفضلهم رسول اللّه محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فانه أوّل العابدين و العارفين باللّه، و من أسماءه الحبيبة «حبيب الله» و هو أفضل أسماءه و سماته كما «اللّه» أفضل أسماء اللّه.

و ترى «أندادا» هنا هي كل ما سوى اللّه من أوثان و طواغيت؟ و لا مرجع لضمير العاقل في «يحبونهم» إلّا ذووا العقول الذين قد اتخذ و امن دون اللّه أندادا! و لا يعقل حب الأصنام كحب اللّه! و لا أن الأصنام متبعون مهما هم معبودون، و هنا تبرء «الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا» إذا فهم كل من يعبد من دون اللّه اللهم إلّا الصالحين إذ ليسوا اضدادا للّه مهما اتّخذ و اله شركاء، و لا هم متّبعون إذ لا يدعون إلى أنفسهم.

و من أندّ الأنداد و ألدّها الهوى: «أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ» و

قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «أبغض إله عبد في الأرض الهوى»!

فمن يحب هواه كما يحب اللّه، حبا لها كإله أم سواه، فقد ضل عن شرعة الحب مهما اختلفت دركاته إشراكا باللّه و فسقا عن شرعة اللّه.

و قضية حب الإنسان نفسه أن يحب ربه المستكمل لها الخالق إياها، فليحب نفسه إذا أحبها اللّه حبّا في اللّه، و ليبغضها إذا أبغضها اللّه بغضا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 269

اللّه، و ليقدّر نفسه متعلقة- ككل- باللّه يروضها بتقوى اللّه، و يمحور اللّه بمرضاته في حياته كلها دون سواه، و هذا هو من حق توحيد اللّه.

حب كل شي‏ء راجع الى حب النفس، و ليرجع حب النفس إلى حب اللّه، لا ان يحب اللّه لأنه من حب النفس، بل يحب نفسه لأنه من حب اللّه، موحدا في الحب دون إشراك باللّه حتى نفسه على إيمانه، فضلا عنها على كفره و إشراكه!.

كلّ منا يحول في كل حياته حول نفسه في كل حركاته الآفاقية و الأنفسية، و لتكن نفسه طائفة حول ربه، فهو في كل حركاته و سكناته الحائرة فيها حور نفسه، حائر في العمق حور ربّه، لا يبتغي إلا مرضاته، تطوافا على طول خط الحياة بخطوطها و خيوطها حول ربه، حولا معرفيا و حبّيا و عمليا، مبتعدا عن كل محور سوى اللّه حتى نفسه المؤمنة باللّه، و ذلك هو التوحيد الحق.

و للحب مراحل خمس هي الود و العشق و الهيمان و الخلة و الشغف و الخامسة هي البالغة مبالغ الحق و مراحلها إذ بلغت شغاف القلب و لبه و فؤاده.

إن حب الشغف و الخلة هما المعتمد عليهما في شرعة الحب، أن ليس معلّلا بما يرجع الى منتفعات النفس أو الابتعاد عن مضارها فإنهما حب العبيد و التجار، و ذلك الحب غير المعلّل هو حب الأحرار، أن تحب اللّه لأنه اللّه، لا- فقط- لأنه الرحمن الرحيم، بل لأنه الكمال و الجمال و الجلال اللانهائي، و هو المحبوب فطريا دون سبب إلّا هو، فانه هو حظه ذاتيا، فكما الإنسان يحب نفسه لأنه هو، فليحب ربه لأنه أكمل مما هو، بل و هو بكل ما له و منه، يكون منه، فلا محبوب له- إذا- إلّا هو.

إذا فذات اللّه عين حظه، ثم ذوات أخرى محبوبة للّه هي على الهامش، حبا في اللّه و للّه لا سواه، و ذلك الحب لا يتغير إلّا تقدما كما اللّه لا يتغير، و أما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 270

الحب المعلّل فهو متغير بتغير أسبابه أمام صفات الجمال و الجلال للحق المتعال.

وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ‏ 165.

«لو» هنا في موقف التحسر و مسرح التأثر التكسّر للذين ظلموا في شرعة الحب، ف «لو» مدوا بأبصارهم الى مسرح العذاب و مصرح القوة للّه جميعا، و «لو» تطلعوا ببصائرهم إلى حين يرون العذاب، لرأوا حينذاك‏ «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» دون سواه، و رأوا «أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ».

لو يرون ذلك المسرح المصرح، الحاسم الموقف، القاصم الظهر، لانتبهوا عن غفوتهم و لكن لا حياة لمن تنادي! ... لو يرون.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ‏ 166.

اجل‏ «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» (29: 25) «كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها» (7: 38) «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (43: 67)، بل و رأس الأنداد و رئيسهم إبليس يتبرأ من تابعيه: «إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» (14: 22)! فهناك ويلات الحسرات للذين اتخذوا من دون اللّه أندادا يحبونهم كحب اللّه.

فهنالك الأسباب بينهم كلها متقطعة بهم، إذ ينشغل كلّ بنفسه عن سواه، و تسقط كافة الصّلات غير الأصيلات، اللّهم إلّا صلة التقوى، و ظهرت أكذوبات الأنداد و كل القيادات الضالة و خوت، و هنالك يتحسر التابعون:

وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 271

اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ 167.

أ تراهم ليس لهم ان يتبرأوا منهم هناك كما تبرأوا منهم حتى هم ناظرون‏ «لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً ...»؟ نعم! و لكن لا يفيدهم- فقط- التبرؤ منهم هناك، و إنما هو التبرّؤ في حياة التكليف: «رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ...».

«كذلك» البعيد المدى، العميقة الأسى‏ «يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ» رؤية لملكوت أعمالهم، التي هي جزاءهم يوم الحساب ف‏ «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»:- «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ...».

«وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ» ما دامت النار، و أما إذ لا نار و لا أهل نار، فما هو- إذا- بخروج عن النار، و إنما خروج عن الحياة بخروج النار عن حياتها!، فلا تدل- إذا- على البقاء اللّامحدود في النار، و إنما الخلود الأبدي فيها، انهم في النار ما دامت النار.

[سورة البقرة (2): الآيات 168 الى 176]

يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168) إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (169) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (170) وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (171) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)

إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (174) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (176)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 273

بعد ما بينّ اللّه حق وحدة الألوهية و وحدة الحب إليها لنفسه، هنا يقرر حق التشريع له وحده، مناحرا لما كان يفعله المشركون من تحليل او تحريم لا يرجع الى دليل:

يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ‏ 168.

الحلال فعال من الحلّ و الحلّ مقابل العقد، فالشي‏ء غير المعقود و لا المحظور حلال، سواء سبقه عقد الحظر أم لم يسبقه، و ليس للمأكول مما في الأرض سابق حظر كأصل، إلّا انه للّه، فلا يحل اكله إلّا بمرضات اللّه، و هو يحله في أمثال هذه الآية كأصل و ضابطة عامة تحلّ الحظر عما يؤكل.

و الطيب- هنا- هو كل ما تستطيبه النفس أكلا، و طبعا النفس الباقية على الطبع الإنساني الأولى، دون المنحرف عنه، المنجرف الى دركات الحيونة الوحشية التي تستطيب أكل كل ما يمكن ابتلاعه، مهما كان حشرة، كما في الطباع الأوروبية المنحرفة عن إنسانيتها.

ثم هي النفوس ككل، دون كل نفس، فقد يستطاب أكل شي‏ء عند أشخاص خصوص متخلفة عن الجماهير، ام يستقذر كذلك، و المعيار هو الاستطابة الجماهيرية بالطباع الأوّلية، حيث الأحكام الشرعية يراعي في تشريعها جمهرة الناس دون الخواص.

أ ترى‏ «مِمَّا فِي الْأَرْضِ» تبعيض لمأكولات الأرض، أن: كلوا بعض المأكولات، ثم‏ «حَلالًا طَيِّباً» بيان لذلك البعض؟ فهما- إذا- حالان ل‏ «مِمَّا فِي الْأَرْضِ» ام مفعولان ل «كلوا»؟ فالآية- إذا- مجملة بالنسبة ل «حلالا» إذ لم يبين الحلال مهما عرف «طيبا» بما تعرفناه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 274

فلنعرف خصوص الحلال مما في الأرض، الطيب، حتى يسمح لنا أكله، فحين نشك في حلّه الخاص لا يحل أكله، و هذه هي أصالة الحظر، المطرودة بنصوص كقوله تعالى‏ «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» (3: 29) و قد تنافي- أيضا- سماحة هذه الشرعة و سهولتها!.

أم إن‏ «مِمَّا فِي الْأَرْضِ» تبعيض لما في الأرض، فان منه مأكولا و منه غير مأكول، و لم يقيد النص‏ «مِمَّا فِي الْأَرْضِ» بالمأكول، حتى يبعّض بأداته، فمطلق النص‏ «مِمَّا فِي الْأَرْضِ» يشمل كل ما في الأرض، ثم «من» تبعّضه بالبعض المأكول.

إذا ف‏ «كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ» سماح عام لأكل كلّ ما يؤكل، فهل إن‏ «حَلالًا طَيِّباً» هما مفعولان ل‏ «كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ» تقييدا لسماح الأكل؟

فكذلك الأمر! حيث الآية- إذا- مجملة في الحلّ، ثم‏ «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» دون قيد الحل، و «إِنَّما حَرَّمَ ...» الحاصرة الحرمة فيما حصرت مهما كان نسبيّا هما لا تساعدان على أصالة الحظر، أم إجمال الآية في الحلّ!.

أم انهما حالان ل‏ «مِمَّا فِي الْأَرْضِ» كما ل «كلوا» كلوا أكلا حلالا طيبا، مما في الأرض حلالا طيبا، حلّا عاما كضابطة لأصل الجواز، و طيبا تقييد لذلك الحل كأوّل ما يقيد الأكل و المأكول، و كما تؤيده‏ «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ...» إذا في «حلالا» حال لواقع الأكل و المأكول على أية حال، ثم «طيبا» حال ثان او وصف تقييدي ل «حلالا» يخرجه عن إطلاق الحلّ، ام إن «طيبا» لها دور «حلالا» بيانا لأصالة الطيب، ألّا يسمح باستقذار مأكول مما في الأرض إلّا ما ترفضه الطباع الإنسانية، فتصبح «طيبا» أوسع مجالا مما كان تقييدا، إذا فيكفي في حلّ المأكول عدم استقذاره نوعيا واقعيا، لا و استطابته كذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 275

و قد يقيد الأكل عن حلّه العام بعد طيبا ب‏ «ما رَزَقْناكُمْ» و «مِمَّا غَنِمْتُمْ»: «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً» (8: 69) «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً» (16: 114) تقييدا للحل بكونه مما ملكته من مشروعه: «لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ» (4: 29).

إذا فكل مأكول طيّب يحل أكله بغير باطل، كضابطة عامة، إلّا ما استثني من حل الأكل مادة او مدة، كما او كيفا، فالمشكوك جواز أكله داخل في ضابطة الحل إلّا ما ثبت الحظر عنه بدليل من كتاب أو سنة.

و من القيود العامة لحل الأكل في آيتنا «وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ» و كخطوة الإسراف و التبذير فإنهما من الشيطان، و خطوة التحريم لغير المحظور أكله و التحليل للمحظور أكله، و كخطوة أصالة الحظر، مهما اختلفت هذه الدركات في الخطوات، و على أية حال فاتباع خطوات الشيطان هو الانجذاب في قياده، ان تكونوا سيقة للشيطان فيما يخطوه.

و لأن الخطوة هي ما بين القدمين من المسافة حالة المشي، فقد تعني خطوات الشيطان وسائله و ذرائعه الى بغيته الأخيرة و هي الإشراك باللّه و الإلحاد في اللّه، فليس الشيطان ليورد الإنسان إلى أخيرة المهالك إلّا بخطوات من صغيرة الى كبيرة الى كبرى، فعند ذلك الطامة الكبرى و كما قال اللّه:

إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ‏ 169.

فالسوء هنا هو ما دون الفحشاء، كما الفحشاء هنا هي دون‏ «أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» و بصيغة أخرى الفحشاء هي أقبح انواع السوء، «وَ أَنْ تَقُولُوا» هي أقبح انواع الفحشاء، فالفحشاء هي المعصية المتجاوزة حدّها إما في نفسها ام الى غير العاصي، ام تجمعهما، ثم العقيدة السيئة، و الفاحشة هي أفحش من عملية السوء و الفحشاء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 276

فاتباع خطوات الشيطان محظور في كل الحقول، أكلا كما هنا، أمّا سواه من أفعال و تروك كما: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (2: 208)- «و من الأنعام حمولة و فرشا كلوا مما رزقكم الله و لا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. ثمانية ازواج ... قل ءآلذكرين حرم أم ...» (6: 143)- و على أية حال:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ ...» (24: 21): «إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ»، هنا «وَ أَنْ تَقُولُوا ...» هي قولة الفرية على اللّه في تحريم او تحليل ما لم يأذن به اللّه، و أفحش منه المشاقة الصريحة لحكم اللّه، أنني أحرم مهما أحل اللّه، أم أحلّل مهما حرم اللّه.

و قبلهما سوء و فحشاء علي و عقيدي، فمن سوء عملي أكل الحرام الخفيف مادة و حرمة، و منه عقيديا تحليله افتراء على اللّه، و من فحشاء عملي الحرام المغلظ و العقيدي منه فريته على اللّه، و السوء و الفحشاء العقيديان هما أسوء و أفحش منهما عمليا، فلذلك يفرد العقيدي بالذكر بعد مطلق السوء و الفحشاء: «وَ أَنْ تَقُولُوا ...».

فقد يعصي العاصي معترفا انه عاص، و أخرى محللا له تقصيرا في التفتيش عن دليل، فتوى بغير علم، ام افتراء على اللّه بمعارضة الدليل، ام مشاقة للّه بمصارحة أنني أحلل و أحرم، رغم ما حكم اللّه، و ذلك ثالوث منحوس بدركاته الثلاث قد تعمه‏ «وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ» ام قد يفلت الأخير من نصها داخلا في الأولوية.

فالقول على اللّه بغير علم- بدركاته- هو أسوء من السوء و أفحش من الفحشاء العمليين، مهما كان القسم الأوّل من الثالوث سوء أمام الثاني، و هذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 277

فحشاء أمام الثالث من الناحية العقيدية.

فمن السوء عمليا في ظلال آيتنا ترك أكل ما لم تثبت حرمته، اللّهم إلّا حائطة ثابتة بدليل، و منه عقيديا أصالة الحظر.

كما من الفحشاء عمليا أكل الثابت حرمته، و منها عقيديا القول بحليته دون علم، ثم بعلم، ثم فوقهما عمليا التورط في المحرمات الكثيرة الكبيرة، و عقيديا تحليلها افتراء على اللّه، ام مشاقة علنية لحكم اللّه، و كما منه الاستناد الى القياس و الاستحسان أما شابه مما ليس دليلا شرعيا، بل الأدلة الشرعية تعارضه، كل هذه قد تشمله ثالوث خطوات الشيطان بمختلف دركاتها.

فحذار حذار من ويلات خطوات الشيطان، فانه لا يحمل المؤمن المتقي على ثالثة الدركات إلا أن يخطو به أولاها ثم ثانيتها، عمليا او عقيديا، حتى يورده في مسيره الى مصير الهلاك الأخير «جهنم يصلونها و بئس المصير».

و إنها ثالوث الخطوات في حصر «إنما» و ليست وراءها خطوة، و هي بين آفاقية عملية «بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ» و أخرى انفسية «وَ أَنْ تَقُولُوا» قولا بغير علم!.

أ ترى الشيطان يأمر- فقط- بالسوء و ...؟ و نراه قد يأمر- فيما يأمر- بالخير! إنّ أمره بغير السوء هو في الحق أمر بالسوء فأمر سوء، إذ يتذرعه إغراء إلى سوء، كمن يأمره بقراءة القرآن، ثم يجمده على حروفه و يصرفه عن أحكامه فيصبح صاحبه تاليا للقرآن و القرآن يلعنه.

ففي الحق لا يأتي من الشيطان إلّا عملية الشيطنة و عقيدتها مهما أمر في ظاهر الحال بخير، ثم لا يتمكن الشيطان- ام أي كان- أن يأمر بسوء و فحشاء بمقدمات كلها شريرة، و إنما يخلط حقا بباطل و باطلا بحق و هو بدء وقوع الفتن كما يروى عن قاطع الفتن علي (عليه السلام): «إنما بدء وقوع الفتن أهواء

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 278

تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجالا فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة و لو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على أولياءه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

فخير الشيطان شرّ إذ يبوء الى شر، و شر الرحمن خير إذ يبوء الى خير «و نبلوكم بالخير و الشر فتنة و إلينا ترجعون» (21: 35).

و قد يجرّ الشيطان الإنسان من الأفضل إلى الفاضل ليتذرع به لإخراجه الى غير الفاضل و إلى الشر، أم يجره من الفاضل الأسهل الى الأفضل الأشق ليشق عليه فيترك الفضل عن بكرته!.

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ‏ 170.

و ذلك هو الدرك الأسفل من الخطوات العقيدية الإبليسية، مشاقّة اللّه في حكمه بحكم الآباء القدامى التقليديين، معارضة الدليل بالتقليد الخاوي عن الدليل، و قبله خطوة الحكم غير التقليدي خلاف حكم اللّه، و قبله القول على اللّه بغير علم دون أية حجة من كتاب أو اثارة من علم قياسا او استحسانا أما شابه، و قبله الفتوى دون تفتيش صالح عن دليل، دركات اربع عقائدية في خطوات الشيطان، و قبلها او معها خطوات عملية من سوء إلى فحشاء.

هنا «قالُوا بَلْ» رفض لاتّباع ما أنزل اللّه إلى‏ «ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا» اتباعا عمليا و عقيديا، في تقليد جاهل قاحل «أو لو كان آباءهم لا يعقلون شيئا و لا يهتدون».

ف «لو» الامتناعية هنا تنازل الى سماح التقليد لو أنهم عقلوا شيئا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 279

و اهتدوا، ثم مماشاة معهم في استحالة «لا يعقلون و لا يهتدون» و لكن على فرضه- و كما هو الواقع الملموس- أ فتتبعون آباءكم ضد ما أنزل اللّه حتى إذا لا يعقلون شيئا و لا يهتدون، تقليدا جاهلا في أصله و فصله و نسله، بعيدا عن كل الأعراف في التقليد محبورا و محظورا «1».

فقد يجوز تقليد من يعلم و يهتدي، و ترك اتباع ما أنزل اللّه خلاف صارح صارخ للعلم و الهدى، فانه تعالى مصدر العلم و الهدى فكيف يعارض فيهما بتقليد أعمى!.

و ترى كيف بالإمكان للآباء- أيا كانوا- انهم‏ «لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ» و هم يعقلون أشياء و يهتدون إلى أشياء يحتاجونها في حياتهم؟

«شيئا» هنا هو شي‏ء الحق، فمن عرف شيئا من الحق اتبع ما أنزل اللّه، و كذلك شي‏ء الهدى، ثم «لو» قد تلمح إلى أن ذلك فرض أخير لحالة الآباء، و به تلحق سائر فروض التقليد الجاهل في مسرح اللايعقل و اللّايهتدي و إن قليلا، حيث التقليد العاقل بحاجة إلى عقل كامل عن شرعة اللّه، و هدى شاملة إليها، و التقليد الجاهل هو نفسه من خطوات الشيطان.

و في تعقيب‏ «لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً» ب‏ «وَ لا يَهْتَدُونَ» عطفا بعد ردف، لمحة بارعة أن الاهتداء هو من خلفيات العقل، مقدرا بقدره، فحين لا يعقلون شيئا من الحق، فهم لا يهتدون إليه بطبيعة الحال، فالعقل ذريعة الهدى كما الهدى حصيلة العقل و كما يروى «العقل ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 167 عن ابن عباس قال‏ دعا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) اليهود الى الإسلام و رغبهم فيه و حذرهم عذاب اللّه و نقمته فقال له رافع بن خارجة و مالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم و خيرا منا فأنزل اللّه: و إذا قيل لهم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 280

وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ‏ 171.

علّ ذلك مثل للذين كفروا في ثالوث تقليد الآباء، و عبادة الأصنام، و ترك قبول الدعوة الإلهية، فالذي ينعق بما لا يسمع- هو في الأخير- الدعوة الرسالية، فإنهم لا يسمعونها إلّا دعاء و نداء كما الأنعام، و في الأولين هو الأوّلان، في نعقهم بآباءهم القدامى و هم أموات، بل و هم عند حياتهم ايضا أموات عن إجابة صالحة لأبنائهم إذ لا يسمعون إلّا دعاء و نداء، و في نعقهم بأصنامهم أم و طواغيتهم هم بين اللّاإجابة أصلا إذ لا يسمعون حتى دعاء و نداء، او اللّاإجابة حيث إجابتهم لا يحمل سؤالا لعابديهم.

و لأن‏ «لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً» تتضمن السمع، فدعاء الأصنام- إذا- هو ضمن المعني من الدعاء، و الأصل هو دعوة الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إياهم و دعوتهم آباءهم، و لأن الآباء القدامى أموات لا يسمعون حتى دعاء و نداء، فالأصل هو- فقط- دعوة الرسول إياهم، كما و تؤيده‏ «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ» صمّ عن سماع كلمة الحق إذ أصمهم اللّه بما صمّوا، بكم عن الإفصاح بالحق إذ أبكمهم اللّه بما خرسوا عن الحق و بكموا، عمي عن مشاهدة الحق إذ أعماهم اللّه بما عموا، و بالنتيجة «فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ» فان عقل الحقائق بحاجة الى سمعها و الإفصاح بها و الإبصار إليها، و هم صدوا عن أنفسهم منافذ العقل‏ «فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ» بما صموا و ابكموا و عموا.

فمن أهم منافذ العقل عن الحقائق السمع و البصر و اللسان الإنسانية، فالصمّ البكم العمي لا يعقلون فلا يهتدون، فهم في ثالوث الضلال بما ضلوا و الزيغ بما زاغوا «وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 281

إذا فمثلك في دعاء الذين كفروا، ام و مثل الذين كفروا في دعاءك إياهم‏ «كَمَثَلِ الَّذِي ...» «1».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ‏ 172.

فلما لم يؤثر «يا أَيُّهَا النَّاسُ ...» أثره إلّا في الذين آمنوا، فليكرر لهم الخطاب تشريفا بلقب الإيمان، «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» و هنا تركه «حلالا» يؤيّد حلّ «حلالا» في آية الناس عن تقيّد «مِمَّا فِي الْأَرْضِ» إلى ضابطة الحل، مهما زاد قيدا بعد «طيبات» هو «ما رَزَقْناكُمْ» و ليس رزق غيرك رزقك كما ليس رزقك رزق غيرك، فقد تقيّدت أصالة الحل بما رزقك اللّه، و ليس رزقك إلّا ما حصلت عليه من حلّه، ام هو رزق جماعي لا مالك له شخصيا كالأملاك المشتركة قبل خروجها عن الاشتراك، مثل الغابات و البحار و الأنهار حسب الضوابط المقررة في الشرع.

و ترى ان اللّه يرزقنا مع الطيبات غيرها ثم ينهاها عن غيرها، فلما ذا- إذا- يرزقنا؟ إنه قد يرزقنا من غير الطيبات أكلا و لكنها من الطيبات لغير الأكل كالأصباغ أما شابه! ثم و من الطيبات ما يصنع منها غير الطيبات و هي رزق غير حسن بما أساء الإنسان: «وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً» (16: 67) فثمرات النخيل و الأعناب هي كأصلها رزق حسن،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 152 عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا في دعائك إياهم، أي مثل الداعي لهم إلى الايمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم و انما تسمع الصوت، فكما أن الانعام لا يحصل لهم من دعاء الداعي إلّا السماع دون تفهم المعنى فكذلك الكفار لا يحصل لهم من دعائك إياهم إلى الايمان إلّا السماع دون تفهم المعنى.

لأنهم يعرضون عن قبول قولك و ينصرفون عن تأمله فيكونون بمنزلة من لم يعقله و لم يفهمه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 282

و قد يتخذ منها سكر و هو غير حسن.

و قد تعني‏ «طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» فيما عنت، أن ما رزقناكم للأكل هي كلها طيبات، إضافة الصفة الى الموصوف: كلوا من الطيبات التي رزقناكم، و لكنه كمعنى خاص يخرج الرزق عن عمومه، الشامل لغير الطيبات التي نصنعها من الطيبات.

«كُلُوا ... وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» فمن يحرم نفسه أكل الطيبات المرزوقة فقد عبد هواه دون اللّه، و من لم يشكر اللّه على الطيبات، فقد عبد هواه دون اللّه: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ» (7: 32).

أجل- و إن تحريم ما احلّه اللّه عمليا او عقيديا او جميعا، هو من الإشراك باللّه و كفر به، كما و ترك شكر اللّه فيما أنعم من الطيبات هو كفران، أم كفر و إشراك باللّه.

يقول اللّه في حديث قدسي يرويه عنه الرسول القدسي (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «إني و الجن و الإنس في نبأ عظيم أخلق و يعبد غيري و أرزق و يشكر غيري» «1».

و

«إن اللّه طيّب لا يقبل إلّا طيبا و إن اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسول كلوا من الطيبات و اعملوا صالحا إني بما تعملون عليم» و قال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ...» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 5: 10 عن انس عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ...

(2)

الدر المنثور 1: 168- أخرج احمد و مسلم و الترمذي و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ... ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر يمد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 283

و قد تكفي‏ «طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ» معونة تقييدات و تحديدات، حيث المؤمن لا يستطيب بطبيعة الإيمان مال غيره، او محاصيل الظلم، او الإسراف و التبذير، و هناك بجنبه و في مرآه و منظره بطون غرثى لا عهد لها بالشبع و لا طمع لها في القرص.

ف «طيبات» هنا هي ما تستطيبها الأنفس المؤمنة نفسيا بجنب ما تستطيبها جسديا، كما انها هناك ما تستطيبها الأنفس الإنسانية، و هنا «طيبات» في ميزان الإقتصاد الإسلامي، و الأخلاق و العواطف الإسلامية السامية، فهذه أضيق دائرة من «طيبات» في خطاب الناس، قضية أن الإيمان قيد الفتك، فالمؤمن يفتش عن طيب أكله و حلّه و أن يكون بمرضات ربه، فيحتاط عن المخلوط او المشتبه بالحرام.

إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏ 173.

حصر نسبي في نطاق الأنعام التي حرّم المشركون أقساما منها افتراء على اللّه كما قال اللّه: «ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ» (5: 103).

و قد تحمل ذلك الحصر ثلاث أخرى، فاثنتان من الأربع مدنيتان، هذه و آية المائدة (3) و أخريان مكيتان هما آية الأنعام (145) و النحل (115) و تجد القول الفصل فيها في آية النحل و المائدة.

و مجمل القول فيها لا سيما آية الأنعام- و هي نص في الحصر- انها تنفي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يديه إلى السماء يا رب يا رب و مطعمه حرام و مشربه حرام و ملبسه حرام و غذى بالحرام فأنىّ يستجاب لذلك!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 284

الحرمة في نطاق الأنعام إلّا ما يتلى عليكم، اللّهم إلّا لحم الخنزير خارجا عن الأنعام لتعوّد أكله بين المشركين.

ثم‏ «فَمَنِ اضْطُرَّ» ضابطة لحل المحرمات، شرط أنه‏ «غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ» و الباغي هو الطالب لا عن اعتدال، فهو الظالم في هذه الورطة، ان يكون في معصية اللّه فاضطر الى أكل شي‏ء من ذلك، و العادي يشمل المتجاوز عن حد الاضطرار إذا فلا اضطرار، و العدو إلى حالة الاضطرار، فهو إذا اضطرار باختيار، فمن كان له صنع لخلق جوّ الاضطرار، ام كان ظالما فيه، فهو آثم رغم اضطراره، مهما وجب عليه اقتراف الحرام حفاظا على الأهم و هو نفسه‏ «1» و علّ‏ «غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ» حالان عن الاضطرار و الأكل معا، ألا يكون الاضطرار ببغي او عدو، ام في حالهما، و ألّا يأكل بغيا و عدوا، بغيا على صاحب المال، و عدوا عن قدر الاضطرار.

و القول الفصل في كل أطراف الآية و زيادة شاملة تأتي في آية المائدة إنشاء اللّه تعالى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 155 في الفقيه في رواية محمد بن عمرو بن سعيد رفعه‏ ان امرأة أتت عمر فقالت يا امير المؤمنين إني فجرت فأقم علي الحد فأمر برجمها و كان امير المؤمنين (عليه السلام) حاضرا فقال: سلها كيف فجرت فسألها فقالت: كنت في فلاة من الأرض فأصابني عطش شديد فرفعت لي خيمة فأتيتها فأصبت فيها رجلا أعرابيا فسألته ماء فأبي أن يسقيني إلّا ان أكون أمكنه من نفسي فوليت منه هاربة فاشتد بي العطش حتى غارت عيناي و ذهب لساني فلما بلغ مني العطش أتيته فسقاني و وقع علي فقال علي (عليه السلام): هذه التي قال اللّه: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ هذه غير باغية و لا عادية فخلى سبيلها فقال عمر: لو لا علي لهلك عمر، و فيه عن التهذيب عن سماعة قال سألته عن الرجل يكون في عينه الماء- الى قوله- فقال: و ليس شي‏ء مما حرّم اللّه ألا و قد أهله لمن اضطر اليه.

نور الثقلين 1: 156 عن الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 285

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏ 174.

قدمنا شطرا من الكلام حول الكتمان في آيته الأولى، ثم‏ «وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا» هو تطلّب ثمن عما يكتمون، و كل ثمن بديل ذلك الكتمان قليل مهما كان ملي‏ء الأرض ذهبا، فكما أن كل شي‏ء أمام اللّه ضئيل، كذلك كل ثمن قبال ما أنزل اللّه قليل.

«أولئك» البعيدون عن كل هدى، المتورطون في كل ردى‏ «ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ» حيث الأكل المحرم هو يوم الدنيا نار و لكنها اليوم خامدة، ثم يوم القيامة تضطرم: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»- «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى‏ ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» و لماذا «فِي بُطُونِهِمْ» و ليس الأكل إلّا بالأفواه الى البطون؟ علّه لأن فاعلية البطون للمأكول هي أصل الأكل و غايته، فقد يأكل بفمه ثم يرجع دون ان ينتقل الى بطنه، او ينتقل و لكنه يرجع كما أكل من فمه ام سواه، إذا ف‏ «فِي بُطُونِهِمْ» تحديد للأكل و المأكول استقرارا في بطونهم، مع انه أفظع سماعا و أشد ايقاعا!.

«وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ» حين يكلم المؤمنين، و المعني هنا هو تكليم الرأفة و العناية: «وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ» (3: 77) دون تكليم التنديد و النكاية كما «قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ».

و أما «ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ» (42: 51) فخاصة بيوم الدنيا، فقد يكلّم عباده‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 286

المؤمنين دون وسيط يوم القيامة نظرا إليهم، و يكلم غيرهم تنديدا بهم دون سماح لهم أن يكلموه.

ثم‏ «وَ لا يُزَكِّيهِمْ» قد تعم النشأتين، و هي في الأخرى تزكية الشفاعة و الغفران، و في الأولى تزكية العقائد و الأعمال‏ «وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» في الأخرى، و قد حملوه معهم من الأولى.

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ 175.

و هل كانت لهم هدى و مغفرة حتى يشتروا بهما الضلالة و العذاب؟ أجل و هي هدى الفطرة و العقلية الإنسانية، ثم و هدى الرسالات الإلهية الحاضرة لديهم، و بالنتيجة كانت لهم اسباب المغفرة حاضرة، و لكنهم‏ «اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى‏ وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ» تجاهلا و تغافلا عن الهدى و المغفرة «فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» هنا و هي أرواحهم النارية، و بأحرى يوم القرار.

ويكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى و يقبضون الضلالة، و يؤدون المغفرة و يأخذون بديلها العذاب، فما أخسرها من صفقة و أغباها، فقد كانت الهدى لهم مبذولة في الآفاق و في أنفسهم فتركوها و اعتاضوا بها الضلالة، و كانت المغفرة لهم متاحة فتركوها إلى النار «فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ»: «ما أصبرهم على فعل ما يعلمون أنه يصيرهم إلى النار».

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ 176.

«ذلك» العظيم العظيم من اللعنة و العذاب على هؤلاء «بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ»: بسبب الحق و غايته و مصاحبا للحق الناصع الدال على وحيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 287

دون أية ريبة، و حاملا لكل حق يحق نزوله للعالمين، و ب‏ «إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي» ذلك‏ «الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ» مع اللّه «بعيد» في الأعماق، و بعيد عن كل آفاق الشقاق، فإنه شقاق مع اللّه الذي نزل الكتاب، و شقاق مع الرسول الذي أنزل عليه الكتاب، و شقاق- ككل- مع الحق الذي لا يشتهونه، فهم- إذا- في ثالوث الشقاق، بعيدا بهذه الأبعاد.

و قد يعني «الكتاب» هنا بجنب القرآن سائر كتابات السماء، و قد اختلف الكاتمون ما أنزل اللّه في كل كتاب، لا سيما في البشارات الخاصة بالرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كما اختلف فيه المشركون و «إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا ...» تشملها جميعا.

هنا صلة بين هذا البيان و بين تحويل القبلة و ما أثاروا حوله من جدل، بيانا للحقيقة الكبرى، الحقيقة بالجدل حولها، دون شكليات الشعائر من تولية الوجوه قبل المشرق و المغرب، كشعارات فاضية عن شعورات، و إنما فائضة بشعورات و واقعيات ايمانية.

فالإيمان الصالح هو نقطة التحول في حياة الإنسان أيا كان و إلى أية قبلة اتجه، إنه- فقط- هو نقطة التحول من الفوضى إلى النظام، و من التيه الى البلد الأمين، و من التفكك الى وحدة الاتجاه.

[سورة البقرة (2): الآيات 177 الى 182]

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمالَ عَلى‏ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى‏ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى‏ بِالْأُنْثى‏ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْ‏ءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى‏ بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (178) وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179) كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181)

فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 289

فقد تلمح أولى الآيات هنا ان هناك وجوها من الناس كانوا يولون وجوههم قبل المشرق و المغرب صلاة و دعاء و يحسبون أنه البرّ- فقط- في حظيرة الإيمان، فتبادر بتعريف البرّ ابتداء بالإيمان ثم أهم اعمال الإيمان، دون طقوس جافة خاوية عن الإيمان الحق و حق الإيمان في عشرة كاملة من بنود الإيمان.

1 «وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ 2 وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ 3 وَ الْمَلائِكَةِ، 4 وَ الْكِتابِ 5 وَ النَّبِيِّينَ 6 وَ آتَى الْمالَ‏ ... 7 وَ أَقامَ الصَّلاةَ 8 وَ آتَى الزَّكاةَ 9 وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا 10 وَ الصَّابِرِينَ ...» «أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا» في دعوى الإيمان‏ «وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» دون المولّين وجوههم قبل المشرق و المغرب، بل المولون وجوههم- ككل- الظاهرة مع الباطنة، و جاه مرضات اللّه، و منها وجوه الأبدان قبل القبلة التي يوليهم اللّه إياها، رمزا الى الاتجاه- ككل- إلى اللّه.

و في‏ «لَيْسَ الْبِرَّ» تعريض عريض على اليهود المولّين وجوههم قبل المغرب و النصارى المولين وجوههم قبل المشرق، و هم خاوون عن الإيمان باللّه و اليوم الآخر و سائر العشرة كما يجب، كما و هو تعريض هامشي على المسلمين من الذين يشابهونهم في تلك التولية القاحلة عن حق الإيمان.

أجل و ليست «وجوهكم» في ذلك الخطاب- فقط- وجوه أهل الكتاب، بل و الأصل هنا هو وجوه المخاطبين- أصالة- بالقرآن، و هم المؤمنون، مهما كان التنديد الأكثر اتجاها إلى أهل الكتاب، فالخطاب إذا- كأصل- من باب:

إياك أعني و اسمعي يا جارة، ثم و «إياك» مندّد به على هامش الخطاب، و على أية حال‏ «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ...».

هذا، و كما

سئل الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عن الإيمان فتلاها ثم ثانية فتلاها ثم ثالثة فتلاها و قال: «و إذا عملت حسنة أحبها قلبك و إذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 290

عملت سيئة أبغضها قلبك» «1» و قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان.

.. و في هذه العشرة الكاملة من زوايا البر نجد كل الأصول الإيمانية و فروعها الأصيلة، إيمانا بالمبدء: «اللّه» و باليوم الآخر:

«المعاد» و ما بين المبدء و المعاد من وسائط الرسالات: «و الملائكة» و موادها:

«و الكتاب» و حملة الرسالات: «النبيين» و هذه خمس تتبنى الأصول الإيمانية، ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 169- أخرج ابن أبي حاتم و صححه عن أبي ذر انه سأل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) عن الايمان ... و

فيه عن القاسم بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى أبي ذر فقال: ما الايمان فتلا عليه هذه الآية فقال الرجل: ليس عن البر سألتك، فقال ابو ذر جاء رجل الى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) فسأله عما سألتني فقرء عليه هذه الآية فأبى ان يرضى كما أبيت فقال له رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أدن فدناه فقال: المؤمن إذا عمل الحسنة سرته رجاء ثوابها و إذا عمل السيئة أحزنته و خاف عقابها.

و

فيه اخرج جماعة عن عمر بن الخطاب‏ انهم بيناهم جلوس عند النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) جاء رجل يمشي حسن الشعر عليه ثياب بياض فنظر القوم بعضهم إلى بعض ما نعرف هذا و ما هذا بصاحب سفر ثم قال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) آتيك؟ قال: نعم، فجاء فوضع ركبتيه عند ركبتيه و يديه على فخذيه فقال: ما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلّا اللّه و ان محمدا رسول اللّه و تقيم الصلاة و تؤتي الزكاة و تصوم رمضان و تحج البيت، قال: فما الايمان؟ قال: ان تؤمن باللّه و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيين و الجنة و النار و البعث بعد الموت و القدر كله، قال: فما الإحسان؟ قال: ان تعمل للّه كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن؟ قال: نعم، قال: صدقت، قال يا محمد! متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال: فما أشراطها؟ قال: إذا العراة الحفاة العالة رعاء الشاة تطاولوا في البنيان و ولدت الإماء أربابهن، ثم قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عليّ بالرجل فطلبوه فلم يروا شيئا فمكث يومين او ثلاثة ايام ثم قال: يا ابن الخطاب أ تدري من السائل عن كذا و كذا! قال: اللّه و رسوله اعلم، قال: ذاك جبرئيل جاءكم ليعلمكم دينكم أقول و اخرج مثله البزار عن انس، و ابن مردويه عن أبي هريرة و أبي ذر، عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لكن ليس فيها أشراط الساعة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 291

خمس اخرى تتبنّى فروعها العملية، من صلات جماعية اعتيادية بين الجماهير:

«وَ آتَى الْمالَ ...» «وَ آتَى الزَّكاةَ» و من صلة عبودية باللّه تتوسطها: «وَ أَقامَ الصَّلاةَ» ثم صلة ذات بعدين باللّه و بخلق اللّه: «وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ‏ ... وَ الصَّابِرِينَ ...».

و ترى كيف يكون‏ «مَنْ آمَنَ» برّا مصدرا و هو بار فاعلا؟ علّه لأن حامل هذه العشر يجسّد البر نفسه، إذا فكأنه نفس البر و كما و «لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى‏» (2: 189).

فالبر عقيديا و إيمانيا فعمليا يأتي بسائر البر كتولي الوجوه قبل القبلة التي يرضاها اللّه و لا عكس إلّا لمن آمن حقا.

إذا فليس سلب البرّ عن تولية الوجوه سلبا مطلقا لأنها أيضا من طقوس البر، و إنما هو سلب لأصالة البر عنها، و التولية حسب الشرعة هي فرعه.

إذا فالإقبال على القشور المصلحية تغافلا عن الألباب ليس من البر، كما الإقبال على الألباب تغافلا عن القشور المأمور بها ليس كلّ البر، «وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ ...» جامعا بين اللباب و القشور قضية برّ الإيمان و الإيمان البر.

هنا «آتَى الْمالَ عَلى‏ حُبِّهِ» تعني حب المال الى حب اللّه و حب إيتاء المال جمعا بين المراجع الثلاثة، مهما كان المال أقرب لفظا، فان اللّه هو أقرب معنى و بينهما الإيتاء ف‏ «عَلى‏ حُبِّهِ» إذا لها تعلقات ثلاث أدبيا و معنويا،: «آتى المال على حب الله» و «آتى المال على حب المال و على حب إيتاءه» إذ «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» (3: 92) و كما

«قيل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ما آتى المال على حبه؟ فكلنا نحبه! قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): تؤتيه حين تؤتيه و نفسك تحدثك بطول العمر و الفقر» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 171- أخرج البيهقي في شعب الايمان عن المطّلب انه قيل ... و

فيه اخرج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 292

و درجة عليا من‏ «عَلى‏ حُبِّهِ» ان تكون عنده أموال يفضل بعضها على بعض، كما «وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى‏ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً» (76: 8) إذ كان مفضلا على سواه مما كان عندهم، و أما الإنفاق من رذيل المال أم في رذيل الحال «كالذي ينفق او يتصدق عند الموت فمثله مثل الذي يهدي إذا شبع» «1».

إذا ف‏ «عَلى‏ حُبِّهِ» لها درجات، ثم ما لا يحبه، ثم ما يترذّله، و الآية تخص الإنفاق بدرجات الحب، حب المال و حب إيتاء المال على حب اللّه.

ثم‏

«الفقير هو هدية اللّه قبل ذلك او ترك» «2»

ف‏

«ردوا السائل و لو بظلف محترق» «3».

و هنا المؤتون المال على حبه ستة حسب ترتيب الاستحقاق و الحاجة، يتقدمهم‏ «ذَوِي الْقُرْبى‏» و هم الأقرب إليك نسبا فالأقرب، من الوالدين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

احمد و البخاري و مسلم و ابو داود و النسائي و ابن حبان عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أفضل الصدقة ان تصدق و أنت صحيح تأمل البقاء و تخشى الفقر و لا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا لفلان كذا الا و قد كان لفلان.

(1).

المصدر اخرج احمد و ابو داود و الترمذي و صححه و النسائي و الحاكم و صححه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: مثل الذي ينفق او يتصدق عند الموت مثل الذي يهدي إذا شبع.

(2)

المصدر اخرج ابن شاهين و ابن النجار في تاريخه عن أبي بن كعب قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ألا أدلكم على هدايا اللّه عز و جل إلى خلقه؟ قلنا: بلى- قال: الفقير ...

(3) عن حواء قالت سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)- يقول: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 293

و الأولاد، و طبقات القربى هنا هم كطبقات الميراث لأنها أصدق الطبقات إذ قررها اللّه تعالى‏ «1».

ثم «اليتامى» المنقطعين عمن يعولهم، و ادنى يتيم هو اللطيم المنقطع عن أبويه، ثم اليتيم المنقطع عن أبيه، ثم الفطيم المنقطع عن أمه، و علّ الأخير خارج عن اليتيم مهما كان له يتم، ام هو بعد الأولين، فدوره هو الدور الأخير.

و المساكين هم من أسكنهم العدم، و هي تعم الفقراء الذين أفقرهم العدم، فإنهم أسوء حالا من المساكين، كما و يقدّمون عليهم حين يذكران معا:

«إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ ...» (9: 60) و هو مسكين ذا متربة (90: 16) و مطلق المسكين يشمله و غيره المتوسطة حاله، ثم‏ «وَ ابْنَ السَّبِيلِ» و بالطبع هو ابن سبيل اللّه، المنقطع عن ماله و ذويه في اللّه و كما جاء ابن السبيل بعد سبيل اللّه في آية التوبة «... وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ»، و أدناه من ليس في معصية اللّه و سبيل الشيطان.

ثم «السائلين» تعنيهم ككل: فقراء أو مساكين أم سواهم، ف‏

«للسائل حق و إن جاء على فرس» «2»

و اما «في الرقاب» دون «الرقاب» فقد تعني صالح الرقاب ان يشتروا من أصحابهم كلّا أو مبعضا، دون ان يؤتوا هم أنفسهم مما يؤتى، فان ذلك أصلح لهم، إضافة إلى أن الرقاب ليسوا- بطبيعة الحال- في حاجات شخصية إذ يتحملهم أصحابهم بواجب النفقة و إنما هم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور: 171- اخرج الخطيب في تالي التلخيص عن ابن عباس‏ أن ميمونة استأذنت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في جارية تعتقها فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

أعطها أختك ترعى عليها و صلي بها رحما فانه خير لك.

(2)

الدر المنثور 1: 171- اخرج ابن عدي عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله): ... و فيه أخرج ابن أبي شيبة عن سالم بن أبي الجعد قال قال عيسى بن مريم: للسائل حق و ان جاء على فرس مطوق بالفضة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 294

بحاجة إلى تحرّرهم، إذا ف «في الرقاب» تعني في سبيل تحررهم قدر المقدور كلا او مبعضا.

ذلك الترتيب السداسي- بما في كلّ ترتيب- يراعى في إيتاء المال، ثم يقدّم من يحمل عنوانين من الستة أم زاد و كما

قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «على المسكين صدقة و على ذي الرحم اثنان صدقة و صلة» «1».

و هنا «آتى» دون «أنفق- أو- أعطى» لأنها أعم من الإعطاء و الإنفاق، فكما الصدقة و الهبة إيتاء، كذلك القرض إيتاء، فمثلا ابن السبيل ليس إيتاءه المال لفقره، إذ قد يملك أكثر منك في بلده، فأنت تؤتيه الآن قرضا ثم تأخذه منه بعد الآن، كما و الهبة المعوضة و الهدية إيتاء.

ذلك الإيتاء بمراتبه واجب كما الصلاة و الزكوة، فليس يعني الزكوة فانه هنا يقابلها متقدما عليها، فهو إذا من الضرائب الواجبة قدر المقدور، إضافة الى ضريبة الزكوة.

«وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا» اللّه أم خلقه كما يصح أو يجب، و قد تحدّد «إِذا عاهَدُوا» مدى شمول «بعهدهم» ان ليس منه عهد الفطرة و عهد العقل و عهد الشرعة الإلهية، فان ذلك المثلث من العهد لزام على المكلفين، لا يقبل زمانا دون زمان حتى يحدد وجوب الوفاء به ب‏ «إِذا عاهَدُوا».

«وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ» و لماذا «الصابرين»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 171- اخرج ابن أبي شيبة و احمد و الترمذي و حسنه و النسائي و ابن ماجة و الحاكم و البيهقي في سننه عن سلمان بن عامر الضبي قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم):

و

فيه أخرج احمد و البخاري و مسلم و النسائي و ابن ماجة عن زينب امرأة عبد اللّه بن مسعود قالت سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أ تجزي عني من الصدقة النفقة على زوجي و أيتام في تجري؟ لك أجران أجر الصدقة و أجر القرابة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 295

نصبا، و قضيته عطفها على «الموفون» بمن قبلهم، هي «الصابرون»؟

علّها منصوبة على الإختصاص لاختصاص الصبر في ذلك المراس قضية الاحتراس على الإيمان ببنوده عقيديا و عمليا، فالصبر في البأساء و الضراء و حين البأس- إنه في ذلك المثلث البارع- تربية للنفوس و إعداد لها، كيلا تطير شعاعا مع كل نازلة، و لا تذهب حسرة مع كل فاجعة، و لا تنهار جزعا أمام الشدة، تجملا و تماسكا و ثباتا حتى تنقشع الغاشية و ترحل النازلة، رجاء في اللّه، و ثقة باللّه و اعتمادا على اللّه.

فلا بد لأمة تناط بها القوامة على البشرية أن تتهيأ لوعثاء الطريق و مشاقّ السفر على أية حال، في كل حل وتر حال، في البأساء و الضراء و حين البأس، لكي تنهض بواجبها الضخم، و تؤدي دورها المرسوم.

فالصبر في مثلثه رباط عن التفسخ في كل زوايا الإيمان و قضاياه، و رزاياه من كتلة اللّاإيمان، و لذلك يختص هنا بتقدير الإختصاص، و أخص «الصابرين» بين كل المؤمنين، و أخص الصبر بين كل سمات الإيمان، لاختصاصه في مراس الإيمان و احتراسه.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى‏ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى‏ بِالْأُنْثى‏ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْ‏ءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى‏ بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ‏ 178.

«القصاص» لغويا هي المقاصة من القص: تتبع الأثر، او القصة:

محاكات الواقع كما هو، فهي- إذا- تتبع الأثر كما أثّر دون إفراط عليه و لا تفريط عنه، نفسا بنفس كما هنا «في القتلى» أم جرحا بجرح: «وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 296

(5: 45) و مالا بمال، و مماثلة بين الأمرين على أية حال، محلّقة كضابطة ثابتة على كافة الحرمات: «الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى‏ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى‏ عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (2: 194).

فالقصاص بوجه عام هي ملاحقة المجرم كما أجرم و قدره أم تقل، دون اعتداء عليه- لأكثر تقدير- إلّا كما اعتدى، كما و كيفما، عددا و عددا، تسوية عاقلة عادلة بين الجرم و قصاصه.

و هل‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» هنا هم أولياء الدم- فقط- لأنه حقهم؟ و حقه- إذا- لكم، لا عليكم، حيث القصاص هي لصالح أولياء الدم و ليس عليهم!.

أم هم القاتلون، حيث القصاص عليهم هي كحق خاص لأولياء الدم؟- و «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ ...» يخرجه عن كونه حقا ثابتا عليهم!.

أم هم حكام الشرع؟ فكذلك الأمر، فان حكمهم تابع لما يختاره أولياء الدم! اللهم إلا شذرا «1».

علّهم هؤلاء أجمع، مكتوب عليهم القصاص، فعلى أولياء الدم لأنه حق لهم خاص كضابطة مهما جاز لهم التنازل عنه إلى دية ام لا إلى بدل، كتبصرة على الضابطة، و على القاتلين لأنه حق عليهم، و على حكام الشرع، لأن عليهم ملاحقة المجرمين حسب اقتراح اولياء الدم، و ملاحقة أخرى حفاظا على الحياد العام للكتلة المؤمنة.

ف «عليكم» هي كأصل تعني القتلة، و هي كواجب التطبيق بملاحقة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في القاتل الساعي في الأرض فسادا، فانه خارج عن خصوص الحق الى عمومه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 297

على حكام الشرع، ثم كواجب الحق و ثابتة على أولياء الدم، لا سيما إذا كان العفو أم و الانتقال إلى الدية محظورا جماعيا.

إذا ف‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» في هذا المثلث، أم هم ككل، مسئولون في القصاص، ملاحقة فيه وراء المجرمين، فان‏ «لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ» حياة تعم الكتلة المؤمنة ككل، و ترى كيف تكون قصاص الدم- و الدماء تختلف في قيمها-؟ إنها كما هنا: «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى‏ بِالْأُنْثى‏».

فقد يستفاد من نص الآية في الجمل الثلاث شريطة المساوات الثلاثية في القصاص، ف‏ «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ» مساواة في الذكورة، و أخرى في الحرية و الرقية، ثم‏ «وَ الْأُنْثى‏ بِالْأُنْثى‏» مساواة في الأنوثة، و هذه الثلاث هي بصيغة أخرى مساوات في الجنس و أخرى في القيم الاقتصادية، بل و الأولى أيضا راجعة الى الثانية، حيث الذكر أثمن من الأنثى، كما الحر أثمن من العبد.

و ذلك نص خلفي على رفض المساوات- في حق القصاص- في سائر القيم روحية و سواها، اللّهم إلّا العددية فهي من أحق المساوات و أعمقها و أعدلها، المستفادة من آية المائدة كضابطة «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» (45) و آية الإسراء «فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ...» إضافة الى كل من هذه الثلاث حيث يقابل الواحد في كلّ واحدا.

و المحور الأصيل في زماننا و منذ أمد بعيد هو تساوي الجنس فيأتي السؤال- إذا- عن «الأنثى بالذكر و الذكر بالأنثى»؟.

فلأن الذكر أثمن من الأنثى فلا يقتل بالأنثى كأصل و ضابطة، إلّا أن يجبر نقص الأنثى القتيلة- لقتل الذكر- برد نصف ديته إلى ورثته، كما يدل عليه صحيح الأثر، ثم الأنثى الأرخص من الذكر تقتل بالذكر بأحرى أولوية قطعية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 298

و ليس بعد شريطة المساوات في الجنس شريطة أخرى في شرعة القصاص من ميزات معنوية أماهيه، حيث النص مقتصر على ما اقتصر.

و لا تزال ضابطة «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» مرعية عددا، و عددا اقتصادية، بجبر النقص في اختلافهما في الثانية- فقط- ردا على ورثة الذكر قاتلين و مقتولين.

و ترى آية القصاص هذه ناسخة لآية «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» في المائدة؟

و المائدة كآخر ما نزلت هي ناسخة غير منسوخة!.

آية المائدة لا تتحدث عن شرعة قرآنية- ككل- بل هي حاكية عن شرعة القصاص التوراتية: «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» كضابطة عامة، و آية البقرة تنسخ عمومها بشريطة المساوات في الجنس و الحرية، فتبقى الباقية تحت عموم المائدة بلا ناقصة و لا زائدة، اللّهم إلّا نسخا ثانيا في‏ «فَمَنْ عُفِيَ ...».

فآية البقرة ترسم حكما عدلا عوانا بين اليهودية في‏ «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» باختصاص القصاص في القتلى بالقتل، و دون شريطة تساوى الجنسين، و بين النصرانية القائلة بالعفو، و الهمجية المشركة المتعدية في القصاص كل أطوار العدالة و الأعراف العاقلة الإنسانية، فقد كانت تقتل قبيلة عن بكرتها بقتيل واحد، أم لا تقتل واحدا قتل قبيلا، فالأشراف كانوا يقولون: لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، و بالمرأة الرجل منهم، و بواحد قبيلا منهم، و يجعلون جروحهم أضعاف خصومهم، فقد يروى أن واحدا قتل واحدا فاجتمع أقارب القاتل عند والد القتيل قائلين: ماذا تريد؟ فقال: إحدى ثلاث، قالوا: و ما هي؟

قال: إما تحيون ولدي، أو تملأون داري من نجوم السماء، أو تدفعوا إليّ جملة قومكم حتى أقتلهم عن بكرتهم، ثم لا أدري أني أخذت عوضا! و كانوا يظلمون في أمر الدية كما في القود، فدية الشريف شريفة ودية الوضيع وضيعة!.

و قد خالف الإسلام كلّ هذه الثلاث المفرطة و المفرّطة في أمر القصاص،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 299

قصرا للتفاضل في القيم الاقتصادية جنسية و سواها، ثم التفاضل بالتقوى و سواها من القيم، مجاله غير هذا المجال، و

الأثر المستفيض عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «المسلمون تتكافأ دماءهم»

مخصص كآية المائدة بآية البقرة، فقيمة الأنثى نصف الذكر، إذا ف‏ «الْأُنْثى‏ بِالْأُنْثى‏» و الذكر بالذكر، أمّا يدل عليه ثابت الأثر.

و قيمة العبد أقل من الحر «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ» فضابطة التفاضل محصورة في اختلاف الجنسين، و في الحرية و الرقية، دون سائر الميّزات روحية و سواها.

«الْحُرُّ بِالْحُرِّ» ضابطة كما «الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ» و كذلك‏ «الْأُنْثى‏ بِالْأُنْثى‏» فقد تقتل الأنثى بالأنثى، و الذكر بالذكر، و بأحرى الأنثى بالذكر، ثم لا يقتل الذكر بالأنثى إلا برد فاضل ديته الى أولياءه‏ «1» إحرازا للمساوات بين النفسين، و تطبيقا لضابطة «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» عدلا لأولياء الدم كيلا يتصبروا على ضيم الدم، و عدلا إلى اولياء القاتل برد فائض ديته عليهم، ففاضل الدية- إذا- يجبر النقص و يحقق السماوات.

ثم و في عكس القضية و هو الأنثى بالذكر، قد يؤخذ ناقص الدية من أوليائها ردا على أولياءه بنفس السند، على تأمل فيه، إذ هي لا تملك إلّا نفسها و «الجاني لا يجنى على أكثر من نفسه» و قد جنت عليها فلا فاضل- إذا- يرد عنها، و لكنها هدرت بقتلها إياه ضعف نفسها، فليجبر الناقص بما تركت، فمثلها كمثل رقّ هدر ضعف ثمنه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في صحيحة الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال في الرجل يقتل المرأة متعمدا فأراد أهل المرأة أن يقتلوه؟ قال: «ذاك لهم إذا أدوا الى اهله نصف الدية» (الاستبصار 4: 65 و الكافي 7: 298).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 300

ذلك حكم بنفس بنفس، فهل يقتص من جماعة قتلوا واحدا؟ هنا روايات عدة «1» و دعاوى الإجماع تقول لأولياء الدم قتل الجميع برد دية الزائد عن الواحد إلى أوليائهم!.

لكنه تطارده الضابطة العامة في آيتي البقرة و المائدة «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» و هذه نفوس بنفس، و كذلك‏ «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى‏ بِالْأُنْثى‏» هذه أحرار بحر، أم إناث بأنثى، أم عبيد بعبد، و لم تنسخ آية المائدة إلّا في غير المتماثلين في الجنس و الحرية.

ثم و ذلك اعتداء بغير المثل، إذ لا مماثلة بين واحد و جماعة، و هو إسراف في القتل و قد منعته آية الأسرى‏

«و من قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا»

و قد يستدل بها الإمام المعصوم في معتبرة «2».

ذلك، اللّهم إلّا فيما يقتل امرأتان رجلا حيث تقتلان به بضابطة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في خبر ابن يسار على المحكي‏ قلت لأبي جعفر (عليهما السلام) في عشرة قتلوا رجلا؟ فقال:

إن شاء أولياءه قتلوهم جميعا و غرموا تسع ديات و ان شاءوا تخيروا رجلا فقتلوه و أدى التسعة الباقون الى اهل المقتول الأخير عشر الدية كل رجل منهم، قال: ثم ان الوالي بعد يلي أدبهم و حبسهم‏ (الكافي 7: 283)

و

في صحيحة عبد اللّه بن مسكان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في رجلين قتلا رجلا؟ قال: ان أراد اولياء المقتول قتلهما أدوا دية كاملوا و قتلوهما و تكون الدية بين اولياء المقتولين و ان أرادوا قتل أحدهما فقتلوه و أدى المتروك نصف الدية الى اهل المقتول و ان لم يؤدوا أحدهما و لم يقتل أحدهما قبل دية صاحبه من كليهما و ان قبل أولياءه الدية كانت عليهما. (التهذيب باب الاثنين إذا قتلا واحدا تحت رقم 3 و الكافي 7: 283 تحت رقم 2).

(2) هي ما

رواه ابن أبي عمير في الحسن او الصحيح على الصحيح عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إذا اجتمع العدة على قتل رجل واحد حكم الوالي ان يقتل أيهم شاءوا و ليس لهم ان يقتلوا اكثر من واحد ان اللّه عز و جل يقول‏ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (الكافي 7: 284 و الاستبصار 4: 282).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 301

المساوات في القيمة، فليس إسرافا في القتل و لا اعتداء بأكثر مما اعتدى، و كما يؤيده صحيح الأثر «1».

فلا حجة في إجماعات تدّعى أو روايات تروى، هي معارضة بمثلها و معارضة للكتاب، فالقوي قولا واحدا عدم جواز قتل الأكثر من واحد، بل و في الواحد منهم ايضا تأمل لأنه لم يستقل في القتل، فلا تصدق في قتله‏ «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» بل هو اعتداء عليه أكثر مما اعتدى! تأمل.

هذا! و أما إن قتل نفس نفسين أو زاد، فهل يقتص من القاتل لواحدة ثم و لا دية لسواها حيث الثابت في القتلى إنما هو القصاص؟ و «النَّفْسَ بِالنَّفْسِ» تقتضي هنا قود النفس عن واحد و بديله عن آخرين، و كما في المعتبرة

«لا يبطل دم امرء مسلم» «2».

ام إنه بديل عنهما اقتساما لقوده بينهما، ثم اقتساما في دية الفائض بينهما و هذا هو الأشبه الأصح، ثم ان عفي عن القود فدية كاملة كبديل، إلّا أن يعفى عنها فلا شي‏ء على الجاني، و ترى إن عفى بعض أولياء الدم عن نصيبه من القود فهل للباقين رفضه بدفع نصيبه من الدية ثم المطالبة بالقود؟ الروايات هنا متضاربة «3» فتعرض على الآية و تضرب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هي‏

صحيحة محمد بن مسلم على المحكي قال: سألت أبا جعفر (عليهما السلام) عن امرأتين قتلنا رجلا عمدا؟ قال: «تقتلان به ما يختلف فيه احد» (التهذيب في باب القود بين الرجال و النساء رقم 13).

(2)

الكافي 7: 365 معتبرة أبي بصير قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن رجل قتل رجلا متعمدا ثم هرب القاتل فلم يقدر عليه؟ قال: «إن كان له مال أخذت الدية من ماله و إلا فمن الأقرب فالأقرب و ان لم يكن قرابة أداه إلى الامام فانه لا يبطل دم امرء مسلم».

(3) الرواية المعارضة هي‏

رواية جميل بن دراج عن بعض أصحابه يرفعه الى أمير المؤمنين (عليه السلام) في رجل قتل و له وليان فعفا أحدهما و أبي الآخر ان يعفو؟ فقال: ان الذي لم يعف إذا أراد أن يقتله قتل ورد نصف الدية على اولياء المقتول المقاد منه‏ (الكافي 7: 356 رقم 1).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 302

المعارضة لها عرض الحائط.

فنص الآية «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْ‏ءٌ فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى‏ بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ».

فإطلاق «شي‏ء» يشمل بعض القود كبعض الدية، ثم‏ «فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ» تفرض- فيما تفرض على الباقين- إتباعه، عفوا عن نصيبهم من القود انتقالا- ككل- إلى الدية حيث القود لا يتبعض في واقعه، اللهم إلّا عفوا يظهر في تبعّض الدية، ثم‏ «أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ» و «ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ» و لا راد لرحمته و تخفيفه‏ «فَمَنِ اعْتَدى‏ بَعْدَ ذلِكَ» و منه مطالبة القود مع العفو عن بعضه‏ «فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ»! ف «أخيه» هنا استثارة لحنان الأخوة الإسلامية في أولياء الدم كما تدل على بقاء الأخوة الإيمانية بين القاتل و ولي الدم رغم قتله، و «من» هم القاتلون، و «عُفِيَ لَهُ» عفو عن مكتوب القصاص قودا او دية، و «له» دون عنه لأن الثانية عفو مطلق لا يبقى معه شي‏ء، و الأولى هي مطلق العفو الذي يبقى معه شي‏ء، ف «شي‏ء» تعم أي حق في هذا البين، سواء أ كان كل القود من مستقل في ولاية الدم أم شركاء فيها، أم يعفو واحد منهم عن نصيبه، أم أيّا كان من أيّ كان، دون العفو المطلق المعبر عنه ب «عفي عنه» إذ لا مجال- إذا- ل «شي‏ء»!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و تعارضها وفقا للآية روايات منها

صحيحة أبي ولاد قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن رجل قتل و له أولاد صغار أ رايت ان عفا الأولاد الكبار؟ قال فقال: لا يقتل و يجوز عفو الأولاد الكبار في حصصهم فإذا كبر الصغار كان لهم أن يطلبوا حصصهم من الدية (الوسائل ب 53 من القصاص ح 1)

و منها

قول امير المؤمنين (عليه السلام) في خبر إسحاق‏ «من عفا عن الدم من ذي سهم له فيه فعفوه جائز و يسقط الدم و تصير دية و ترفع عنه حصة الذي عفى»

، و

في الفقيه روى‏ انه إذا عفا واحد من الأولياء ارتفع القود.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 303

فهنا إتّباع بالمعروف ضابطة صارمة في حقل العفو، إتباع العافي عفوه دون نكول عن كمه أو كيفه أو أصله، و اتباع المعفو له في أداء ما عليه حين ينتقل القود الى الدية، مادة و مدة و كيفية، و اتباع شركاء الدم- غير العافين- عفو العافي، و اتباع حكام الشرع ذلك العفو.

ف‏

«ينبغي للذي له الحق أن لا يعسر أخاه إذا كان قد صالحه على دية، و ينبغي للذي عليه الحق أن لا يمطل أخاه إذا قدر على ما يعطيه و يؤدي إليه بإحسان» «1».

ثم و حين الانتقال، «أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ» كما عفي له من أخيه بإحسان، إحسانا في أصل الأداء، و إحسانا فيما قرّر من الأداء مادة و مدة.

«ذلك» البعيد الغور من أصل القصاص العدل خروجا عن قسوة الفوضى، و من سماح العفو و الإحسان في الأداء، و من واجب الإتباع‏ «تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ» عما كان في الجاهلية من قسوة، و في شرعة التوراة من عدم السماح عن القود و في شرعة الإنجيل- خلافا لشرعة اللّه!- سماحا واجبا عن القصاص، فانه عبث ثقيل كزميليه: الجاهلي و اليهودي.

ففي سفر الخروج (21: 12) «من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا» «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 157 في الكافي في الصحيح عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن قول اللّه عز و جل‏ «فَمَنْ عُفِيَ ...» قال: ...

(2) و فيه «و من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا 15 و من سرق إنسانا و باعه او وجد في يده يقتل قتلا 16 و من شتم أباه او امه يقتل قتلا 17 و ان حصلت اذية تعطي نفسا بنفس 23 و عينا بعين و سنا بسن و يدا بيد و رجلا برجل 24 و كيا بكي و جرحا بجرح و رض برض 25».

و في سفر الأعداد 35 ان ضربه باداة من حديد فمات فهو قاتل ان القاتل يقتل 16 و ان ضربه بحجر يد مما يقتل به فمات فهو قاتل ان القاتل يقتل 17 او ضربه باداة يد من خشب مما يقتل به فمات فهو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 304

«و لا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت بل إنه يقتل أم و لا تأخذوا فدية ليهرب إلى مدينة ملجئه ... و عن الأرض و لا يكفر لأجل الدم الذي سفك فيها إلا بدم سافكه» سفر الأعداد 35: (31- 34).

و في سفر التكوين (9: 6) «سأسفك دم الإنسان بالإنسان اسفك دمه» فآية المائدة- «وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ...» (45)- إنها تتحدث عما في التوراة الحالية، إلّا في‏ «فَمَنْ تَصَدَّقَ» ثم آية البقرة تنسخها في شي‏ء من إطلاقها و عمومها.

ثم «و رحمة» هنا بعد «تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ» علّها هي رحمة التخفيف، في رحمة بين الإخوة، رحمة على المجرم النادم، او الذي يتندّم بعفوه، و رحمة على القتيل حين يعفى عن القاتل صدقة على القتيل.

«فَمَنِ اعْتَدى‏ بَعْدَ ذلِكَ» اعتداء على حكم اللّه، و اعتداء على القاتل، و اعتداء بعد العفو، و على الجملة اعتداء من العافي أو المعفو أم شركاء ولي الدم، أو اعتداء من حكام الشرع، تجاوزا على أية حال عن حكم اللّه كما حكم‏ «فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ» إما هنا ام و في الآخرة.

اجل «ذلك» الحكم العدل في القصاص تخفيف عن ثقل الجاهلية و اليهودية و النصرانية الى سهولة الإختيار قصاصا بعدل، او انتقالا الى دية، ام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قاتل. ان القاتل يقتل 18 ولي الدم يقتل القاتل حين يصادفه يقتله 19 و ان دفعه ببغضه او ألقى عليه شيئا يتعمد فمات 20 او ضربه بيد بعداوة فمات فانه يقتل الضارب لأنه قاتل، و لي الدم يقتل القاتل حين يصادفه ... فتكون لكم هذه فريضة حكم إلى اجيالكم في جميع مساكنكم 29 كل من قتل نفسا فعلى فم المشهود يقتل القاتل 30- و لا تأخذوا فدية ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 305

عفوا كاملا، كل كما تقتضيه المصلحة اسلاميا، فرديا و جماعيا، «و رحمة» بين الجماعة المسلمة.

وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ‏ 179.

هذه كأصل و ضابطة، و العفو تبصرة صالحة في مواردها حيث تقتضي الحكمة و الرحمة و «القصاص» معرفا تعريف بها كما شرعت، إيجابيا حين تقتضيه التقوى، و سلبيا حين تقتضيه تقوى اخرى، ف‏ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» تعم المرحلتين، «و لكم»: الكتلة المؤمنة ككلّ‏ «فِي الْقِصاصِ» بكل حقولها في الأنفس و الأطراف و الأعراض و الأموال «حياة» صالحة في كل الحيويات النفسية و العرضية و الاقتصادية أماهيه‏ «يا أُولِي الْأَلْبابِ» و العقول العميقة الخارجة عن قشورها الخاطئة «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» الممات في مختلف مسارحه المخلّفة من ترك ملاحقة المجرمين.

فمهما كان في عفو المجرم و ترك ملاحقته او التخفيف عنه‏ «تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ» كأحوال جانبية مرهونة بمصالحها، و لكنما القصاص، كأصل و ضابطة فيها حياة لأولي الألباب بل و سواهم: حياة لأهل الحق كيلا يموت الحق و شفاء لصدورهم من حقد فاتك و رغبة في الثأر الذي لم يكن يقف عند حدّ و كما نراه في واقعنا اليوم حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية في اجيال و لا تكف عن المسيل إذ لا تجد الى القصاص السبيل.

و حياة للمجرمين كيلا يكرروا إجرامهم حين لا يقتلون بقصاص، ففي القصاص تنبثق حياة من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء، فالذي يوقن انه يدفع حياته ثمنا لحياة من يقتله، جدير به ان يتروى و يكفر و يتردد فيرتد الى عقله و لبه، و حياة لهم أخرى في الأخرى حين يقتلون ان يصدّ عن إجرامهم، و حياة لسائر المسلمين كيلا يجرموا ام يتخاذلوا أمام المجرم، و حياة لحكام الشرع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 306

إزالة للفوضى و احياء لروح الأمن و الطمأنينة، و على الجملة حياة للمسلمين ككل‏ «1» اللّهم إلّا فيما كان في ترك القصاص او التخفيف عنه حياة ف‏

«ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ ...».

فالقشريون الذين لا ألباب لهم يفضلون ترك القصاص زعم أنه رحمة و عاطفة إنسانية و ذلك تفريط بحق القصاص، و آخرون مفرطون يعملون الفوضى في القصاص، أم يجعلون عدل القصاص أصلا لا يستثنى، و شريعة القصاص القرآنية عوان بين الإفراط و التفريط بشأنها، أصلا كقانون حقوقي عام‏ «فِي الْقِصاصِ حَياةٌ» و فرعا كتبصرة حين تقتضيها المصلحة فوق مصلحة القصاص:

«ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ»!

و هذه شرعة أولى الألباب، الذين يراعون كل جوانب المصلحة، فردية و جماعية.

فأين هذه البلاغة الأدبية و المعنوية البارعة على اختصار الآية و سائر تعبيرات البلغاء ك: قتل البعض إحياء للجميع- أكثروا القتل ليقل القتل، و من أبلغها عندهم و أفصحها: القتل أنفى للقتل! ف «القصاص» هي أعم من القتل، و «حياة» تعم كل مراحلها، و «لكم» تعم كل المسلمين، و «أُولِي الْأَلْبابِ» تربط تلك الحياة العظيمة كحصيلة للقصاص بحكم الألباب، خارجا عن قشرية الرحمة و همجية الهجمة غير العادلة، و لا تجد عبارة كهذه البالغة المدى، البليغة المعنى على إيجازها طول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 158 في الاحتجاج للطبرسي باسناده الى علي بن الحسين (عليهما السلام) في تفسير الآية: و لكم يا امة محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في القصاص حيوة لأن من هم بالقتل يعرف انه يقتص منه فكف لذلك عن القتل الذي كان حيوة للذي كان هم بقتله، و حياة لهذا الجاني الذي أراد ان يقتل و حياة لغيرهما من الناس إذ علموا ان القصاص واجب لا يجسرون على القتل مخافة القصاص‏ «يا أُولِي الْأَلْبابِ» اولي العقول‏ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 307

تاريخ الحقوق و عرضه، مما يجمع بين جمال التعبير و جلال المعنى و شموله لكافة المتطلّبات العادلة في حقل القصاص ... و هنا «في» تعني ظرف القصاص وجوه لا نفسه، فان نفسها ليس حياتا و إنما فيها حياة، ثم و تنكير حياة تفخيم لها و توسعة لحقولها، و «القصاص» المعرف تعريف بما يقصه القرآن من قصاص عادلة يسمح فيها بالعفو بعضا او كلّا، و لا ينبئك مثل خبير بهكذا التعبير العبير.

فليس القصاص في شرعة القرآن انتقاما جافا جافيا و إرواء للأحقاد، بل هي في سبيل الحياة، و استحياء للقلوب و استجاشة لتقوى اللّه.

فليست لتقوم شرعة و لا حكومة أخرى بغير القصاص الخاص المنتهي ب‏ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» و لا يفلح قانون و لا يتحرج متحرج، و لا تكفي التنظيمات الخاوية من روح التقوى صدا عن الطغوى.

فالتقوى هي التي تحمل القاتل على الاعتراف بالجريمة في محكمة الشرع كما حصل كرارا زمن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و الائمة (عليهم السلام)، فلقد كانت هنالك التقوى هي الحارسة اليقظة داخل الضمائر المؤمنة و في حنايا قلوبهم، الى جانب الشرعة النيرة البصيرة بخفايا القلوب.

فهل إن شرعة القصاص- بعد- همجية و جفاوة خلاف الحفاوة الإنسانية، كما تقول الحضارة المادية المتفرنجة: إذا كان القتل الأول فقدا فالثاني فقد على فقد، ثم و هو من القسوة و حب الانتقام، البعيدة عن ساحة الإنسان العطوف الرؤوف، و بالإمكان تأديب القاتل بما دون قتله.

ثم إن جريمة القتل ليست إلّا خلفية أوتوماتيكية لانحراف الروح و مرض النفس، فقضية الرحمة و الحكمة- إذا- أن يحوّل القاتل إلى مستشفيات الأمراض النفسية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 308

و الجواب عن كل هذه الأقاويل الزور الغرور نجده في آيات القصاص‏ «فِي الْقِصاصِ حَياةٌ ...»- ف‏ «مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً» (5: 35).

و هل إن فقدا واحدا على فقد أفقد، ام فقد جماعة إبقاء للمجرم سجينا أم سواه، و لا سيما إذا اختلق له عذر المرض النفسي، مما يسمح لأي أحد ان يخوض في هذه الجريمة لغايات رديئة ثم يؤخذ في كل مرة الى رياحة المستشفى النفسي؟.

و هل إن في قصاص القاتل المتعمد جفاوة و خلاف رحمة، و ليس في إبقائه يخوض في قتل آخرين جفاوة و خلاف رحمة؟.

إن في شرعة القصاص حفاظا على حقوق الناس فرادى و جماعات، ثم في العفو بموارده الصالحة تربية لنفوس مستهترة تقبل التربية و الرجوع الى عقلية صالحة، و لكن لا يجبر أولياء الدم على العفو فانه سماح عن الحق الثابت لهم، مهما ينصح القرآن بالعفو في مصالحه.

ثم و هؤلاء المتحضرون الناقدون شرعة القصاص هل يتوقفون عن حروب مستأصلة لجماهير دفاعا عن كيانهم في صالح الحيوية المادية، فهم أولاء يفتون بعدم سماح القصاص حفاظا على أصل الحياة بمختلف حقولها، التي هي أم النواميس الواجب الحفاظ عليها بكل الطاقات و الإمكانيات.

أم هل يتوقفون عن إباده جمع ظنوا أنهم يعزمون الثورة على الحكم؟ حتى يفتوا بحرمة قتل القاتل الفاتك حرم حياة الإنسانية!.

أم إنهم- على حيادهم المدّعى المزعوم لحياة الإنسان، بسنّ مختلف القوانين- هل استطاعوا القضاء على جريمة القتل، و هي تزداد يوميا بينهم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 309

بمختلف الأساليب الخبيثة الوحشية اللّاإنسانية! أفهم رحماء على حياة الإنسان و الإسلام من الأشداء عليها، الألدّاء لها، لأنه يسمح ان يعتدى على المعتدي بمثل ما اعتدى: «وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» (42: 40) فكما العفو مسموح بغية الإصلاح، كذلك الجزاء لا يعني إلا الإصلاح، أم و لأقل تقدير عدم إماتة الحق.

و هنا «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» لمحة إلى حكمة الوقاية عن الجرائم المتوقعة لولا القصاص، حصرا لها بحالة الوقاية عن تكرر الإجرام، و هذه طبيعة الحال في المجرم أنه حين يأمن الملاحقة بالمثل يتجرأ على متابعة الإجرام، فلو لا شرعة القصاص كضابطة لأصبحت الحياة بكل شؤونها متأرجفة، و لو لا رحمة العفو كهامش على هذه الشرعة لما ظهرت التقوى في النفوس الأبيّة السمحة، و لا استفاد المجرمون التائبون الآئبون من تلك السماحة الإيمانية، ففي القصاص أصلا و فرعا حياة للجماعة المؤمنة، لعلهم يتقون محاظير تركها، او السماح فيها، حيث «القصاص» المعرّف هنا هي التي تقبل العفو و السماح في مصالحه.

إذا «ففي القصاص» ايجابيا كأصل و سلبيا كهامش و فرع‏ «حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ‏ 180.

الوصية هي التوكيل فيما لا يستطيع عليه الموكّل، أم لا يناسب محتده و كيانه كوصايا اللّه سبحانه‏ «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ...»- «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ» (42: 13) فالوحي إلى كل مكلف لا يناسب محتد الربوبية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 310

كما لا يليق به كل مكلف، فهنا الوصية إلى المرسلين ليبلغوا رسالات ربهم إلى كل المرسل إليهم.

و هي في غير اللّه ظاهرة في وصية الموت حيث الحي لا يحتاج إليها في حياته لإمكانية تصرفه بنفسه إلّا شذرا، أم فيما يختص بآخرين كالوصية بالتقوى و ما شابهها، ثم وهنا «إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» تجعلها صريحة في وصية الموت.

و للوصية رباطات ثلاث بالموصي و الموصى له و الموصى إليه، ففي ذلك المثلث تتحقق الوصية على شروطها، و «كتب» هنا مما تفرض هذه الوصية فانها صريحة في فرضها، متأبية عما يحوّلها عنه الى ندب أمّا شابه، من غير الفرض، ثم‏ «حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» تؤكد فرضها، و ليست التقوى راجحة حتى تلمح برجحان الوصية دون فرض، بل هي واجبة على أية حال، «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» و «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

ثم و آيات الفرائض تعبّر عن الوصية بما يؤكّد فرضها ثالثة، فقد تتكرر «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ» «يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ» «تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ» بعد أصول الفرائض، ف‏ «يُوصِي بِها» دون «إن أوصى بها» مما تلمح كصراح‏

«ان الوصية حق على كل مسلم» «1»

فكيف تنسخ آية الوصية بآيات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

وسائل الشيعة 13: 351 ح 2 صحيحة أبي الصباح الكناني عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سألته عن الوصية فقال: هي حق على كل مسلم، و عن أحدهما (عليهما السلام) انه قال: ... و مثله ما عن زيد الشحام عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) و ح 6 محمد بن محمد بن النعمان المفيد في المقنعة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ...

قال صاحب الوسائل و الأحاديث الواردة في ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أوصى و أن الأئمة (عليهما السلام) أوصوا كثيرة متواترة من طريق العامة و الخاصة.

و فيه 355 ح 3 عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليهما السلام) قال: من لم يوصي عند موته لذوي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 311

الفرائض؟ و «نسختها» «1» في بعض الروايات لا تعني إلّا نسخ الإطلاق، و كما نسخت‏ «فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً» آية الوصية «2»، اي استثنت عنها الوصية المجانفة، فالنسخ و هو الإزالة قد تحلّق على المنسوخ ككل كما هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قرابته ممن لا يرثه فقد ختم عمله بمعصيته، أقول: اختصاص من لا يرثه بالذكر لأنهم أحوج حيث يحرمون الإرث.

و فيه‏

عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقضا في مروته و عقله، قيل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و كيف يوصي الميت؟ قال: إذا حضرته وفاته و اجتمع الناس إليه قال: اللهم فاطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم، اللهم إني أعهد إليك في دار الدنيا أني اشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك و ان محمدا عبدك و رسولك، و ان الجنة حق و ان النار حق و ان البعث حق و الحساب حق و القدر و الميزان حق و ان الدين كما وصفت و أن الإسلام كما شرعت و ان القول كما حدثت و ان القرآن كما أنزلت و أنك أنت اللّه الحق المبين، جزى اللّه محمدا و آل محمد بالسلام، اللهم يا عدتي عند كربتي و صاحبي عند شدتي و يا ولي نعمتي إلهي و إله آبائي لا تكلني الى نفسي طرفة عين أبدا فانك ان تكلني إلى نفسي أقرب من الشر و أبعد من الخير، فآنس في القبر وحشتي و اجعل لي عهدا يوم ألقاك منشورا. ثم يوصي بحاجته و تصديق هذه الوصية في السورة التي يذكر فيها مريم في قوله عز و جل‏ لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً فهذا عهد الميت، و الوصية حق على كل مسلم أن يحفظ هذه الوصية و يعلمها، قال امير المؤمنين (عليه السلام) علمنيها رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) علمنيها جبرئيل.

(1).

نور الثقلين 1: 159 عن تفسير العياشي عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما (عليهما السلام) في الآية قال: هي منسوخة نسختها آية الفرائض التي هي المواريث ...

أقول و هذا نسخ لاطلاقها ألا تصح الوصية بكل ما ترك ام بما زاد عن ثلثه.

(2)

المصدر 542 عن الكافي بسند متصل عن محمد بن سوقة قال: سألت أبا جعفر (عليهما السلام) عن قول اللّه عز و جل‏ «فَمَنْ بَدَّلَهُ ...» قال: نسختها الآية التي بعدها قوله: «فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً» فيما اوصى به اليه فيما لا يرضي اللّه به من خلاف الحق فلا اثم على الموصى إليه ان يرده الى الحق و الى ما يرضى اللّه به من سبيل الخير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 312

المصطلح، ام يقيّد إطلاقه او يخصّص عمومه و هذا هو الأكثر استعمالا في الأحاديث التي تحويه، و الرواية اليتيمة المروية

عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ان «لا وصية لوارث» «1»

مختلقة او مؤولة بالوصية بما زاد على الثلث‏ «2»، و لكنه لا يختص بوارث! فهي لا توافق القرآن، و تعارضها المروية عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) و هم روات رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) الصادرون عنه دون خطأ و لا تجديف‏ «3».

و لقد احتجت بآية الوصية- فيمن احتج- الصديقة الطاهرة جمعا بينها و بين آيات الإرث، فهل هي بعد منسوخة و بعد ارتحال الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)! دون أية حجة إلّا إجماعا يدّعى و روايات يتيمة تروى لا حجة فيها أمام القرآن الناطق بفرض الوصية؟

فحتى لو تواترت الرواية على غير فرضها كانت مضروبة عرض الحائط،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 175- أخرج احمد و عبد بن حميد و البيهقي في سننه عن أبي امامة الكابلي سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) في حجة الوداع في خطبته يقول: ان اللّه قد اعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث، و فيه عن عمرو بن خارجة ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) خطبهم على راحلته فقال: ان اللّه قد قسم لكل انسان نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية، و فيه أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): لا وصية لوارث إلا ان تجيزه الورثة.

(2)

الوسائل 356 عن أبي حمزة عن بعض الأئمة (عليهما السلام) قال: ان اللّه تبارك و تعالى يقول:

ابن آدم تطولت عليك بثلاثة: سترت عليك ما لو يعلم به أهلك ما واروك و أوسعت عليك فاستقرضت منك فلم تقدم خيرا، و جعلت لك نظرة عند موتك في ثلثك فلم تقدم خيرا.

(3) كما

في صحيحة محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: سألته عن الوصية للوارث فقال: تجوز، قال: ثم تلى هذه الآية، و صحيحته الاخرى عنه (عليه السلام) قال: «الوصية للوارث لا بأس بها»

و

رواه صحيح أبي ولاد الحناط قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الميت يوصي للوارث بشي‏ء؟ قال: نعم- او قال: جائز له. (الكافي 7: 9).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 313

فضلا عن آحاد معارضة بأكثر منها و أصح سندا! و جواز الوصية في بعض الأحاديث يعني عدم الحظر عنه لأنها بوجود الوارث في مظان الحظر، او يعني مضيّها جوازا وضعيا يضم جوازه تكليفيا، ام يعني رجحانها قبل حضور الموت، فان فرضها حسب الآية خاص بما إذا حضر أحدكم الموت.

و بعد كل ذلك فآية المائدة في إشهاد الوصية- و هي آخر ما نزلت- تثبت الوصية بشهود لكي لا تفلت، و هل الوصية هذه المهمة إلّا للوالدين و الأقربين بالمعروف حقا على المتقين.

فقبل نزول آيات المواريث بفرائضها كانت الوصية في كل ما ترك من خير، ثم اختصت بقسم قدر في السنة بالثلث، و كما تصرح آيات الفرائض‏ «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ».

فحقا إنها تفرض الوصية كما آيات الفرائض تفرض الفرائض و تلمح- أيضا- إلى فرض الوصية، و الجمع بين الفرضين أن الأولى لا تعدو الثلث و الثانية تخص الثلثين عند الأولى، امّا زاد حين تنقص الوصية عن الثلث، أم الأثلاث الثلاثة إذ لا وصية و كل ذلك من بعد دين.

و ترى «عليكم» تعم قبيلي النساء و الرجال؟ اجل و بطبيعة الحال فان ترك خير و ترك الوالدين و الأقربين و أوامر الإنفاق، لا تختص بقبيل الرجال، إضافة الى عموم التكليف حتى لو اختص اللفظ بقبيل الرجال، و أنّ‏ «كُتِبَ عَلَيْكُمْ» تخاطب الذين خاطبهم من ذي قبل و هم كل‏ «الَّذِينَ آمَنُوا».

ثم‏ «إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» لا تعني حالة الاحتضار لأنها حالة الغفوة و الاستتار، و الميت فيها منهار لا يستطيع أمرا عاقلا باختيار! إنها تعني الحالات التي تعتبر في كل الأعراف أنها حالات حضور الموت، لمّا قل الرجاء بالبقاء، دون الموت اليقين لأنه مجهول حتى حالة الاحتضار، فحين ينقطع الرجاء من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 314

الحياة فالوصية- إذا- مكتوبة.

و لماذا الوصية مكتوبة هي خاصة بما إذا حضر أحدكم الموت؟ إذ إنه قبل حاضر الموت مسئول شخصيا عن الوالدين و الأقربين في نفقات واجبة و إنفاقات أخرى تحملها آيات، فلما يحضر الموت فلا يقدر شخصيا ان يعمل بواجبه تجاه الوالدين و الأقربين فليوص لهم بما يجبر واجبه في حياته، و لا سيما إذا هم ليسوا ممن يرث لحجب من كفر او ارتداد أمّا شابه! لمكان الأمر «وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» و منه الوصية لهما، و كذلك من يرث و لا يكفيه نصيبه، او يوفّر عليه لمرجح آخر «بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ».

و فرض الوصية هذه هو بطبيعة الحال خاص بما «إِنْ تَرَكَ خَيْراً» من أموال و حقوق مالية أمّاهيه من خير كان يملكه و هي محسوبة من التركة، و خير عبارة عن التركة الموصى فيها هو «خيرا» لشمولها الحقوق إلى جانب الأموال، و اختصاصها بما تحصل عليها من حلّه، و ما تبقى عندك بعد إخراج الحقوق الواجبة فيه، و بعد إخراج الديون منه، فلا وصية- إذا- في كل ما ترك إذ ليس له إلا خيره في نطاق الشرع، فكيف يوصي بما لا يملكه؟.

فهل إنه كل ما يتركه مما قل منه او كثر؟ و قليل المال ليس شيئا يذكر، كما و أن في الوصية به للأقربين ممن يرث فضلا عمن لا يرث إضرارا بسائر أهل الفرائض، أو تقليلا لميراث من هو خارج عن الوصية من الورثة «1»، إذا ف «خيرا» هنا هو المال الواسع الذي لا يؤول بوصيته إلى شرّ و ضرّ، كما هو الحال في مطلق الإنفاق زائدا على الفرض حال الحياة، أن ينفق على الوالدين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 174 عن عروة ان علي بن أبي طالب دخل على مولى لهم في الموت و له سبعمائة درهم او ستمائة درهم فقال: ألا اوصي؟ قال: لا! انما قال اللّه: ان ترك خيرا و ليس لك كثير مال فدع مالك لورثتك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 315

و الأقربين بقدر يقدر به رزق عياله و يضيّق عليهم، إذا ف «خيرا» تختلف من زمان الى زمان، و من بيئة الى بيئة، و من عائلة وارثة إلى عائلة، ليس يحدد بحد خاص كضابطة سارية لما تصح فيه الوصية، فهو المال الذي يتحمل الوصية و هنالك وراث، دون اي مال توصي به و تحرم الورثة المحاويج، إكثارا على غيرهم او توفيرا لبعضهم على بعض في غير ما حق و لا رجحان.

ثم «الأقربين» بعد الوالدين هم بطبيعة الحال الأولاد فنازلا الى سائر طبقات الوارثين و سواهم، و «بالمعروف» إخراج عن حدّي الإفراط و التفريط فلا تظلم فيها الورثة و لا تهمل، و حدّه في متواتر السنة الثلث، يوصي به أم اقل منه حسب العدل و النصفة، رعاية للأقرب و الأحوج الأليق في ميزان اللّه، فإنهما من الموازين الثابتة في كافة الإنفاقات واجبة و راجحة.

و ما شرعة الوصية بالثلث إلّا رعاية لأحوال المحاويج من الوالدين و الأقربين، وارثين منهم و غير وارثين، فان الورثة درجات حسب الحاجيات، و الموازنة الصالحة بينهم في قدر الحاجات مقدرة في الثلث، و الوصية بالمعروف هو العدل فيها حسب القرابة و الحاجة، فكما الواجب على من عنده خير الإنفاق بالعدل على الوالدين و الأقربين في حياته، كذلك عليه الوصية للوالدين و الأقربين بالمعروف، تسهيما بالعدل من ثلث ماله او ماله من حق، فان الورثة و سواهم من الأقارب ضروب شتى في الحاجة، فيسد ثغور الحاجات بالوصية الصالحة.

فقد شاء اللّه بفرض الوصية للوالدين و الأقربين ألّا يحرموا النصيب العدل، و ليست سهام المواريث لهم ككلّ، لموانع اصيلة او طارئة تحول دون الإرث، ثم و ليست السهام المفروضة تحلق على مختلف المحاويج منهم، اللّهم إلّا ضابطة ثابتة روعي فيها الأحقية من حيث القرابة، و أما هي من حيث‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 316

الحاجة فلا ضابطة فيها حيث الحاجات لا تنضبط تحت ضابط، و لا بد للموصي النظر الثاقب إليها و الوصية الصالحة بحقها.

إذا فالتقسيم العادل هو بين وصية اللّه بسهام المواريث و وصية المكلفين كما أمر اللّه للوالدين و الأقربين بالمعروف، و هو صالح التقسيم سدا للثغور و تسوية من حيث الحاجات، إذا فهذه الوصية واجبة كواجب سهام المواريث على سواء، ثم عن الوصية المحرمة في شرعة اللّه، ثم عن الوصية الفوضى غير المراعى فيها درجات القرابة و الحاجة.

«حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» حقا على عواتقهم للوالدين و الأقربين، فرضا واجبا، كما «وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى‏ وَ الْيَتامى‏ وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً. وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً» (4: 9).

و قد تلمح صارحة بوجوب الوصية لهم، أنها إذا تركت أبدل عنها برزقهم إذا حضروا القسمة، و هم غير الوارثين، فضلا عن الوالدين و أولي القربى الوارثين.

فهنا واجبات ثلاث: واجب تطبيق السهام كما فرض اللّه، و واجب الوصية للوالدين و الأقربين كما أمر اللّه بالمعروف، ثم واجب الرزق من الميراث لمن يحضر من اولي القربى و اليتامى و المساكين.

كل ذلك حفاظا على حقوق المحاويج الذين كان لهم نصيب طول حياة الموصي، ما أمكن له من إنفاق عليهم، تقديما لجانب الأقربين ثم سائر القرباء على مراتبهم، ثم اليتامى و المساكين و ابن السبيل.

ف «بالمعروف» في حقل الوصية هو نفسه المعروف في كل حقول الإنفاق.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 317

و ترى ان الأقربين هم فقط أقارب النسب؟ و الأزواج هم من أقرب الأقربين مهما كانت قرابتهم بالسبب؟ إطلاق الأقربين يشملهم دون ريب حيث القرابة السببية قرابة كما النسبية، فمهما كانت القرابة النسبية اثبت، فان القرابة السببية أربط، فهما إذا قرابتان مهما اختلفتا في الثبت و الربط.

ثم‏ «إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» تحصر فرض الوصية بحضور الموت، و لا تمنع عن رجحانها قبله كما تظافرت به الروايات، كما و لا تحصر أصل الوصية بالوالدين و الأقربين، و إنما هم يقدّمون على من سواهم، ام انهم أعم من قرابتي النسب و السبت، ان يشملوا قرابة الأخوة الإسلامية، مع رعاية الأقرب و الأحوج، ثم الإشهاد على الوصية واجب في واجب: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى‏ وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ. فَإِنْ عُثِرَ عَلى‏ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ. ذلِكَ أَدْنى‏ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى‏ وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» (5: 108- 106).

ثم في الوصية أحكام أخرى قد تأتي بطيات آياتها الأخرى كما تناسبها إن شاء اللّه تعالى.

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ‏ 181.

أ ترى ضمير الذكر إلى م يرجع؟ أهو الوصية لأنها مؤنث مجازي جائز

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 318

الوجهين؟ و لا وجه للذكورة لسابق المرجع المؤنث المجازي! و لا أن الوصية تبدّل في نفسها إثما لأنها فعل الموصي و له تبديلها إذا شاء وفق المصالح المتجددة! إنه حكم اللّه في الوصية ان يبدل من واجبها الى ندبها، و أصل الوصية ان تترك، و مادة الوصية الحاصلة أن تبدل، أماذا مما فرضت في هذه الآية.

ف «بدّله» تعم كل تبديل موضوعي او حكمي، بعضا او كلّا، كتابة أم شهادة أم واقعية، سواء أ كان مبدّله- أيا كان المبدّل- وصيا او شاهدا أم ثالثا، او جلّهم ام كلّهم، فهو- إذا- تبديل مطلق او مطلق تبديل، فالمعنى فمن بدل ما ذكر من الأمر بالوصية و من مادتها و من تطبيقها فانما ...

فمن ذلك التبديل تبديل الحكم المكتوب في الوصية «كُتِبَ عَلَيْكُمْ» الى الندب، فتوى فالإثم- إذا- على المقلّد حين لا يعلم المقلّد خطأه.

و منه تبديله عمليا ممن يعرف وجوب المكتوب ثم لا يوصي، كما منه تبديل كتاب الوصية تمزيقا او تغييرا من أيّ كان.

كل ذلك تشمله‏ «فَمَنْ بَدَّلَهُ» مهما اختلفت دركاته كما تختلف درجات الوصية بالمعروف!.

«بَعْدَ ما سَمِعَهُ» كذلك تعم سماع حكم اللّه في بعدي فرض الوصية و تنفيذها، أم سماع الوصية، و السماع هنا لا يحدّد بنفسه، إنما هو الذريعة المتعوّدة للعلم، إذا فهو العلم كيفما حصل بأيّ من حلقات الوصية حكما و تنفيذا و مادة و كيفية، فلا تبديل في ذلك الحقل لأيّ من جنبات الوصية، اللّهم إلّا من الموصي و هو خارج عمن بدّله.

ثم‏ «فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ» تحصر إثم التبديل على من بدّل، فقد يحاول الوصي تطبيق الوصية كما هي و الشاهد يبدلها، او الشاهد يشهد لها كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 319

الوصي ثم الوكيل او الورثة امّن هو ممن له مدخل الى حقل الوصية، هو الذي يبدله، فلا إثم- إذا- على من سبقه حيث طبقه، و لا على الوصي حين أوصى كما يجب.

و «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» الوصية و الشهادة، و سميع قول من بدلّه «عليم» بما يخفي أو يعلن، فتبديل الوصية الصالحة في كل مواقفها إثم مهما اختلفت دركاته حسب مختلف التبديل، حتى إن أوصى بمال له ليهودي او نصراني‏ «1» ما لم يكن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 161 عن الكافي علي بن ابراهيم عن أبيه عن الريان بن شبيب قال: أوصت ماردة لقوم نصارى بوصية فقال أصحابنا اقسم هذا في فقراء المؤمنين من أصحابك فسألت الرضا (عليه السلام) فقلت: إن أختي أوصت بوصية لقوم نصارى و أردت أن أصرف ذلك الى قوم من أصحابنا المسلمين فقال: امض الوصية على ما أوصت به قال اللّه تعالى: فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ‏

و

فيه عن أبي سعيد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سئل عن رجل أوصى بحجة فجعلها وصية في نسمة؟ فقال: يغرمها وصية و يجعلها في حجة كما أوصى به فإن اللّه تبارك و تعالى يقول‏ «فَمَنْ بَدَّلَهُ ...»

و

فيه عن حجاج الخشاب عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: سألته عن امرأة أوصت إلي بمال ان يجعل في سبيل اللّه فقيل لها: أ يحج به؟ فقالت: اجعله في سبيل اللّه، فقالوا لها نعطيه آل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم)؟ قالت: اجعله في سبيل اللّه فقال ابو عبد اللّه (عليه السلام) اجعله في سبيل اللّه كما أمرت، قلت: مرني كيف اجعله؟ قال: اجعله كما أمرت ان اللّه تبارك و تعالى يقول‏ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ‏ أ رايتك لو أمرتك ان تعطيه يهوديا كنت تعطيه نصرانيا؟ قال: فمكثت ثلاث سنين ثم دخلت عليه فقلت له مثل الذي قلت له اوّل مرة، فسكت هنيئة ثم قال: هاتها، قلت: من أعطيها؟ قال:

عيسى شلقان‏

أقول: في سبيل اللّه في عرف ذلك الزمان- كما هو ظاهر الحديث- تعني الجهاد، و

صحيح محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن رجل اوصى بما له في سبيل اللّه؟ فقال: أعطه لمن أوصى به و ان كان يهوديا او نصرانيا إن اللّه تبارك و تعالى يقول: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ ....

أقول: كل ذلك إذا كانت الوصية لغير المسلم من المعروف تأليفا لقلوبهم او مودة إليهم كما قال اللّه: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ‏- الى قوله- أَنْ تَبَرُّوهُمْ‏ و الوصية بر، و هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 320

في أصل الوصية محظور.

و لماذا «فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ» و من يقبل ذلك التبدل او لا يعارض المبدل و هو عارف بالوصية هما ايضا آثمان؟ لأن امكانية المعارضة و واقع القبول، انهما ليسا في كل الأحوال، ثم إثم القابل و غير المعارض هو على هامش اثم المبدل، فهو- إذا- آثم لقبوله الإثم او تركه النهي عنه، كما تدل عليه ادلة وجوب النهي عن المنكر.

فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ‏ 182.

الجنف خلاف الحنف هو الميل عن الحق، و الإثم هو التباطؤ عن الخير، ثم «خاف جنفا أو إثما» ليس إلا خوفا عن واقعهما، لا الذي يخاف أن يقع، فان خوف وقوعهما لا يفسد حتى يصلح بينهما، فهي كخوف نشوز الزوجين: «وَ اللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ ...» «وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً».

فالوصية ثلاثة: وصية بالمعروف فلا تبديل فيها، و وصية بجنف أو إثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يعم الموت و الحياة. ذلك! فضلا عمن لا يعرف هذا الأمر موصى اليه او موصيا كما

رواه المشايخ الثلاثة عن يونس بن يعقوب‏ ان رجلا كان بهمدان ذكر أن إياه مات و كان لا يعرف هذا الأمر فأوصى بوصية عند الموت و أوصى أن يعطى في سبيل اللّه فسئل عنه ابو عبد اللّه (عليه السلام) كيف يفعل به؟ فأخبرناه أنه كان لا يعرف هذا الأمر فقال: لو ان رجلا أوصى أني أضع في يهودي او نصراني لوضعته فيهما ان اللّه عز و جل يقول: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ ... فانظر إلى من يخرج إلى هذا الوجه- يعني بعض الثغور- فابعثوا به إليه. (الوسائل 670 من الوصايا)

أقول:

و الأحاديث الواردة في المنع عن إشباع كافر محمولة على موارد الحظر، فان من المؤلفة قلوبهم كفارا تمال قلوبهم الى الإسلام و لهم نصيب من الصدقات حسب النص في آيتها!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 321

أو غير مخيف، فالواجبة هي الأولى‏ «لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ» و المحرمة هنا هي المخيفة بجنفها أو إثمها، فلا إثم في ردها الى المعروف بل هو مفروض فان تطبيق الإثم إثم، و ترك تطبيق الوصية عن بكرتها إثم، فلتحول إلى غير ما إثم أو جنف.

ثم عوان بينهما هي بجنف أو إثم لا خوف فيهما من اختلاف بين الورثة او تخلّف منهم عن شرعة اللّه، و هي بين تضييع لحق الورثة و لكنهم يوافقون فتمضى، أم تضيع لحق اللّه كالوصية بما لا يجوز فعله، فهي إثم يخيف على أية حال فلا تمضى، إذا فكل وصية بالمعروف تمضى، و سواها بين ما تمضى- كما في حق الورثة المتوافقين- ام لا تمضي كما في كل عصيان في غير حقوق الناس.

هنا «فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ» يرتكن على ما فيه جنف أو إثم يخيف بالنسبة للورثة من اختلاف عارم غير محمول، و ليس‏ «فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ» فقط سلبا لإثم، بل هو إيجاب للإصلاح، و «لا إثم» ك «لا جناح» في آية الصفا وارد موقف الحظر السابق‏ «فَمَنْ بَدَّلَهُ» فلأن فرض الإصلاح وارد لا ريب فيه، و انما يخيّل فيه اثم لسابق الحظر، فيرجع ذلك الإصلاح- بعد أن لا إثم فيه- إلى أصله المفروض.

فمن الجنف المخيف‏

«إذا اعتدى في الوصية إذا زاد على الثلث» «1»

و من الإثم‏

«ان تأمر بعمارة بيوت النيران و اتخاذ المسكر فيحل للوصي أن لا يعمل بشي‏ء من ذلك» «2»

، و كضابطة عامة إذا كان في الوصية جنف بحق الناس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 161 في العلل بسند عن يونس بن عبد الرحمن رفعه الى أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: إذا اعتدى ...

(2)

المصدر في الكافي عن محمد بن سوقة قال: سألت أبا جعفر (عليهما السلام) عن قول اللّه عز و جل: «فمن بدله ...» قال: نسختها الآية التي بعدها قوله: «فَمَنْ خافَ ...» قال: يعني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 322

يخيف فلا بد من الإصلاح بينهم، و إلّا فهي ممضاة حين يوافق أصحاب الحق، و إذا كان فيها إثم و هو الجنف بحق اللّه، فهو على أية حال مخيف، فكما الإثم- أيا كان- لا يمضى، كذلك الوصية بالإثم ليست لتمضي.

إذا «فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ» في «جنفا» هو الإصلاح بين أهل الحق، إما ردّا إلى الحق أو حملا لهم على أصل الوصية، و أما الإصلاح في «إثما» فلا يعني إلّا رد الوصية، فإنها على أية حال تعمل خلافا بين الموصى له و الورثة، و يختص الإصلاح بينهم برد الوصية، مهما كان بإرضاء الموصى له بإثم، أن يعطى مالا يرضاه.

إذا فضابطة الوصية الممضاة ألا تخيف بجنف أو إثم، و هنا يأتي دور الإصلاح بين الموصى له و سائر الورثة، و حين لا إفساد و لا يخاف منه فلا موقع لإصلاح فلا رد للوصية، اللهم إلّا في الإثم فانه مخيف على أية حال، او يقال ليس خوف جنف او إثم إلّا مصداقا بارزا هنا لواجب الإصلاح، إصلاحا بين الورثة أنفسهم او بينهم و بين الموصي في إثم الوصية بحقهم، و اما الجنف فإصلاحه محوه. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الموصى إليه ان خاف جنفا فيما أوصى به اليه فيما لا يرضى اللّه من خلاف الحق فلا اثم على الموصى إليه أن يرده الى الحق و الى ما يرضي اللّه به من سبيل الخير.

و

فيه عن تفسير القمي قال الصادق (عليه السلام) إذا أوصى الرجل بوصيته فلا يحل للوصي أن يغير وصيته يوصيها بل يمضيها على ما اوصى، إلا ان يوصي بغير ما امر اللّه فيعصي في الوصية و يظلم، فالموصى اليه جائز ان يرده الى الحق مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كله لبعض ورثته و يحرم بعضا فالوصي جائز ان يرده الى الحق و هو قوله‏ «جَنَفاً أَوْ إِثْماً» فالجنف الميل الى بعض ورثتك دون بعض و الإثم ان تأمر ...

(1). الدر المنثور 1: 175- أخرج ابو داود في مراسيله و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن عائشة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 323

فحتى إذا لم يكن الجنف مخيفا- و هو مخيف بطبيعة الحال للمؤمن- فواجب النهي عن المنكر يفرض إصلاح الوصية.

إذا «جَنَفاً أَوْ إِثْماً» تحلقان على كل جنف و إثم حيث يخاف منهما إيمانيا، و بين الجنف و الإثم عموم من وجه يتلاقيان في الوصية بالمحرم الذي فيه إثم و تبعة الخلاف بين الورثة، ثم قد تكون الوصية جنفا غير إثم لا تبعة فيه بين المعنيين بالوصية، أو إثما غير جنف كما أوصى بحلّ و لكن دون رعاية الأقربية و الأحوجية و لا مرجح غيرها كمزيد الإيمان.

فروع حول الوصية

: 1 إذا أوصى بمال لمن يرثه دون تسهيم، ام لمن لا يرثه لحاجب الطبقة الوارثة و لكنهم وارثون أصالة لأنهم من طبقات الإرث، فكيف يقسم الموصى به؟.

هنا التقسيم كما فرض اللّه في الفرائض: للذكر مثل حظ الأنثيين، أمّا ذا من تسهيمات مستفادة من الكتاب و السنة، فان الوصية في الثلث تقدّر بقدرها تسهيما إن قررّ لكل من الموصى لهم، أم إلى ما فرض لهم ان ورثوا، ان كانوا من غير الطبقة، كما

في صحيحه زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) في رجل أوصى بثلث ماله في أعمامه و أخواله؟ فقال: لأعمامه الثلثان و لأخواله الثلث‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الفقيه 530 رقم 1، و يؤيده ما روى عن سهل عن أبي محمد (عليهما السلام) في حديث: و كتبت اليه: رجل له ولد ذكور و إناث و أقر لهم بضيعة أنها لولده و لم يذكر انها بينهم على سهام اللّه عز و جل و فرائضه، الذكر و الأنثى فيه سواء؟ فوقع (عليه السلام) ينفذون فيها وصية أبيهم على ما سمى فان لم يكن سمى شيئا ردوها الى كتاب اللّه عز و جل ان شاء اللّه تعالى، (الكافي 7: 45 و التهذيب 3: 393 و الفقيه 530).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 324

أقول: ذلك إلّا ان يظهر من كلامه التسوية بينهم، فانه يقدم على مقدرة السهام.

2 هل تجوز الوصية بمال دون قبول من الموصى له؟ ظاهر الآية هو الجواز و المضي، اللهم إلّا ان يرد الموصى به، لأنه هبة تحتاج الى قبول، ام و لأقل تقدير ان لم يردّ، و اطلاق الآية لا يقتضي إلا عدم شرط القبول، و اما جوازها مع الرد فلا، و الصحيحة السابقة مما تدل على عدم اشتراط القبول، فقد تكون الوصية بين عقد و إيقاع، إيقاع لجوازها دون قبول، و عقد لردها بالرد، فهي- إذا- برزخ بينهما، حيث الآية و الصحيحة تدلان على جوازها دون شرط القبول، ثم لا دليل على اشتراط القبول و انما هو على نفاذ الرد ان ردها الموصى له، و مما يؤكد عدم اشتراط القبول صحيح عباس بن عامر قال: سألته عن رجل أوصى بوصيته فمات قبل ان يقبضها و لم يترك عقبا؟ قال: اطلب له وارثا او مولى نعمة فادفعها اليه، قلت: فان لم اعلم له وليا؟ قال: اجهد على ان تقدر له على ولي فان لم تجده و علم اللّه منك الجد فتصدق بها، «1» فان عدم الاستفصال في قبول الموصى به و عدمه دليل عدم اشتراطه.

3 هل تجوز وصيته في الثلث بعد ما جرح نفسه او فعل ما فيه موته؟

ظاهر الآية نعم لإطلاق‏ «إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» بل ان المقصر في مصيبة موته أحرى من القاصر فيها ان يوصي لعله يجبر من تقصيره، و الصحيح في عدم جواز وصيته لا يستطيع على تقييد الآية بهذه الطلاقة الطليقة «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفقيه 530- 4 و الاستبصار 4: 138 و التهذيب 3: 397.

(2) هو

صحيح أبي ولاد سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: من قتل نفسه متعمدا فهو في نار جهنم خالدا فيها قيل: أ رأيت إن كان أوصى بوصية ثم قتل نفسه متعمدا من ساعته تنفذ وصيته؟

قال فقال: إن كان أوصى قبل ان يحدث حدث في نفسه من جراحه أو فعل لعله يموت أجيزت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏2، ص: 325

4 هل يجوز ان يرجع عن وصيته صحيحا او مريضا، في مرض الموت و سواه؟ طبعا نعم لأنها ليست عقدا لازما لا رجوع فيه، اللّهم فيما وهب لقريب له بالمعروف فلا يجوز الرجوع عنه، و في سواه يجوز الرجوع الى الأقرب معروفا، و أما الى غير المعروف او ان يترك الوصية المعروفة الى تركها عن بكرتها فلا لأنه خلاف واجب الوصية و قد فعله، فكيف يصح تحويل الواجب عما حصل؟ و المعتبرة في سماح الرجوع عن الوصية مخصوص بما سوى هذه الموارد «1».

5 هل تجوز الوصية بما زاد عن الثلث ان لم يجزها الورثة؟ آية الوصية الطليقة قد تحمل الجواز، و لكن «بالمعروف» فيها تقيد الوصية بما يتحمله الورثة، ثم الجنف و الإثم تقيد انها بغيرهما، و من ثم آيات الفرائض تفرض ميراثا بعد الدين و الوصية، فلا تجوز الوصية في المال كله، و متواتر الروايات تحددها بما لم تزد على الثلث، فالرواية القائلة بجوازها في المال كله‏ «2» خلاف الكتاب و السنة، و ان كانت تجوز في كل المال او جله بإجازة الورثة كما في المعتبرة، و لان المال حقهم فلهم التنازل عنه قدر ما يسمحون.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

وصيته في الثلث و إن كان أوصى بوصية بعد ما أحدث في نفسه من جراحه او فعل لعله يموت لم تجز وصية (الوسائل كتاب الوصايا ب 52 ح 1)

أقول: عله بطلّ وصيته لحكمه عليه بخلود النار فهو إذا كافر و وصية الكافر غير نافذة.

(1). كما

في موثق بريد بن معاوية عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: «لصاحب الوصية أن يرجع فيها و يحدث في وصيته ما دام حيا» و صحيح محمد بن مسلم عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) المدبر من الثلث و قال: «للرجل ان يرجع في ثلثه إن كان أوصى في صححه او مرض» (الكافي 7: 22) و رواه مثله عبيد بن زرارة عنه (عليه السلام).

(2)

هي رواية عمار الساباطي عن الصادق (عليه السلام) قال: «الرجل أحق بماله ما دام فيه الروح إن اوصى به كله فهو جائز له» (الفقيه 527).